خوسيه ماريا ميرينو

Twitter: @alqareah
16.5.2015

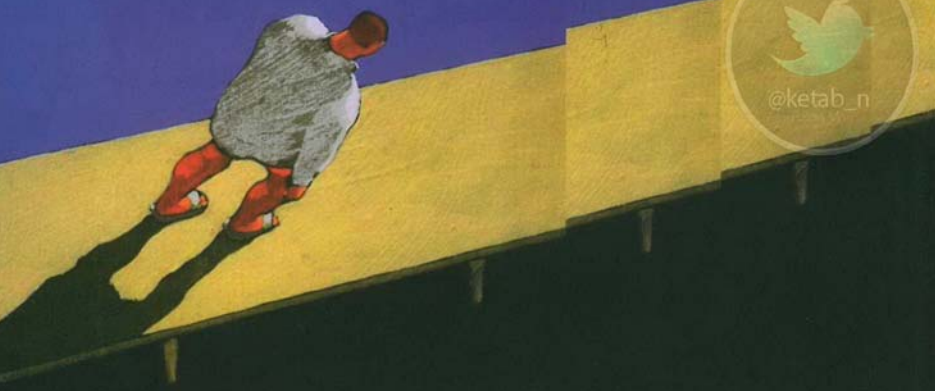

@ketab_n

الضفة المظلمة

رواية

ترجمة : صالح علماني

خوسيه ماريا ميرينو

الضفة المظلمة

رواية

ترجمة صالح علماني

Twitter: @alqareah

الضفة المظلمة

Twitter: @alqareah

Author : José María Mereno
Title : La Orilla Oscura
Translator : Saleh Almani
Al- Mada : P.C.
First Edition : 2008
Copyright © Al- Mada

اسم المؤلف :خوسيه ماريا ميرينو
عنوان الكتاب :الضفة المظلمة
ترجمة :صالح علماني
الناشر :المدى
الطبعة الأولى :٢٠٠٨
الحقوق محفوظة

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من الإدارة العامة للكتاب ، والأرشيف ، والمكتبات في وزارة الثقافة الإسبانية .

Esta obra ha sido publicada con una subvención de la Dirección General del Libro, Archivos y Bibliotecas del Ministerio de Cultura de España.

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

Twitter: @alqareah

إلى سابينو أورديس،
معلماً وصديقاً

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الفهرس

I. في المتحف 9

II. الصورة 39

III. الضفة المظلمة 67

IV. رواية الربان 91

V. وتتواصل رواية الربان 119

VI. عند نهاية المساء 143

VII. قصة نونيا 171

VIII. الإله الضب 201

IX. العودة 221

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

I. في المتحف

ومضات خافتة في الظلمة، رؤاه كلها تلاشت: فراغ الباب في أحد جوانب بسطة الدرج المؤدي إلى فسحة خاوية في الغابة، والممر الممتد إلى ما بعد الخزانة ذات الأدراج، تحت لوحتين قاتمتين، يختلط بدرب تحفّ بجانبيه آجام ضخمة وجذوع عملاقة؛ بريق ضوء في العمق ينسكب بين طيات ستارة رمادية، ويتوافق مع الضياء المبعثر في حيز خالٍ من النبات، حيث يحافظ ورق الشجر الكثيف، مع ذلك، على تسلط ظله. وفي الهواء ارتجاج تكتكة ساعة هو في الوقت نفسه ـ بتضاؤل إيقاعه الرتيب بفعل الصدى ـ حفيف أجنحة، ودوي نعيب طويل، وخرير ينبوع مبهم.

«ربما كنتَ تحلم مع أنك ترى أنك مستيقظ»، فكر. فتح عندئذ عينيه، واكتشف النهار. قبل لحظة، حين كان جفناه مطبقين، كان الليل الذي ذوّب تلك الصور يمتد في الجانب الآخر. ولكن، يبدو أن مجرد حركة جفنيه البسيطة قد أفادت، أيضاً، في فتح أهوسة النور موفرة الفرصة لمجيئه المفاجئ: غمر النور كل شيء، ولطخ السطوح، وانفجر في زخارف الأثاث، وزوبع حول منضدة الكوميدينو إلى أن حوّلها إلى جزيرة صغيرة مُصمتة. وهكذا، تحددت الأشياء كلٌّها، فجأة، بحضورٍ بالغ الحسم، صار من غير المعقول معه التفكير في ماض كانت الظلمة فيه تخفيها، أو في مستقبل ينطفئ فيه الضياء مرة أخرى، فتختفي من جديد.

إنه الصباح، وكما في كل يوم في تلك الأنحاء، حل النهار فجأة، دون فجر، بحيث يمكن الظن أن أحداً قد أضاء النور بمجرد تشغيل مفتاح؛ وجعله الشرط اللبنيّ لذلك الضوء البكر، المحاط بحلقة شهباء تخفف من انعكاسه، والوساخة الخفيفة التي تطمسه، يُصرُّ على تلك الفكرة، ويتصوّر بتصميم أنه قد لا يكون ضوء الشمس السيارة في الفضاء السماوي لتغمر الشارع وتبلغ النافذة وتنسكب في الحجرة، وإنما هو بريق مصباح بعيد بدأ يضيء ردهات بناء فُتحت لتوها. إنه نور اصطناعي إذاً، يشع داخل حجرة. وفكر بعد ذلك، لو كانت تلك الساحة الممتدة تحت النافذة ليست إلا جزءاً من محل مغطى، فلا

Twitter: @alqareah

بد أن تكون لذلك المحل مساحة هائلة، وأبعاد شاسعة: ربما أبعد من ذلك بكثير، وخارج جدران بعيدة، وهائلة أيضاً، مازال الوقت ليلاً؛ وربما لا يزال يتواصل هناك مرور ليلة أطول بكثير وأشد كثافة من معارفه المعهودة، ليلة بمعايير تلك المناطق هائلة الاتساع.

تصور أن النور الذي أضيء فجأة هو إشارة تسبق الأعمال الخاصة بنشاط يومي ما، وداخله الريب في أن ذلك المكان الشاسع هو مخزن غامض بالفعل، متحف غريب تُحفظ فيه كائنات وأشياء متنوعة المنشأ. وفكر في أنه قد يكون هو نفسه جزءاً من تلك البضاعة، وأن حجرته ليست سوى الوعاء الذي يحفظه.

أخيراً، أوحى إليه ذلك التخيل للمخزن الفسيح الهادئ ليلاً، والذي أضاءه مصباحٌ، فجأة، بنور ضارب إلى البياض، بفكرة جديدة عن حجمه هو نفسه، وأيقن بذعر أن حجمه، إذا ما قارنه بمقاييس تلك الأجواء الخارجية، سيبدو صغيراً جداً. وأدرك عندئذ أن الفندق كلّه يكاد يكون صندوقاً متوسط الحجم مركوناً على أحد الرفوف؛ وأن كائنات أخرى مثله، ضئيلة وضعيفة، حبيسة علب صغيرة تشبه تلك الحجرة، مكرّسة لتجارة مجهولة، تظل محفوظة مثله على رفوف الردهات الهائلة نفسها.

إنه مكدّس في مخزن هائل. أو مصنّف وفق ترتيبات غير معروفة في متحف غامض. فكرة المتحف التي بدا له، من جهة، أنها أوضحت قليلاً بعض مظاهر حدسه، أعادته مع ذلك إلى الصحوة التي بدأت للتو: أنزل الغطاء عن أسفل وجهه بشد ساقيه، وبذل جهداً ليعتقد أن قشعريرته كانت تخيلاً، وأن الأمر مجرد تصورات لا تزال تتدلى من وعورة الحلم، وأنها غير مؤذية في نهاية المطاف، وأكد لنفسه اليقين بأن تهديدها ليس ممكناً. كان قد أسلم لها قياده في منطق التذبذب بين النوم واليقظة، ولكنه لم يكن كائناً ضئيلاً: لاشك في أن حجمه يتناسب مع طول قامة غيره من السكان ومظهرهم، ومع مجمل الفضاء المحيط بهم.

أدرك أن زياراته المهووسة لمتحف المدينة، ومن خلال ذكريات غامضة كامنة في الوعي الذي مازال غافياً، هي السبب في ذلك الإيحاء بالتحوّل الفظيع. «لن أعود أبداً إلى ذلك المتحف»، قرر.. «لن أعود إليه أبداً، أبداً»، دمدم محركاً شفتيه بقوة، ليؤكد بتفخيم على أهداف تفكيره.

Twitter: @alqareah

ظل دون حراك، بعينين مصوبتين بثبات إلى الخارج. لكنه، وهو لا يزال يتأرجح في ذهول النعاس الفريد، فكر في أن ذلك الضوء قد لا يكون ضوءاً، وإنما هو مجرد لون مادة جامدة؛ لأن للضياء المتراكم خلف الزجاج كثافة خاصة، ليست مكونة من ضوء وفضاء وكتل غيوم، بقدر ما هي شيء صلب وقريب، محشور في لوحة قماشية ضاربة إلى الرمادي، حزمة هائلة سقطت من السماء، وعلقت بين أوراق الشجر الخضراء الداكنة، وأزهار الفلامبويان الحمراء المنتصبة في وسط الساحة التي تظهر ذراها قليلاً من الحافة السفلية لزجاج النافذة، وقد فقدت هيئتها الكاملة، فتبدو عند النظر إليها من الفراش كأنها أوراق نبتة صغيرة، وليست نهايات امتداد الجذوع الطويلة، بل تنبثق مباشرة من الأرض على بُعد سنتيمترات قليلة إلى أسفل.

وهكذا، راحت شكوكه بأن الضوء اصطناعي، وأن الساحة مكان فسيح مسقوف، وأنه هو نفسه كائن ضئيل، تتداخل مع التأمل المطمئن لتلك الرزمة الكبيرة الساقطة على النافذة، حتى انتهى إلى وهم أنه موجود في مكان تحت أرضي: يمكن لذرى أشجار الفلامبويان أن تكون مجرد أجمة طالعة من سطح الأرض، عند مستوى إطار النافذة، وهذا الطابق الثاني قد تحول إلى أعلى جزء من قبو. لكنه صار الآن خارج أي نوع من الأحلام، ولم تكن تلك الرؤى الخادعة سوى حصيلة كسل استسلامٍ للأوهام: فالنور مازال يتراكم، وينسكب من الخارج مثل كتلة لطيفة، والأصوات تقدم شهادة حاسمة على الواقع الذي ينتصر في نهاية المطاف على كل وهم، بعيداً عن كل زخارف كابوسه. وتكتكة الساعة الخافتة، في صور الحلم الأخيرة، تحولت إلى صدى بندول كان هو أيضاً رجع نقيق وهمهمات وتيارات في أيكة برية، يأتي الآن ليستقر على الكوميدينو، تحدده أصوات الصباح: المصعد الذي يهتز في مساره بعد نحنحة انطلاقه الخفيفة، الهمهمة المعلنة عن شخير المكانس الكهربائية التي تقترب أكثر فأكثر، وقع الخطى المبتعدة، بعد طقطقة مفتاح الباب. لا شك في أن الفندق يبدأ يوماً آخر، بينما هو باقٍ في سريره، متأهباً للرد على الهاتف الذي سيرن بين لحظة وأخرى ليخبره بحلول موعد استيقاظه.

بدأ يسمع في تلك اللحظة أنّة مكتومة، في الجانب الآخر من حاجز ألواح خشبية متتالية، مصقولة وضاربة إلى الحمرة. الصوت الذي مازال من غير

Twitter: @alqareah

الممكن تحديد كنهه، كان غريب النوع، كما لو أنه حرّ من المواقيت والبرامج، وجعله يتذكر أن الهاتف لن يرنّ، لأن اليوم سبت وليس هناك من ينتظره في الجامعة. توافق وعيه بالعطلة والراحة مع أصوات الحجرة المجاورة التي بدت في البدء أشبه بأنين طفل يبكي نائماً، ولكنها راحت تتعاظم وتتحدد ببطء، إلى أن شكلت نقيضاً للبكاء، وصارت أشبه بضحكة مخنوقة، تزداد حدّة أكثر فأكثر، حتى لم تعد تبدو له ضحكاً كذلك، ولتتحول إلى علامة مشاعر أخرى، مختلفة عن الضحك بقدر بعدها عن طيب المزاج. صار الأنين جامحاً وتحول إلى كلمات غير مفهومة، وصرخات لها نبرة الاسترضاء، أو الرجاء، أو الالتماس، بكلمات مفاجئة، متقطعة، انتهت أخيراً إلى الصمت.

عندئذ، حين لم يعد يسمعها، ارتاب في أنها لم تكن تأوهات غرامية، وإنما هي أنّات أُطلقت في لحظة حرج أخرى: كما لو أنه ضائع بالفعل وسط أدغال خانقة، أدغال حلمه الغريب تلك، على مقربة من وكر حيوان ضارٍ انتهى للتو من التهام طريدته. لكنه سيطر على القلق واستوى في الفراش. تناول ساعته، وتحقق من الوقت واليوم في مستطيل التكبير الصغير.

كان يوم سبت. حاول استعادة هذه الفكرة بحذر واستبعاد أية أوهام أخرى. وبينما نظره موجه إلى السقف، استعرض الزمن الذي خلّفه وراءه، وفوجئ حين تأكد من أن أكثر من خمسة عشر يوماً قد انقضت ولم يكد يبقى له سوى خمسة عشر يوماً لإنهاء الحلقة الدراسية: وتنتهي معها تماماً مهام عامه الدراسي، وتنتهي كذلك سنة أخرى من حياته على ذلك الشاطئ من المحيط، وسيتوجه أخيراً إلى بلد مولده على الضفة الأخرى، ليبدأ إجازته السنوية.

«لن أعود إلى المتحف»، ردد مرة أخرى متلذذاً بقراره. «أبداً، لن أعود أبداً».

استيقظ، ولكنه مازال ملتفاً بالنعاس اللذيذ وهو يعيد الساعة إلى المنضدة الصغيرة ويقدر كم هي الساعة في تلك اللحظة هناك بعيداً، في مدينة أزمنة فتوته. تمثّل في أحلام يقظته صورة الكوكب، مع العلامات الجغرافية لكرة أرضية مدرسية، وكان من خلال خطوط العرض والطول يحاول أن يتتبع الطريق الدقيق الذي يقوده إلى المكان الذي أتى منه هذا

Twitter: @alqareah

الفجر، في رحلة رجوع من خلال أجزاء ساعة والمواضع المحتملة للشمس، فأثار فيه ذلك ارتباكاً دورياً بسبب اختلاط الحسابات الذي لا مفر منه، وعجزه عن طرح الوقت اللازم كي يجد فيه الذيل النهاري والساطع لهذا الفجر نفسه، البعيد جداً، وشديد التزامن مع ذلك، حيث مازالت، دون شك، أشياء البيت الأبوي وأركانه ملتفة الآن بحديث المائدة الخافت.

ولدى استذكار البيت الأبوي أدرك أن رؤيته نفسه، في حلم اليقظة ذاك المتلاشي تدريجياً مع الاستيقاظ، وقد تحول إلى كائن صغير جداً، ونبض ساعته الخافت، وضجة الفندق الأولية التي أوحت إليه بأصداء مكان هائل، غطت مع ذلك على إحالة أكثر تحديداً بكثير: عرف أن ذلك الكائن الصغير الذي ظن أنه قد تحول إليه إنما هو إحدى دمى الجنود الصغيرة المصنوعة من الرصاص أو الباكليت، القابعة ضمن علب أو ملفوفة بقطع من الورق في قاع أدراج الخزانة في غرفة طفولته، وراء علبة ألوان الرسم. كان واعياً تماماً أنه في أحد تلك الأجسام الصغيرة، بسلبيتها ومخبئها، تكمن الإشارة الحقيقية إلى التحول الذي حَدَسه. ربما كانت الإشارة تحديداً في هيئة أحد أولئك الجنود الإسبان القدامى، ذوي البناطيل القصيرة، والخوذات ذات القنازع العالية، ودروع الصدر اللامعة، يسندون إلى أكتافهم بنادق طويلة، ويحملون باليد الأخرى رماحاً متعددة الحراب. وأدرك كذلك أن الكرة الأرضية في حساباته المستحيلة ليست الكرة الحجرية الضخمة في ذلك المتحف الذي أقسم إنه لن يعود إليه أبداً، وإنما هي كرة الجبس الصغيرة التي كُسرت عدة مرات وأعيد ترميمها بمادة لاصقة، والتي ثُبتت عليها البلدان بألوان صارخة، تشير إلى أواخر تألق استعماري اختفى الآن من الخرائط كلها.

ابتسم: فعلى الرغم من مرور السنين، مازالت أمه تحفظ في الخزانة، بترتيب دقيق، الأشياء التي كانت له وهو طالب، والكثير من ألعابه حين كان طفلاً. حافظات أقلام، عربات قطار من الصفيح، خداريف ومناظير، بوصلات وفرجارات صغيرة. وانتقل بخياله مجدداً إلى هناك، يتعرف على أمكنة عادات الصبا؛ أولاً باب الدخول، وفيه تلك الكوة التي هي نافذة صغيرة بيضوية من الزجاج، وبعد ذلك الممر ذو الثلاثة منعطفات، حتى الوصول الصالة في العمق، حيث يطفو على الدوام بريق، هو بريق الشمس حين يكون الوقت ظهراً أو بريق المصباح المنتصب، عند الغروب.

Twitter: @alqareah

إذا ما رجع إلى هناك، ربما ستخامره الشكوك في أنه لم يرجع من بلدان بعيدة، بعد سنوات غياب طويلة تخللتها زيارات صيفية قصيرة وحسب، وإنما سيشعر بأنه مازال فتى تلك الأزمنة البعيدة، وقد خرج من البيت هذا الصباح، في طريقه إلى المدرسة، وسيعود بعد انجاز روتين مماثل في كل شيء لروتين مئات الأيام المنظومة في سلاسل الماضي المدرسي. وأبقته ذاكرته ـ وقد ظل فيها فجأة ذلك الصبي الكامل وغير المتغير الذي كانه ـ مثبتاً للحظة في ذلك الإيحاء. لكنه نفض عنه ميله الآلي، وتعرّف أخيراً على ذلك المكان البعيد وسط صحو يقظة يقدم كل شيء بصورة مغايرة. وهكذا، بعد أن تقوضت نهائياً حساباته التوقيتية، عصف القلق للحظات في رأسه الفارغ حيال استحالة توافق زمنين، هذا الفجر هنا، والزمن الحاضر؛ وحديث المائدة هناك، والزمن الماضي، كرصد لشيء يتوارى مفعماً بالخطر وراء الجغرافية المحضة.

غادر الفراش واقترب عندئذ من النافذة. كان الشارع في الخارج. وليس أجواء متحف وهمي ضخمة، ولا سطح الأرض، وإنما الشارع، وهو ممتلئ بالناس. وعن تلك المسافة، كانت كل الملامح تتوحد، وتقدم الحشود مظهراً متشابهاً، دون أن يتمكن اختلاف ألوان الملابس من تمييز الهيئة الفردية للمتسكعين البطيئين.

رؤية المارة حثته على الحركة: لا بد له، دون ريب، من استغلال أيام العطلة، وأن يقوم أخيراً بواحدة من تلك الرحلات التي أجلتها زيارته المتكررة إلى المتحف يومي السبت الفائتين. «لن أعود إلى ذلك المتحف أبداً»، قال مترنماً، وألقى بنفسه مجدداً على السرير شاعراً كما لو أن ذلك الاستيقاظ قد منح له أول مرة، كما لو أنه خروج أولي من حلم غير متناه كان غارقاً فيه منذ بداية الزمان، ولأسباب يعرف أنه عاجز عن سبر غورها، يعرف أنه تخلص منه في ذلك الفجر بعد تصوره المشوش لمر منزلي هو في الوقت نفسه درب في كثافة غابة.

رتب نفسه بهدوء، وبتمهل يوم لا تعجل فيه، كما لو أنه يستعد لطقس احتفالي لا يتطلب اختيار ملابس مناسبة وحسب، وإنما يتطلب كذلك إيقاعاً محدّداً في طريقة ارتدائها بالذات. وحين انتهى من ارتداء تلك الثياب الصيفية المريحة، وبعد أن خبأ الوثائق والنقود، جمع النشرات الدعائية المتعلقة

Twitter: @alqareah

بالبراكين الكبرى، وشواطئ الرمل الأبيض، والمراكز الاستيطانية، والوديان الصغيرة الهادئة التي تتهيج حولها كتل نباتية كبيرة. لأنه سيغادر المدينة أخيراً في ذلك السبت وسيلتقي بأحد المناظر التي لا يعرفها. كان الوقت باكراً، وكانت كل وكالات السفر ومراكز الانطلاق قريبة من الفندق. تناول الفطور بشهية افتقدها في الأسبوعين السابقين، وخرج إلى الشارع بالطمأنينة التي تلي القرارات الحاسمة.

❖ ❖ ❖

كان اكتشافه المتحف في نهاية الأسبوع الأول من عمله.

فقد انشغل في الأيام الأولى باجتماعات متنوعة مع الأساتذة الآخرين، وهو يخطط للمهام المستقبلية، فلم يجد الوقت ولا الحماسة للتجوال في شوارع أخرى غير تلك التي تقوده إلى الجامعة، ولا ليتأمل بتمعن أماكن أخرى غير قاعة الدرس القديمة حيث يستخدمون، كمنضدة للعمل الجماعي، مقعداً كبيراً مخلعاً تتوزع حوله عدة كراس قابلة للطيّ.

كان يقضي الصباح في القاعة، ويتوقف عن العمل لأكثر من ساعة بقليل كي يأكل في أحد المطاعم الصغيرة القريبة، ثم يواصل عمله بعد الظهر، إلى أن يملأ غسق المساء، المفاجئ كما الفجر، حرم الجامعة بالظلمة.

وفي إحدى تلك الأمسيات، بعد مغادرته الجامعة، دخل داراً للسينما، وغلبه النوم في المقعد. لكنه كان يعود في الأيام الأخرى مباشرة إلى الفندق، فيستحم، وبعد جولة قصيرة في الشوارع المحيطة، يستغرق خلالها، بضجر خالص، في تأمل الواجهات ولوحات الإعلانات، يتناول عشاءه بهدوء ويعود لينام بعد أن يتناول كأساً في البار الذي يقوم على الخدمة فيه بارمان زنجي، نحيل، ذو يد صائبة.

وفي يوم الجمعة الأول ذاك لوجوده هناك، انتبه كيف أن زملاءه، وقد تخلصوا من الوقار المعهود، راحوا يتفرقون بسرعة نحو بطالة نهاية الأسبوع.

ـ حاول أن تستريح، يا دكتور. ـ قالوا له.

كان لطفاً مبالغاً فيه كأنه موجه إلى مريض ناقه. ربما بدت لهم جهوده خلال الأسبوع كبيرة جداً.

ـ انسنا، اذهب بعيداً وتمتع.

Twitter: @alqareah

وقد تأخر أحدهم بضع لحظات وهو يتحدث إليه، وكأنه يشعر بالأسى لتركه وحيداً.

ـ سأقربك من الفندق.

ـ لا، أرجوك أن تذهب. لا تقلق بشأني.

ـ ليس في هذا أي إزعاج. إنه في طريقي.

ـ أشكرك. ولكنني أريد التجول قليلاً.

وأخيراً ظل وحيداً، يحاول أن يتذكر إذا ما كانت لا تزال هناك مهمة عليه إنجازها قبل العطلة. لم يكن معتاداً على تولي أعمال بعيداً عن قاعات دروسه اليومية، وكان يشعر بأنه خاضع لإحساس بواجب هو مزيج من النشوة والإكراه في الوقت نفسه، له أثر طَعم تبشيري. غير أنه لم يعد لديه أي عمل معلق، ويمكنه أن يراجع في الفندق مسائل عمل يوم الاثنين التالي كلها. أمامه إذاً وقت إجازة كاملة ليقترب، دون أية التزامات أخرى، من العالم الذي كان يوقظ في نفسه الكثير من الأصداء الصوفية، والذي بدا له إشراقياً جداً حين لمحه، بدءاً من الطهر الشمالي، في الصور التوضيحية الجغرافية التي قدمتها إليه المكتبة.

كان منتصف النهار، وكان حرم الجامعة يتلألأ تحت الشمس. وفي وسط الفناء نافورة قديمة جافة، من أحجار قاتمة، تحول ضخامتها دون انعكاس كل ذلك الضوء. اجتاز الفناء سعياً إلى ظل القناطر. كان وقع خطواته يتردد في صمت الممر، وكان يستسلم للوحدة بمتعة، متأملاً بتمعن الجدران البيضاء التي تنفتح فيها تلك الكوى المتتالية، ذات الأشكال مختلفة الخطوط. وكانت البوابات الضخمة، وقد أُغلقت، قد بدّلت مظهرها المعهود وبدا أن القاعات التي يمكن دخولها عادة قد شُيِّدت الآن في أماكن مسورة أخرى.

في ذلك المحيط الذي يبدو، فجأة، شديد الخواء، والمشيد بيد بشرية، حيث تبدو السطوح الأفقية والبروزات الزخرفية المستقيمة، والمنكسرة، ونصف الدائرية كأنها مجرد تمجيد لبهاء التناسق الهندسي، يظهر، مع ذلك، القفا المطابق لما لا يُرى: الظل المضيء الراكد تحت القناطر، حيث تطفو رائحة خفيفة لربيع دائم مذكرة بسلسلة الجبال الهائلة، والأنهار الجارفة، والغابة غير المتناهية. قبالة الشمس المشتعلة فوق الكتل المعمارية، استنشق ببطء، كما لو

Twitter: @alqareah

أنه مع الهواء الذي يدخل رئتيه، يتغلغل هو أيضاً في فوضى الأمكنة المتقابلة تلك. في ذلك الصباح داهمه أول مرّة الشك الذي تلاشى سريعاً، في أن للأشياء المحيطة به طبيعة مختلفة عن مظهرها وتبدو خاضعة للمكان وللساعة بمحض تماسك ظاهري.

عاد إلى الفندق ماشياً. ولكنه بعد تناول الطعام، ظل في غرفته، أسير فقدان الإرادة في ذلك اليوم الذي بلا واجبات، منبطحاً على السرير وتفكيره متشابك في تكاسل ضارب إلى الصفرة حيث تختلط، إلى جانب نواياه بسياحة ومغامرة سلمية، المشاريع في استغلال هذين اليومين لتنظيم بطاقاته وملاحظاته حول خواص الواقعية الأدبية القشتالية، وهو التزام ينتظره في محفظته مع الوثائق الأخرى. غير أنه تنازل عن كل خططه، واستسلم للنوم. وعند بدء انطفاء النهار فقط، على ذلك النحو المفاجئ دون غسق، تمشى في الشوارع القريبة قبل أن يدخل إلى السينما. وفي الليل، حين عاد إلى غرفته، فوجئ من ملاحظته الطريقة غير العقلانية التي بدّد بها ذلك اليوم من العطلة، وقرر أن يستيقظ باكراً في اليوم التالي ليتعرف على أكثر ما يميز المدينة.

وهذا ما حدث: الاستيقاظ بإحساس مماثل بظلمة ونور مفاجئين، متتاليين، في عينيه؛ ربما بالصورة نفسها لممر في مسكن مديني هو في الوقت نفسه قلب غابة متشابكة، وربما بالشكوك نفسها في كونه دمية صغيرة مخبأة في مكان غامض، وبالذكرى الغائمة نفسها لمنزل بعيد. بعد ذلك، أعادت إليه أصوات الفندق حقيقة الواقع التي انتصرت في النهاية على أحلام اليقظة القاتمة.

كان قد تناول فطوره بشهية وخرج إلى الشارع مستعداً للعثور على ما لا يزال، دون شك، ضمن معلوماته عن هذا العالم. كل ما يتغذى على روايات سُمعت في الطفولة، وقصص عن «إنديانوس»[1]، ولوحات التقاويم، وبطاقات بريد محفوظة بين المناديل، ومناظر ووجوه رآها في السينما. مجموع صور تختلط فيها أشجار جوز الهند والبراكين، الغابة البهية والفتيات ذوات الضفائر الثخينة.

كان قد خرج إلى الشارع، واكتشف صباحاً مضيئاً، دون دلالة على أي

---

[1] إنديانو indiano: تسمية كانت تُطلق على الإسباني العائد من أميركا الجنوبية بثروة كبيرة.

Twitter: @alqareah

سقف أيضاً. صباح مفتوح على سماء حقيقية. وغاص في الصخب الذي تأمله من النافذة. أكشاك كثيرة تعرض بضاعتها على الأرصفة: فواكه ذات مظهر أزرق سماوي، كأنها مطلية بورنيش، وأكوام أناناس مقطع إلى شرائح شذية، وكتل عجينية ذات لون أمغر، ربما هي حلوى، إلى جانب قضبان كراميلا رمادية مفتولة. أحد الباعة يعرض ثمار بوميلو كبيرة، بعد أن يقشرها بحذر على آلة بتثبيتها من قطبيها المتقابلين، وتشغيل ذراع تدوير متصلة بسكين صغيرة تنزع القشرة الصفراء في شريط حلزوني طويل. أصداف بلح البحر مغطاة بطحالب ناعمة، سوداء، متموجة مثل زغب عانة، ومثلجات وعصائر، وبذور متنوعة الأشكال والألوان. عروض الأطعمة تتكرر في كل مكان يتسع لوضع البسطات المزعزعة. وقبالة الكنائس هناك أكشاك تعرض أجنحة ورقية، وصوراً دينية، وأدعية، إلى جانب صناديق ماسحي الأحذية، وقدور كبيرة يطفو فيها، مثل بيوض غريبة في سائل مشيمي، نوع من بسكويت منتفخ وضارب إلى الحمرة. حضور الفواكه والأصداف والحلويات والأشياء الأخرى، كان قريباً جداً ومتلألئاً إلى حدّ تبدو معه كأنها كائنات حية، تراقبه نابضة من مكانها على الحصر وفي الأواني. وحيال كمالها وبريقها، كان البائعون والمارة يبدون كأنهم كومبارس جاد، يتحرك بنوابض آلية خالصة.

خلال الساعات الأولى، تقبل بنهم بطيء ذلك الانطباع بوجود حياة في تلك الأشياء المبرقشة. وفي أثناء سيره، تظهر أحياناً صروح محاطة بأشجار ضخمة، كأنها إشارات تُحيل بوضوح إلى نماذج وأشكال أبنية دينية ونبيلة في ما وراء البحار. لكنه بدل أن يتأمل الكنائس والدور بإحساس بالتماثل، كان يجدها، فجأة، غريبة جداً عن البيوت ذات سقوف التوتياء والأبواب الملونة، كما لو أن حساسيته آخذة بالتحول، وقد اندمجت تماماً بغموض وفوضى كائنات جامدة وأشياء حية، تحت النور النقي.

ولا بد أن الوقت كان ظهراً أيضاً بينما هو يجتاز سوقاً مظلمة، حيث الفواكه التي رآها في الشارع، مضاعفة بصورة لا حصر لها، ومستبدلة حجومها المصمتة بأكوام كبيرة متتالية من الخضار متعددة الألوان، وذات الحضور الأزرق السماوي والحاسم نفسه الذي للعيون الكبيرة في بعض الرسوم التوضيحية، كأنها نظرات متأججة في كهوف أو ظلمات. وكانت

Twitter: @alqareah

تتكدس في أكشاك البيع فراريج منتوفة شحوبها مقزز، أو تُعرض أسماك طويلة الأجسام، ورخويات ضاربة إلى الخضرة، وقشريات قاتمة. وكانت محلات اللحوم تقدم بضاعة مقطعة من الأحشاء واللحم الدامي، يعلقونها كرايات مزهوة، أو تقبع برخاوة على المناضد. لكن القطع كلها تبدو كما لو أنها تتكور وتنتظر.

كانت دكاكين الأطعمة تتداخل مع دكاكين أخرى تعرض جلوداً، وأحذية، وأدوات منزلية وزراعية. وكثيراً ما كان يجد بين تنوع الدكاكين بارات صغيرة، أو حانات ركنية، كأنها ملاذات هدوء مفاجئة، تُقدم فيها للزبائن وجبات أرز وفاصولياء، ولفافات لا يُعرف كنهها، مستطيلة وذات أوراق مسودة تحيط بعجينة زيتية؛ وسلطات تختلط فيها حمرة البندورة بشحوب الملفوف. وفي أحد تلك المطاعم الصغيرة، كانت تُخبز ببطء أقراص رقيقة وبيضاء تشبه قطع خبز قربان كبيرة، وتبدو كأنها تتعمد لملمة قوامها الضعيف، وتلهث على قطع صفيح وحجارة مقعرة في حرارة أفران بائسة ونيران بدائية. إنها أرغفة تُعد لتُلف بها صلصات متعددة الألوان، وخلائط كثيفة كأنها دماء مبهمة.

«كل هذا ينظر إليّ. كل هذا يراقبني، يراني أمرّ» فكر. كانت لعبة، وهماً آخر، لكنه وجد نفسه يراقب القلوبَ والموز بتفخيم، ويرد بغمزات من عينه على رسائل ـ وهي صامتة أيضاً ـ الأشياء المبعثرة على مناضد البيع.

رائحة متعددة، حلوة وحريفة وخفيفة، تقوم هناك بالدور نفسه الذي يقوم به الضوء والصخب في الشوارع. إنها رائحة لم يشمَّها قط من قبل، خليط من زنخ ونتانات غير محددة، وأنفاس حريفة، تكتسب خاصية فريدة. ومع ذلك، كان يتعرف عليها كما لو أنها تنتمي إلى مكان عميق الغور، موازٍ لأحلامه أو ذكرياته أو هواجسه، كأنها أشباح روائح أخرى عائدة إلى الحياة ولا تزال تغمر أسواق وشوارع ذاكرة نائية جداً، بل سابقة لوجوده، أمام نظرات أسماك أخرى كامدة، وجثث فراريج أخرى مترصدة، وهي منتوفة أيضاً وضاربة إلى الزرقة، رؤوسها المتدلية تنتهي، فوق الزغب الدامي، بلسان صغير خارج من المنقار، وعند أكشاك فواكه وخضار وخردوات أخرى. روائح أخطبوطات تغلي في مرجل السوق، وزلابية وزهور المقلاة في زيت مسود. جلبة مهرجان شعبي وأرجوحة أحصنة خشبية. كل الروائح الماضية والمستقبلية كانت تتوالد

Twitter: @alqareah

في تلك الرائحة كأنها المادة الحيوية لشيء لن يكف أبداً عن الإحاطة به، متجلية بقوة أكبر بالقرب من تلك الانبعاثات الفواحة. وأخيراً، حين خرج إلى الضوء العنيف، مغادراً الظل العابق بالروائح، راوده إحساس واضح بأنه اجتاز الردهة المؤدية إلى أرض غير مرئية لعينيه، حيث يوجد منزلُ ساكنٍ غير معروف.

تأمل الشارع الطويل بهدوء. كانت السماء شديدة الزرقة. وعند نهاية المرتفع تقريباً، في أعلاه، كان صفّ البيوت مقطوعاً بكتلة ضخمة ذات لون أمغر. وعلى الرغم من بُعد المسافة، كان من الممكن لمح منظر جانبي لسور كبير ينتهي بكتلتي برجين إسطوانيين. بدأ المسير إلى هناك بعيداً، متحملاً بتوجس الضوء العنيف والحر، كما لو أنه يمكن لسطوة الشمس أن تصعقه في أي لحظة بين روائح ذلك الصباح وأضوائه المعاكسة.

كان المكان حصناً على شكل قلعة. وكانت الأبراج والأسوار تنتهي بشُرفات رماية ناتئة ومتتالية. بدا البناء في حالة جيدة، وبالرغم من أنه لا يمكن تجاهل أصله ـ فالشعار القديم ظاهر فوق البوابة ـ، إلا أن مظهره المُجدّد يمنحه هيئة حالمة مضى زمنها، كما لو انه لم يُشيد في سنوات الغزو الإسباني البعيدة، وإنما في الأزمنة المعاصرة للأرصفة والبيوت الصغيرة.

قبالة القلعة، في ظل اتساع في الشارع يشكل ساحة صغيرة، كانت هناك جماعة فضوليين تحيط بلاعب أكروبات يمسك بكل يد من يديه عصا خشبية متينة، ويصعد وقدماه إلى أعلى درجات سلّم نقال موضوع فوق مصطبة عالية. وقف يتأمله دون أن يدرك بوضوح الهدف من تلك الجهود. كان الرجل قوي الذراعين، ضخم الجذع، كثيف شعر الرأس واللحية، له مظهر إثني غريب عن المشاهدين المحيطين به. وصل أخيراً إلى نهاية درجات السلّم وجلس على بسطته العليا. ثم انقلب بعد ذلك ببطء، فصار معلقاً من عرقوبية، رأسه إلى أسفل وذراعاه ممدودان. أفلت العصوين الخشبيتين. وناوله صبي يعمل مساعداً غير ماهر أكورديوناً، ودون أن يبدل لاعب التوازن وضعه المعقد، بدأ بعزف لحن طويل.

كان للرجل وجه صارم، بعينين لامعتين وشفتين مضغوطتين. تذكر

Twitter: @alqareah

عندئذ تقاطيع وجه مألوف، تتوارى تحت الشعر الكثيف والمتشابك وتلك اللحية الكثة. كان من الصعب، مع ذلك، تحديد ذلك الوجه بدقة وهو متجه إلى أسفل. وكان حدسه قوياً إلى حدّ تقدم معه بضع خطوات، منفصلاً عن الناس. ومن وضعه الغريب، كان الأكروباتي الذي أغمض عينيه يعزف مستغرقاً في لحنه. فكلمه بخجل الصبي الذي يطلب النقود:

ـ ماذا تريد، يا سيدي.

عندئذ أدرك أنه تصرّف تحت تأثير دافع وهم خادع. كان المتفرجون يتأملونه بفضول. وبعد تردد قصير، أدار ظهره وابتعد متعجلاً. اجتاز الشارع وبحث، كملجأ، عن سقيفة البوابة الضخمة، حيث يقبع الظل راكداً، ناعماً مثل بخار، مشيراً إلى برودة صامتة.

وفي ما وراء الباب، كان فناء القلعة يسترد الفضاء المكشوف، مظهراً تحت الشمس خضرة وافرة مزهرة حول تحدب مضيء في مسطح فسيح يغطيه العشب. وتحت ظل البوابة الضخمة، كان يجلس على كرسي صغير، ويتأمله، رجلٌ ذو مظهر واهن هزيل، ووجه أسمر ذي زوايا، وشارب أشيب، وشعر كثيف وسبط، يرتدي ثياباً فاتحة وذاوية. وعلى الرغم من خراقة هيئته، كان الحذاء يميزه. جزمة كبيرة عسكرية، تبدو غير مناسبة ـ سواء بلمعانها أو متانة مظهرها ـ للرجل الضئيل الذي ينتعلها.

قرأ اللوحة. ولم يكن هناك أحد في شباك التذاكر، وكان المظهر العام موحشاً.

ـ أليس مفتوحاً؟ ـ سأل.

ـ كيف لا ـ أجاب الرجل.

كان على صدره حزام أسود مدعم بشارة معدنية كبيرة. أشار إلى كوة التذاكر ثم هز يده في إيماءة تهدئة.

ـ لا تقلق، سيأتون الآن ـ وأضاف ـ الآن.

قدم سيجارة للرجل، وبدأا التحدث. وأخيراً، راح الرجل يخبره، مثرثراً، عن القلعة: عن أحداثها الماضية وأحوالها الراهنة. كانت رنة كلامه المغنى الذي يخالطه نقيق راءات خفيف، تضفي على الحكاية وقعاً تكميلياً يتوصل، لكونه عفوياً، إلى تلوينها ببريق أسطوري. وغالباً ما كان يغمغم أواخر الجمل فيجعلها غير مفهومة على نحو جميل، كما لو أن كلمات اللغة

Twitter: @alqareah

المشتركة تتحول فجأة لتشبه لغة أخرى، وليس صحيحاً أن تلك اللغة هي لغة الرجل الطبيعية، وإنما هي تصنع، وقناع مبالغ فيه للهجة رتيبة يخدعه بها.

تحول عنه بنظره، لكنه واصل الاستماع إلى الشرح البطيء. في ذلك الحصن الذي كان في أيامه مركزاً لأعمال الاستيطان والشرطة المحلية، وأداة حاسمة في تسوية المشاجرات والنزاعات بين المستوطنين أنفسهم، أقيم الآن المتحف الوطني. كان الرجل يروي التقلبات التي شهدتها المنشأة بتفخيم خاص، متوقفاً عند حكايات صغيرة، وآتياً على ذكر المؤسسين البارزين بنبرة احترام.

ـ أعمال البناء وحدها كلفت ثمانية ملايين. والنجارة أكثر من ثلاثة.

كان يعدد بدقة أهم النفقات، وأكثر التبرعات جدارة بالذكر.

ـ والد السيد الرئيس قدّم أثاث منزله الذي يعود إلى أزمنة الاستقلال.

وقدمت السيدة زوجته تمثال القديسة روسا ذات الشعر الطبيعي، وبيانو قديماً جداً، جيء به في عربة من ساحل الأطلسي قبل مدّ السكة الحديد.

كانت مقتنيات المتحف موزعة في ثلاث مناطق: الأولى، ويبدو أنها الأوسع، مخصصة للفن الديني الكولونيالي. والأخريان تضمان بدورهما أشياء ومرجعيات من العالم ما قبل الكولومبي من جهة؛ ومن جهة أخرى، معطيات تاريخية عن الأمة منذ استقلالها، في الربع الأول من القرن الماضي.

عند انتهاء السيجارة، رمى الحارس العقب على الأرض، وداسه مع دعك بطيء وجلس من جديد مستعيداً وضعه الساكن.

ـ أنا هنا تحت أمرك ـ قال بعد صمت قصيرة.

كانت آنسة قد اتخذت مكانها في شباك التذاكر. اقترب منها، دفع رسم الدخول، وبعد أن اجتاز الجانب الآخر من الردهة الفسيحة المظلمة، توقف أمام النور المنعكس على الفناء الممتد باتساع إلى اليمين، والمغلق من جهاته الثلاث الأخرى برواق مسقوف، يسند سقفه الضيق على أعمدة خشبية متينة. وهناك في العمق مجموعة أشجار تخفي البرج ذا الزاوية القائمة. كان العشب ينتشر في الفناء. وفي ناحية من المرج، أمام الأشجار، فاجأته منحوتة كرة حجرية بضخامة حجمها وجمودها ـ فهي تبدو، من خلال شكلها، أنها تحذير بتدحرج وشيك ـ وفاجأه تناقض سطحها الخشن، الرمادي القاتم في نصفه العلوي، والضارب إلى الصفرة في نصفه السفلي، مع ورق الشجر اللامع

Twitter: @alqareah

والأزهار الوردية التي تتسلق بعض الأعمدة. كان في ذلك الاتساع ضوء مألوف، تعرّف فيه فجأة على تلون وبريق إضاءة بيتية، ربما هي إضاءة رواق البيت في ساعات الضحى، أيام الآحاد، عندما كانت تبقى على المنضدة النقالة بقايا الفطور المستهلك بشيء من الوقار الاحتفالي. ذلك التشابه الغريب جعله يغمض عينيه في حركة مفاجئة. وبعد ذلك اجتاز الفناء.

منطقة المتحف التي يحتفظ فيها بالفن الديني تتوزع في قاعات القبو. ويتم الوصول إلى هناك بنزول طيتين من درج ضيق تفصل بينهما بسطة مربعة. كانت القاعات مضاءة بكوات سمتية كبيرة تصفي ضوء النهار، وبروجكتورات إنارة تسلّط، من الأرض أو الزوايا، ضوءاً أبيض صارخاً ومباشراً على المعروضات والتماثيل. وفي بعض الأماكن، هناك في الجدران الفاصلة بين الحجرات فجواتٌ مختلفة الأشكال. وهذه الفجوات مفتوحة على ارتفاعات مختلفة وتتيح رؤية التماثيل من زوايا غير مألوفة، كأنها نوافذ مستحيلة تكسر، دون هدف منطقي، المظهر الطبيعي الكامد لبقية الجدار. وهكذا، تتوصل الرؤية إلى زوايا غريبة، يبدو أنها وُجدت لمفاجأة أوضاع التماثيل في منظور أكثر تجرداً، وأن تسمح بذلك للزائر ضبط إحساسه بأنه مُراقب وهو يجوب القاعات المتوحدة التي ترنّ فيها الأصداء.

تماثيل متنوعة الأحجام والمظاهر، تصطف، أو تتجمع، أو تتقابل، أو تدير ظهرها. بعضها يحمل الطفل بين ذراعيه، وبعضها يزيغ عيوناً زجاجية كبيرة، ويفغر أفواهاً ذات تجاويف لا يسبر غورها وراء الأسنان الخشبية. وهناك قديسون، بحملهم أغراضاً في أيديهم، يتوصلون إلى مظهر حي مبهم، كما لو أن تماثيل المصلوبين، وذلك الريش المفضض، وتلك العكاكيز، ترتجف في اختلاج نبض. وهناك تماثيل لها نظرات منتشية، أو شعور تصلبت فوق الجباه كأنها هالة مجدها الطبيعية، أو مقدمات أحذية معكوسة، في إشارة غريبة إلى انكفاء باطني وغبطة روحية. وهناك عدة تماثيل سوداء البشرة وناحلة الأجساد، إلى جانب ركبتي كل منها جمجمة، تركع في وضعية تكفير وتعذيب للجسد. وهناك قديسات كبيرات بوجوه بيضاء لامعة، يحملن في جفنات واسعة رموز فضيلتهن واستشهادهن: كرات عيون جامدة، وأثداء مستأصلة بالكامل.

في البدء، لم تُتح له رؤية المجموع أن يتوصل إلى وعي دقيق لكل واحد

Twitter: @alqareah

من تلك التماثيل. ولكن، بعد لحظات قليلة، أعاده إليه المظهر المؤكد للقديس مارتيلو بثيابه الفضفاضة وسيفه في يده، صورة تمثال في وضع مماثل، وبالحجم وتعدد الألوان نفسه، كان يترأس صلوات طفولته في تلك المدينة على الجانب الآخر من البحر. تأمل التماثيل الأخرى بتمعن أكبر، وصارت مفاجأته ساحقة: تماثيل مماثلة في الكنائس الأسرية، أو فوق مذبح بيتي صغير، أو في كتاب صلوات أمه الذي كانت تحفظ بعناية بين صفحاته صوراً تذكارية كثيرة لطقوس مناولات أولى ووفيات، وهي تتكرر، جميعها هنا، تحيط به بتأكيد راسخ على وجود حقيقي: تمثال القديس دييغو الزنجي وطفل الاسم العذب بوجهه الممتلئ وملابسه البيضاء، على جانبي مريم النائمة، مريم الميتة في تابوتها البلوري، ملفوفة بأقمشة شفافة ومحاطة بأزهار من ورق وقماش، مع مسبحة بين يديها الشاحبتين، الدقيقتين، النحيلتين، وبريق غامض تحت جفنيها المطبقين. وفي ما حوله، هناك علب زجاجية صغيرة فيها تماثيل بطول ثلاثة أشبار، ومجسم كبيرة يمثل بيت لحم ميلاد المسيح، فيه تماثيل مربوعة أمام مشهد خلفي كان يُدهشه كثيراً وهو طفل، لأنه يمثل منظراً نهرياً.

وأحياناً، كانت البطاقات الصغيرة التي تحدد هوية التماثيل، تشير أيضاً إلى مناطق شفاعتها، ووجد نفسه يتعرف على كل أولئك الشفعاء الذين كانت جدته تعرفهم جيداً: القديس شفيع النفساوات، والقديس شفيع الموسيقيين، وقديس الحذّائين، وقديس البكم. استدار فجأة دون أن ينتبه إلى أن هناك صندوقاً زجاجياً آخر يعترض طريقه، وكان على وشك السقوط على تمثال كبير للقديس بولس الرسول. كان التمثال في وضع الرقود أيضاً، وبزي مطران، يكشف في يديه المتقاطعتين على صدره عن قروح كبيرة متيبسة. كانت هناك صورة فوتوغرافية مثيرة للفضول لذلك التمثال نفسه، معلقة وسط صور أخرى مطبوعة حجرياً، تزين أحد جدران كنيسة المدرسة. كان لزلة قدمه دوي فرقعة في القاعات الأخرى. فكر في أن وجه القديس بولس، مثل وجوه تماثيل القديسين الآخرين، فضلاً عن احتفاظه بملامح تلك الصور التي عرفها من قبل، يمثل الذكرى الغامضة لإيمائية أخرى، لوجوه حية ضائعة في الماضي.

وكان أن ارتاب عندئذ بوضوح في أن وراء المظهر الحقيقي لكل ما

Twitter: @alqareah

يحيط به، في الزمان والجغرافية، يمكن لتشابكات حلم متينة أن تكون آخذة بمحاصرته. تراجع خطوة إلى الوراء وتأمل التماثيل والأشياء الأخرى بتأثر حقيقي، شاعراً بالدم في صدغيه يضغط ضغطاً خفيفاً متوالياً.

كان يتأمل تبعثرها تحت الإضاءة المزدوجة والمتعاكسة، محاطة بعينات أخرى من الورع والطقوس: تماثيل للمسيح مصلوبة، راقدة، مجلودة، تبدو الجراح على أجسادها كأنها تكتب رموزاً مجهولة؛ تماثيل متألمة بدموع متدفقة وجامدة في الوقت نفسه، وتماثيل قديسين وكهنة تجمدت في تكشيرات كبيرة. وفي ما بينها، أردية مطارنة قاتمة من مخمل قديم، وحرائر تفتا لمست الكفن المقدس، وأحجار مذبح، وصناديق خشبية للعباءات البيضاء الموشاة بزينة قرمزية، وملابس قداس، وشالات، وأقمشة يضعها الكاهن على ذراعه في القداس، وعباءات مطرية، وبراقع تقديس تبدو رثة وحائلة الألوان، في تناقض حي مع متانة أجران العماد، والمباخر، والجرار، وصواني كؤوس القربان، وأطباق خبز القربان المقدس.

الإحساس بالتعرف على الأوضاع، والأشكال، والملامح، والأشياء، كان يترافق مع وقع خطواته الرنانة. وفكر: «كأنني هناك من جديد»: كانت الإشارة تحدد مكاناً وحيداً تجتمع فيه تماثيل القديسين المألوفين، صور المدرسة، ومذابح كنيسة الأبرشية. وتقبل، بمصادفة نادرة لا موارية فيها، أن تكون كل الإيقونات القديمة موضوعة حوله، هاجرة مخابئها المعهودة، ومكومة دون الترتيب أو المراتب التي تحكمها وترفع مكانتها على الرفوف، أو على المذابح، أو في الصور المطبوعة في ذاكرته.

وليُبعد شك أنه غارق في حلم غريب، اضطر إلى التفكير في أنها مجرد دمى كبيرة صُنعت بمعايير العمالقة وضخام الرؤوس، واجتمعت مصادفة في اختلاط مشؤوم. رغب في الاعتقاد بأن وراء كل ذلك الجمود هناك كاريكاتيرية سرية. وبالطريقة نفسها أيضاً، كثيراً ما كان يرتاب في طفولته في أن التماثيل التي يركع الناس أمامها بوجوه بالغة الجد، ليست سوى هيئات لإثارة ضحكة، ومن يدري لأي سبب هي ضحكة مستبعدة، ومنقلبة إلى وقار صارم. وخطر له عندئذ، في أفكار تربكه حتى الخوف، أن فكرة السماء نفسها هي، بالضبط، فكرة مرافقة الشخوص المقدسين الذين ليست التماثيل إلا نسخة منهم، في ذلك الجمود الصامت، وطوال الأبدية

Twitter: @alqareah

كلها. وربما كانت السماء أيضاً لوحة معفرة بالغبار. هذه الأفكار التي كان يستبعدها بإحساس مفاجئ بالرعب في تلك الأزمنة الطفولية، في أيام الممارسة الروحية، عادت إليه كما لو أنه يعيش مجدداً تلك السنوات، باحثاً وسط هذيانات أرق محموم غير معقولة.

بدأت تبرز بعد ذلك أفكار أخرى أشد غرابة: صار بإمكانه الآن تأمل صور طفولته في ملامح ظلت خفية. ومن خلال النوافذ وكوى السقف، كانت الهيئة الخلفية للرؤوس والمرافق والجذوع خالية من أي مظهر ديني، وتبدو أقرب شبهاً بأجزاء من مشهد، إذا لم تُرَ إلا من تلك الزوايا الصعبة، وذلك المنظور الضيق، فإنها توحي باجتماعات سرية ـ لا يمكن رؤيتها إلا في نقطة من ذلك القذال، من تلك الآذان الخشبية الكبيرة، من ذلك الخصر الذي يزنره حزام كبير ـ، حيث تضيء الأنوار الخافتة مؤثرات مشؤومة، طقوساً غامضة، ربما تنتمي إلى استهزاء بانتهاك لا يمكن وصفه للمقدسات.

وكانت تلك الانطباعات كلها تتعزز بقوة من خلال قطع الأثاث القاتمة الضخمة التي تصطف فوقها، دون ترتيب، أوعية الذبيحة الإلهية والكتب وآنية الخمر، والشمعدانات، ومرشات الماء المقدس. وكانت تلك الأدوات المقدسة، بانتزاعها من محيطها المألوف، تكتسب مظهراً مبهماً يتجاوز حدود الطقوس الدينية، كتجاوزه كذلك مظهر الأدوات الجراحية والمطبخية. وعلى منسوجات البروكار السميكة تمتد الخيوط مشكلة خربشات تبدو، في تناقض لما هو مقدس، زينات مشغولة خصيصاً لبهاء كرنفالات ليلية وفقيرة.

إضاءة الكوى والمصابيح المتعاكسة، التي تقطعها كتل التماثيل، تُولّد حول هذه الأخيرة هالات باهتة مختلفة السماكة. توقف بين أسقف وجلاد، وتقصى ذلك الصمت الذي تأتي لتغرق فيه آخر أصداء الشارع. كانت تطفو في القاعة رائحة كلس الجدران الحديث، والتضوعات العالقة بمسوح الكهنة ومعاطفهم، وبالخشب القديم.

وفجأة، حرك الجلاد عينيه، وفتح فمه في ابتسامة مسترخية. انتابه خوف عظيم، وأدرك أنه كان يراقبه دون شك منذ بعض الوقت. فتمتم بكلمة اعتذار مبدياً تأهبه للانصراف، وأعطى الرجل إكرامية لقاء تسامحه الكبير.

حين خرج إلى الشارع، وجد نفسه جائعاً ومتعباً، وراوده حدس خاطف، تحول فجأة إلى رعب، ثم انتهى إلى قهقهة قصيرة في آخر الأمر. فكر في أن

Twitter: @alqareah

تلك التماثيل ظلت ساكنة عند دخوله، واستمرت على تلك الحال خلال وقت زيارته، ولكنها الآن، بعد أن صارت وحيدة من جديد، ربما تكون قد استعادت حريتها وحركاتها. والحارس نفسه ليس سوى واحد منها، إنه ذلك الجلاد نفسه ذو الشارب الكث الذي يحافظ بوفاء على مظهره الحي. كانت افتراضات غير معقولة، ولكنها تتفق بتماسك مع ذلك الجيش من الصور التي تأتي من ماضيه. تناول طعامه في مكان قريب، وتأخر في تناول القهوة على المنضدة نفسها بانتظار افتتاح الفترة المسائية.

وعندما حان الوقت، رجع إلى القلعة، ونزل مجدداً إلى القبو، وعاد للتجوال في القاعات بين التماثيل الراقدة، المصلية، المتشنجة التي تحافظ، إلى جانب ذروة جمود الألم والنشوة الروحية الذي ترمز إليه، على الذكرى الواضحة للمكان الذي جاءت منه، وقد تحوّل إلى ركن محدد وثابت في ذاكرته.

تآلف معها، مع وضعها ومع المكان الذي تشغله، وسيبقى هو أيضاً ساكناً، بلا تنفس تقريباً، آملاً تضليل نظرات الزائرين الآخرين، الفضوليين القليلين الذين يذرعون القاعات بدوي خطوات وتجوال بطيء ربما يخفون فيه بعضاً من الشكوك المبهمة التي أثارتها فيه تلك التكشيرات المتجمدة.

انتهى الدوام أخيراً. خرج من الحصن مضطرباً ومعانياً الدوار. لم يكن الحارس موجوداً، وكان كرسيه الصغير قد اختفى أيضاً. مضى ماشياً ببطء نحو الفندق. ومن الأشجار غير المرئية كانت تهبط رائحة زكية، لكنه كان يشعر بالحزن، كما لو أن كل ما كان كئيباً في طفولته، وكل ما كان فيها من فجوات وظلال ومخاوف قد انبعث من جديد.

أحس أنه أسير إثارة غريبة. ومع أن عادة الوحدة قد عودته أيضاً على الصمت، فقد شعر بالحاجة إلى أن يعرف أن الواقع ـ بغض النظر عن تلك الصور التي يبدو أنها تؤكد بصورة بالغة الصخب على انتصار بعض أحلام اليقظة ـ يظل سليماً، يظل مرفأً آمناً في مواجهة المياه القاتمة والهائجة. ومع ذلك، لم يكن لديه من يتكلم إليه. أما الجانب الآخر من المحيط، وبيت الأبوين الذي يستعيد تذكره على ضوء الطفولة، فينتمي أيضاً إلى ميدان الأحلام.

كان قد جلس على السرير، وراح يتصفح إحدى نسخ الكتاب المقدس

Twitter: @alqareah

التي توفرها بعض الجمعيات في الفنادق سعياً منها لتقديم مساعدة رحيمة للزبائن في لحظات ضجرهم. وتذكر عندئذ البلد الذي أتى منه ذلك الكتاب المجلد بغلاف أسود متين، البلد الذي كان يؤدي في إحدى جامعاته وظيفته المهنية بانتظام، وفي اللحظة نفسها، فكر في سوس. وباندفاع لم يأخذ معه في الاعتبار الزمن الذي انقضى منذ انفصالهما، اتصل بها هاتفياً متذكراً الرقم بدقّة كاملة، كما لو كان مسجلاً داخل عينيه.

ترددت الذبذبات صغيرة في الجهاز. أصداء خفيفة متتالية في الاتصال الخارجي بعيد المدى. وأخيراً، حل الصوت محل الفرقعة الخفيفة: إنه دون شك صوت ذلك الأرجنتيني، الخبير في حرشفيات الأجنحة، والذي كان يواسي سوس في الأشهر الأخيرة من علاقته بها، ثم تزوجها بعد ذلك. كانت تُسمع في الخلفية موسيقى بيانو. عندئذ أدرك أن ذلك الصوت وسوس، بالرغم من أنهما يشكلان جزءاً من الواقع، إلا أنهما يعنيان أيضاً ماضياً لا يمكن استرداده. سأل عنها.

ـ من يطلبها؟

كانت نبرة صوت الرجل عدائية. لقد تعرّف عليه بعد التلعثم الأولي المضطرب. عرّف بنفسه. واحتفظ الآخر بالصمت هنيهة.

ـ ليست موجودة. ـ قال الصوت بجفاء.

ـ ليست موجودة؟ ـ أجاب رافعاً صوته ـ لا أسمعك جيداً. في أي ساعة تأتي؟

كانت الموسيقى قد توقفت.

ـ إنها مسافرة. ولن تعود قبل خمسة عشر يوماً. أيمكنني أن أعرف ما الذي تريده؟

لم يدرِ بم يجيب.

ـ لا شيء محدداً في الواقع. أريد التكلم معها وحسب.

ـ اسمع، إنها في حالة جيدة. أنت ذهبت منذ ثلاث سنوات بالضبط، وهي في حال جيدة، وفي كل يوم تتحسن. دعها بسلام.

أحس بالخجل، وشعر في الوقت نفسه بالغضب. وعندما أراد الردّ، قطع الآخر الاتصال. لكن تشابكاً في الاتصال أتاح له سماع مقطع من محادثة غامضة، بلغة غير معروفة. وبعد ذلك تلاشت تلك المحادثة أيضاً، ولم يبق منها

Twitter: @alqareah

سوى الرنين القصير الحاد الذي يشير إلى انقطاع الاتصال. انبطح على السرير، دون أن يخلع ملابسه، وظل يتأمل كرة المصباح البيضاء الغليظة المتدلية من السقف كأنها نهاية الطرف الأخير من دودة ضوء كبيرة. وبدل أن تكون تلك المحادثة دليلاً على الأرق، بدت له مندمجة ضمن حوار في كابوس.

❖ ❖ ❖

توصل خلال الأسبوع الثاني إلى محو ذكرى ذلك اللقاء العبثي بإغراق نفسه في أعمال الحلقة الدراسية بانكباب. وهكذا لم يكد يضع خططاً لأيام العطلة. وعندما حلّ يوم الجمعة وانصرف زملاؤه مستعجلين، كرر هو حركاته ذلك اليوم، تأخر مرة أخرى في السلام الهندسي للرواق المشمس، ورجع متمشياً إلى الفندق، أسير التهاون الممتع نفسه الذي لم يفارقه طوال المساء. وفي اليوم التالي نهض باكراً أيضاً وخرج بحثاً عن وكالة رحلات ليتفق معها على رحلة نهاية الأسبوع. لكنه استسلم مجدداً للتسكع دون وجهة في فوضى الشوارع تدفعه الإرادة في الهرب من الشمس الحارقة ومن تخطيط الشوارع نفسها المشكلة من ترابيع كتل تتجه وفق الاتجاهات الدقيقة للجهات الأربع الأصلية. فاجأه انفجار الشمس عند البوابة الضخمة التي انتصبت أمامه فجأة، كما لو أنها أقيمت في اللحظة السابقة.

الحارس الذي كان يتأمله من حافة الظل وهو جالس على كرسيه، نهض واقفاً وأحنى صدره في تحية سريعة، فاقترب هو منه أيضاً، متقبلاً ذلك التعارف بارتياب، وشاكراً مسبقاً للظل البديع، حيث يمكنه الاحتماء من الحر الشديد.

ـ صباح الخير، يا سيدي ـ قال الحارس ـ. تسعدني رؤيتك مرة أخرى هنا.

فأحنى «هو» كتفيه.

ـ ألم تجد في المرة الماضية ما كنت تبحث عنه؟

ـ لم أبحث عن أي شيء ـ أجاب بسرعة ـ كنت ماراً من هنا، مثلما أنا اليوم.

تحول استغرابه أخيراً إلى زفرة خفيفة. وجعله النور والحرارة يقدّر أن القاعات التي تتبعثر فيها تخيلات ذكرياته كلها هي واقع مبهم، ربما لا يعني ذلك الاستنساخ الدقيق والسري.

Twitter: @alqareah

ـ ألن تدخل؟

هز كتفيه مرة أخرى. غير أن الذكرى الحية للقاعات التي يُحفظ فيها ذلك الحشد المستحيل من التماثيل أيقظت فيه فضولاً ضبابياً. تقدم بضع خطوات متوغلاً في البوابة الضخمة. «لا، لن أدخل»، فكر.

تحت الصباح المتوهج، تمتد المدينة منحدرة مثل جسر طويل فوق هاوية، مستترة تحت تلك الرؤية، تحجبها البيوت الصغيرة ولوحات الإعلان وحركة المركبات والأشخاص. كان رجلُ الكرسي يعرض عليه محادثة مطولة. وبدت قمم الجبال مغطاة بغيوم.

ـ إنها براكين ـ أشار الرجل رافعاً ذراعه.

وكان «هو» ينظر إلى سلسلة البراكين الخامدة تلك. ففي تلك القمم الكبيرة، في تلك الشعاب، في الوديان المتتالية التي تتدرج من الذرى، ينبض في هذه اللحظات بالذات أنقى قلب في تلك الأراضي. عندئذ تخيل نباتاتٍ لم تُعرف قط، تطير بينها طيور غريبة تطارد حشرات عجيبة الهيئة؛ وأزهاراً هائلة ومختلفة الألوان تتشابك وسط الآجام وجذوع الأشجار؛ وسيولاً وحشية جارفة تهوي من الجبال مدوية في سكون مسيلات الوديان الظليلة. «وما أهمية ذلك» ـ فكر ـ «مازالت أمامي أيام كثيرة».

وبالرغم من انجذابه بقوة إلى تلك الطبيعة الخصبة، ظلّ واقفاً أمام الحارس الذي كان يشرح له، بتفخيم بديع في الوصف، كيف تتقيأ تلك البراكين، عند استيقاظها، عاصفة من الرماد. ويمضي الرجل في وصف كيف يغطي الرماد، ببطء، الشوارع وسطوح أقرب القرى، حتى إن أغصان الأشجار نفسها تنوء تحت وطأة ثقله.

ـ تُسد الفجوات والشقوق كلها، وتطبخ النساء في قدور محكمة التغطية، لكن الرماد يتغلغل، ببطء، إلى كل مكان. ويصير كل شيء رمادياً: الشوارع، والبيوت، وحجرات النوم، والأثاث. كل شيء ينقلب رمادياً، وسط عاصفة كبيرة من الغبار.

تخيل هو عندئذ رماد مدافئ الطفولة الذي يستكين خامداً على الجمر المنطفئ، الرماد فوق صفيحة المطبخ مشكلاً غلالة نسيج بالغة النعومة، عندما يمسحون خَبَث النفايات. وخلط بين الأزمنة والتخيلات، وظن لبرهة أن الحارس يكلمه عن شيء يعرفه جيداً كجزء من تجربته الخاصة. المدفأة

Twitter: @alqareah

المترعة بالرماد في «ستوديو» سوس المتهالك في إسبانيا. الرماد الأخير فوق آجر المشواة، تحت أشجار القيقب الحمراء، في زمن السعادة مع سوس، حين كانا حديثي الوصول، معاً، إلى الجامعة التي كان يعمل فيها.

ـ ألن تدخل؟ ـ سأله الحارس أخيراً.

ظل ساكناً هناك، في حضن ذلك الظل الذي يلتقط أيضاً نداوة العشب. كان زجاج شباك التذاكر يعكس على الأرض فسيفساء مائياً.

ـ أنت لم تكد ترى شيئاً مما هو موجود ـ ألح الحارس ـ. مازال لديك الكثير لتعرفه.

كان يدخن بقوة السيجارة التي أعطاه هو إياها، وكانت جمرتها تتقدم بصورة مرئية مع كل مجة منها. عندئذ تخلى عن رحلته، وحسم أمره ومشى.

اجتاز الفناء متبعاً ظل الرواق، متجهاً صوب القاعة التي تُعرض فيها الأشياء السابقة للغزو الإسباني. كانت الواجهات الأولى تعرض، بمساعدة شروح طويلة مكتوبة، وفرة بقايا مستخرجة من مدافن لا يمكن لها أن توحي، إلا لمراقب مهتم، بشيء آخر سوى تردٍ متبلور على امتداد حيز فسيح من الخراب. بعد ذلك، ومع تقدمه في القاعة الكبيرة، راحت المعروضات تتنوع، فالخزفيات تُقدم كاملة ولامعة، كما لو أن أيد حديثة جداً قد طلتها، وتماثيل الصلصال، والآنية، والمباخر، وكل الأدوات، والعلب، والقدور، والعقود الكبيرة، والمجوهرات الذهبية التي تمثل عناكب ونسوراً، رجالاً وضفادع، وطيوراً وقططاً. كانت القطع الصغيرة منحوتة من حجر رمادي، جامدة في ملامحها الذاهلة، أو في تصعيراتها البشرية بصورة رهيبة، تحيط به كجيش مصغر لا يزال نابضاً.

كانت هناك كذلك طبول، وهاونات، وقطع عملاقة ثلاثية القوائم، مغزاها الطقسي الذي لم يعد بالإمكان تفسيره، معروض على كل واحدة من القوائم الثلاث، ووجوه متشنجة، وتماثيل فاجرة، وطيور تحمل في مناقيرها محتضراً مقيد اليدين وراء ظهره. ويسود المكان كله جو من الهيبة والموت، والأقنعة الشبيهة بالجماجم أو الوجوه المعذبة، تستخدم كذلك زينة للأدوات المنزلية.

تلك الأشياء كانت تنتمي إلى ثقافة غريبة، بعيدة، اختفت تماماً من العالم. ومع ذلك، راوده الإحساس نفسه الذي شعر به في المرة السابقة، حين

Twitter: @alqareah

تعرّف في التماثيل على كل صور طفولته الدينية. وتحولت الدهشة السابقة إلى إحساس بذهول مخيف الآن. فمن جهة، ومن خلال هلوسة شاذة تقلب اتجاه الزمن، بدا له أنه يرى أمامه، آتية من المستقبل، الجرار والحطام والعظام الضامرة، والفضلات اليومية الصغيرة، وبقايا زمن حي. وأحس من جهة أخرى أنه مرتبط بتلك الأشياء بصورة طبيعية، كما لو أنه قد عرف يوماً، من خلال الاستعمال، الوظيفة الحقيقية لمدافئ الجمر، والحدائد، والأكواب الكبيرة. وأنه ترأس يوماً، بدراية بطل الحدث الكاملة، عمليات التبخير وتقديم القرابين. وأخيراً تغلب التعب على تقدمة القربان الغامضة تلك، وكان ضوء القاعة حليبياً وكامداً بعض الشيء، مثل ضوء صباحات الشتاء في مطبخ البيت الأسري، شحيح جداً، أشبه بخثارة ضخمة باهتة بين الخزف، يلفه بينما هو يتناول بتعجل القهوة بالحليب المختلط بفتات الخبز، محاطاً بأغراض منزلية أخرى، وآنية أخرى، وأدوات أخرى ستكون غير مفهومة المعنى للناظر إليها من مستقبل بعيد.

كان مغموماً. «ولكن، ما الذي يحدث لي» فكر. «لا بد أن شيئاً جعلني أشعر بالمرض» قال لنفسه. هز ذراعيه وخرج إلى الفناء.

كان الضوء الساخن المتلألئ، بالغ الانحدار، يضيء نصف الكرة الحجرية الكبيرة، مبرزاً شرطها المظلم، المنطفئ، البارد. ومن جديد، ورد إلى مخيلته مجسم الكرة الأرضية في أزمنة طفولته، وتخيل مرة أخرى خطوط العرض والطول التي تقطع كرة البلدان متعددة الألوان. كانت تفصله عدة ساعات عن اللحظة التي يطل فيها الناس في بلاده على حدّ الغروب. وأبعد منها، يبدأ الليل في الزحف على المساء الآخذ بالهروب. وفي لعبة الأضواء والظلال الدوارية تلك، تتكدس في الحجرات المظلمة والهادئة، في أمكنة لا تُحصى، أشياء وعلامات شبيهة بهذه في كل شيء، بالرغم من اختلافها في القِدم والفخامة. وبدا له أنه، دون أن يعرفها، كان قد رآها واستعملها جميعها. إحساس خفيف، أقرب إلى الأحلام، جعله يشعر فجأة بأنه زائر شبحي يزور في الوقت نفسه متاحف لا حصر لها، يجوب قاعة بعد أخرى، هي في الوقت نفسه ردهات منزلية وأراض خلاء وسط كثافة تشابكات نباتية غريبة، وينتشي قبالة مئات الواجهات الزجاجية التي تحفظ أشياء من حضارات تنتمي بالكامل إلى حميميته على الرغم من كونها جميعها مبتلاة بداء. «السبب هو

Twitter: @alqareah

شيء في الطعام»، فكر. وتمتم: «الطعام». وكما في السحر، ظهر الحارس فجأة. كان إلى جانبه مرة أخرى، يداه وراء ظهره، وقدماه متلاصقتان بتأهب. لقد صار يتقبل دون استغراب، كما يبدو، كل تصرفاته الشاذة.

ـ كنتُ أتأهب للمغادرة ـ قال.

أفلت الرجل يديه من وراء ظهره.

ـ لكنك لم تر الأهم بعد.

ـ إنني متعب.

ـ أهم الأشياء هنا هي الكنوز الوطنية. لا يمكنك المغادرة دون أن تراها، يا سيدي.

عاوده الارتياب بأنه لا يزال مستغرقاً في حلم عميق، وأنه يخفي عدم لياقته تحت مظهر خفيف من النظام. خطا خطوة إلى الوراء، ونظر إلى الحارس بقدر أكبر من الاهتمام.

ـ الكنوز الوطنية ـ كرر الرجل ـ الرايات الخمس. وشجرة الموت في كانياس. وريشة ماغون.

ظل ينظر إليه دون أن يجيب، وأبقى الحارس نظرته مصوبة إليه، لم يحرفها عنه إلا ليهتم بامرأة قصيرة القامة اقتربت منه وهمست بعض الكلمات بتذلل.

ـ المعذرة ـ قال له الحارس، والتفت إلى المرأة ـ ماذا جرى؟

كانت تتكلم بسرعة، وبصوت خافت جداً، وبذعر. عندما انتهت قطّب الحارس حاجبيه. وتكلم أيضاً بصوت خافت، ولكنه حاسم جداً، وهو يهز يده اليمنى بقوة.

ـ يجب ألا يعودا للقاء معاً ـ قال ـ أخبريه بذلك. حذريه. عليه أن يحاذر من اجتماعهما معاً، لأنني لن أتسامح في ذلك.

صدرت عنه إيماءة جلية التصميم والسلطة. وكان واضحاً أنه لا يتكلم كمراقب في متحف، بل كأب يمارس سلطة مستبدة. ابتعدت المرأة خافضة بصرها. وأضاف ذلك المشهد الذي فيه شيء من العنف العائلي ضيقاً إلى ضيقه. بدأ الابتعاد من جديد، لكن الحارس عاد إليه.

ـ المعذرة ـ كرر ـ العائلة كبيرة، والمسؤولية كبيرة. لا بد أحياناً من العقاب.

Twitter: @alqareah

كان للكلمة وقع غريب في مسمعه، كما لو أنها تعني شيئاً آخر. وكان قد توقف. اقترب الحارس منه وربت عليه مرات عدة.

ـ ولكن، ادخل حضرتك، ادخل ـ واصل كلامه ـ كيف تتصرف دون أن ترى كل شيء. هيا.

دخل أخيراً دون أن يبدي مزيداً من الممانعة، محاولاً ألا تحول موافقته السريعة، وقد بدت نوعاً من الهزيمة، دون أن يمحو من مخيلته على الفور الريبة بوجود قوة عليا لا يمكن فهمها. وفكر بتهاون في أن الوقت قد تأخر للبحث عن تسلية أخرى. أضف إلى ذلك أنه أحس بتردده دون أي نوع من الأسف، كما لو كان تنويماً مغناطيسياً خفيفاً.

بدا الحارس، بحصوله على موافقته، كأنه قد أنجز مهمة محددة، فحياه بوقار وابتعد متراجعاً نحو ظل البوابة. ظل هو يتأمله إلى أن رآه يجلس على الكرسي الصغير، ثم اتجه ببطء نحو قاعة فيها عدد من النساء يمسحن الغبار عن الأثاث ويجررن مكانس ثقيلة على أرضية من السيراميك الأحمر.

كانت تُعرض في تلك الناحية بأبهة رصينة رموز الهوية الوطنية الرئيسية. فعلى جدار الصدارة في قاعة فسيحة، لا بد أنها كانت قاعة طعام أيام كان المكان حصناً، تتوزع الرايات والشعارات التي مثلت رموز البلاد المتتالية منذ استقلالها، في الربع الأول من القرن الماضي. وبعد ذلك، على امتداد الأروقة، كانت هناك مجموعة متنوعة من نماذج وعينات من أشياء مختلفة، بعضها متواضع جداً. فالحاجة إلى إرساء أسس إيمان وطني اضطرت منشئي المتحف إلى البحث عن أكبر قدر من الإشارات المرجعية النظرية أو الفنية أو الصناعية التي يمكن لها تعزيز هدفهم وتكون وثائق مميزة لسنوات عمر الدولة الفتية.

كانت تُعرض هناك عدة تذكارات شخصية من زوجة أول رئيس، وهي من طرّزت، كما يبدو، راية البلاد الأولية. وخاتم تبرع به أحد أحفادها ـ اسمه مذكور بحروف طباعية مفخمة ـ، وعلبة موسيقى صغيرة، وخصلة ثخينة متموجة من شعرها وراء زجاج ذي إطار صغير مذهب، ومنمنمة بلا ظُرف رسمتها هي نفسها على قوقعة كبيرة. وفوق بيانو ـ البيانو نفسه الذي عزفت عليه هي نفسها النشيد الوطني أول مرة ـ هناك تمثال نصفي لجدّة مؤلف الموسيقى: تمثال خشبي متعدد الألوان وبدائي الصنعة. ذلك التمثال الذي يفتقر

Twitter: @alqareah

إلى الحرفية النحتية التي رآها يوم السبت الماضي، يقدم مع ذلك حيوية ساخرة، ربما كان سببها في العينين الزجاجيتين والرموش المتخذة من نواصي الخيل. والصانع الذي يبرز ذكره في بطاقة مجاورة، أنجز أيضاً، باستخدام السكين فقط، تمثالاً نصفياً آخر ذا رأس ذكري وجبهة ضيقة وأنف ضخم، محمي بواقية من الغبار بنية اللون.

لقد جُمعت تلك النماذج باهتمام دقيق وحرص شديد. العملات الأولية، البليات والبونات التي استُخدمت قديماً أجوراً للأعمال في مزارع قصب السكر ومصانع تكريره، عجلات متآكلة من عربات قديمة، بنادق فتيل، سيوف مبارزة وسيوف عريضة. وعلى منصة مغطاة بقماش أسود، وضعت قرمة ضخمة من جذع شجرة، تشبه نطع تقطيع اللحم في محل للجزارة: إنه جذع الشجرة التي أُعدم قربها رمياً بالرصاص جنرال قديم ومشهور وأحد أوائل رؤساء الجمهورية. وكانت هناك، على مقربة منه، واجهة زجاجية صغيرة معلقة على الجدار، وسط صور تذكارية ونشرات سياسية معاصرة للحدث، وقداحة حجرية استخدمها ذلك الجنرال وهو حي، وقد قدمها بعد ذلك، كتقدمة أخيرة وغريبة إلى النقيب الذي قاد فصيلة إعدامه.

تحول التنويم المغناطيسي الخفيف الآن إلى نوع من غيبوبة تجعله يتحرك دون جهد ودون ضجة، كمن يحلم أنه رحالة يسافر في تلك القاعات، ليس بصورة شبحية مكرورة في آلاف المتاحف، بل ثابت دون حراك في المكان الوحيد. فقد كان يعرف بكل تأكيد أن تلك الأشياء تخصه، وإن كان متأكداً أيضاً من أنه لم يرها من قبل قط. فنظرة واحدة كانت كافية ليتعرّف عليها ويتذكر في الحال كل تاريخها وما عرفته من تقلبات وصروف، كما لو أنها أدوات منزلية من ذلك البيت الأول، مبعثرة أمامه بالإذعان الحميم نفسه الذي لتحف الزينة، والأوعية، والتذكارات في مدينة خيخون، أو تماثيل الكهنة الصغار الخشبية مع مظلاتهم ـ إنها تمطر في سنتياغو ـ، التي كانت أمه تصفها بعناية على الرفوف، وفكر أخيراً في أنها ليست شيئاً آخر، وأنها ليست مختلفة. توالت أمامه مباصق ووثائق نخرتها العثّة، وبلاغات قديمة رمادية تعلن أخباراً غير مفهومة لقِدمها، وصور رؤساء، وسفراء، وقسس، ومجازين، وقلائد من زجاج تحفظ فيها مصوغات سلكية وأزهار يابسة، ورسوم أزهار أوركيدا وسفن شراعية، والرفوش والموالج التي

Twitter: @alqareah

افتتحوا بها العمل في أول سكة حديد، ووضعوا حجر الأساس للمصرف الحكومي، وكعاكيز، وقصعات مصنوعة من القرع، وساعات. وكان شعاع من الشمس يُظهر الغبار على حبال مجسم صغير لسفينة حربية هي نسخة عن السفينة التأسيسية للأسطول الحربي. ومع ذلك، كانت تلك الأباريق الفخارية، ومنافض السجائر، ودمى الراقصات الخزفية، وعلبة عيدان الأسنان، وكلب من برونز، وصورة فوتوغرافية للجدة محاطة بفراخ بط هي نفسها بالضبط. لأنه يمكن لتحول بصري محض أن يبدل مظهر الأشياء، ولكنة لا يبدل طبيعتها.

جلس على الدرجات التي تفصل قاعتين عن الرواق، وفكر ببداهة يختلط فيها النعاس بالوحدة، في تعرفه ذاك على خليط الأشياء كلها على أنه شيء شخصي بوضوح، وكان محاصراً بذاكرته، بتمسك لا يخمد بالأمور التي عاشها. وهكذا وجد نفسه يفكر في أن تلك القاعة الكبرى هي الركن الأبوي حقاً، وإن كان متغيراً بتأثير أحداث حاسمة. بدا ذلك كما لو أن العالم وحياته قد انقضيا نهائياً، وتحت رعاية حارس شبه رسمي ومتسلط، يُحفظ كل شيء محنطاً، مؤرشفاً، فارغاً، لهدف لا شبهة فيه. كان إحساساً هامداً، إحساس سكون بارد. وأحس عندئذ باشتياق غير واضح، كأنه حنين إلى وداعة كاملة فقدها إلى الأبد، وعلم في الوقت نفسه أن تلك الوداعة لم توجد قط، وأن الذكريات بالغة الزخم لنور وحياة حقيقيين هي مجرد صورة لرغبة يائسة. وظل طوال الوقت، متيقظاً أم مسرنماً، يجوب قاعات ذلك المتحف المظلمة.

عندئذ غادر القاعة وخرج إلى الفناء، فإلى البوابة، ثم إلى الشارع. تناول الطعام بنهم قسري في أحد المطاعم، وبحث بعد ذلك عن مكتبة، اشترى منها عدة روايات بوليسية. خرج في تلك الليلة ليشرب كأساً، ووجد مومساً فتية ذات عينين صينيتين أخذها معه إلى الفندق.

بعد نصف ساعة من ذلك ظل وحيداً. وردت سوس إلى ذهنه من جديد، وداهمه إحساس بالذعر: تلك الدوافع المفاجئة للاتصال بسوس هي إشارة أكيدة إلى أن شيئاً غريباً يحدث له. فكر مرة أخرى في أن السبب قد يكون في الطعام أو الشراب، في عنصر سامّ يعكر مزاجه إلى حد حمله إلى التهيؤات الماضية كلها، وإلى هذا الاستذكار المضحك. وحاول، ليس دون

Twitter: @alqareah

جهد ، أن يتذكر وجه سوس، وملامح تشنج وجهها خلال الشجار الأخير الذي وضع حداً لما يقارب خمس سنوات من التعايش الاحتضاري.

«هناك شيء أشعر معه أنني على غير ما يرام، لا شك في ذلك» فكر. «إذا ما استمرت هذه الحال، لا بد أن أذهب ليفحصني طبيب». ومع ذلك، لم يكن يشعر جسدياً بأعراض أي توعك. فتح زجاجة ويسكي وظل يشرب ويقرأ حتى الفجر. ونام بعد ذلك في إغفاءة مرهقة، واستيقظ متأخراً. لم يكد يفعل شيئاً خلال بقية النهار سوى التجوال مرة بعد أخرى في شوارع مركز المدينة، ذارعاً تلك الدائرة كما لو أن الدائرة ستنكسر، بعد عدد مجهول من الدورات، وستسمح لخطاه أن تمضي في اتجاه حقيقي، في اتجاه سيكون كل حلم فيه مستحيلاً.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

II. الصورة

لا بد للأمور من أن تحدث بطريقة مختلفة هذا السبت. كان قد تصفح مرة أخرى، وهو يتناول الفطور، النشرات الدعائية التي تقدم صوراً فوتوغرافية متألقة الألوان، يرافقها وصف، بنثر غنائي حماسي، للشواطئ المرجانية والبراكين المدخنة، والأحجار الأثرية المجيدة. قرر أن يترك عمله حول خصائص التقليد الواقعي حتى عطلته في بيت الأسرة. خرج إلى الشارع، واتجه نحو وكالة رحلات، لكن فتى يبدو عليه النعاس أخبره، على الرغم من الوقت المبكر، أن برامج اليوم كلها قد انطلقت. وبعد لحظات من التردد، عاهد نفسه على الذهاب في رحلة في اليوم التالي، ومضى للتجوال في المدينة مرة أخرى.

كان مخطط الشوارع يقوده دائماً في اتجاه الجهات الأربع، وكان إيقاع أفكاره يخضع بطريقة ما لتلك التحولات المتوالية. أدرك أن مسيراته الصغيرة في الأيام السابقة قد آلفته مع المظهر العام لبعض الأركان، وبعض الأماكن، وأبنية محددة. وبدأت مناظر معمارية كثيرة تبدو مألوفة لبصره. وقد قابل بداية هذا التآلف بإحساس من الحذر، فتحتَ مظهر تعدد ألوان المدينة، بدا كما لو أن الإشارات اليومية الكاشفة عن عالم معهود، تطلّ بصورة أكثر حميمية من التناقضات الماديّة. وهكذا بدا له، بزخم متزايد، كما لو أنه لا يزال في تلك المدينة البعيدة حيث بيت العائلة. ومتشرباً بهذا الإيحاء، راح يفكر في تلك السنين من حياته حين كان يجوب أرجاءها معتبراً صفاء سمائها، وطيب هوائها، وجمال صروحها أموراً لا جدال فيها، متورطاً في شبكة عويصة من المهام والواجبات والذكريات ومدّ العواطف وجَزرها، كما لو أن عالم العلاقات يخضع للقوانين المؤكدة نفسها التي تجعل الكاتدرائية جميلة، أو نسيم المساء عليلاً. أما الآن، فإن التوافق الغامض مع هذه المدينة البعيدة، يجعله يعدّل ذلك التقبل الذي لم يكن يقبل الجدل، موحياً إليه برؤية أن الواقعين كليهما يشكلان واقعاً واحداً ويوحدان ظلالهما المختلفة والمتناقضة. وبعيداً عن كل رؤية نفعية، تصور أن تلك الصروح كلها مهدّدة بالهرم. وفكر في الوقت نفسه في أن أشد علاقاته قرباً، وبصورة خاصة جداً تلك التي

Twitter: @alqareah

كانت تربطه بأبويه، لم تكن سوى مجرد نظام بروتوكولات رسمية وشكليات بلا جوهر ولا دفء، مجرد طقوس، مثلها مثل المخدرات، تهلوس الإدراك الحقيقي مزيفة كل المعاني. وبالطريقة نفسها التي كانت عليها علاقته بسوس، لم تكن هذه الروابط تعني سوى تصنعات في مسرحية لا بد لها من أن تنتهي أيضاً، فاقدة آخر أصداء النص في الصمت الكثيف الأسود، كما في الظلمة البكماء لمسرح هائل، ضبابي وفارغ.

«هاهو ذا صباح كئيب»، فكر. وفوجئ بكثير من المرارة. لا شك في أن البعاد المادي يخفف من البعاد العاطفي، لكنه حكم بالسخف على تلك التخيلات. برودة بالغة الكمال، وعدم مبالاة شديد الدقة بدوا له مجرد تخيلات. ومرة أخرى خامره الشك الذي صار روتينياً تقريباً، بأنه أسير حلم شبه معقول بصورة متسلطة. وأخيراً، أوصله انقياده للتجوال إلى الجادة العريضة التي تبدأ من الأسواق البعيدة، واستسلم للسير تحت الظل المضياف. كان هناك في الشارع نبض متوحد وصامت ليوم عطلة، وعدد ضئيل من السيارات تجوب الشوارع.

وأخيراً، توقف ساكناً أمام بوّابة الحصن البيضاء. كان انعكاس الضوء شديداً إلى حدّ شعر معه أنه ينجرف في دفق وهجه، وتأمل نفسه لحظة هنا تحت، في منتصف الشارع، وسط الضوء القوي، وقبالة الظل الذي تستريح فيه هيئة الحارس الذي لا يمكن الخطأ في تمييزه، وكانت فردتا حذائه تلمعان مثل قشرتين رطبتين ومصقولتين. وجد نفسه يتقدّم ببطء، خطوة بعد أخرى، حتى بلغ مستوى الرجل الجالس. ووجد نفسه يفتح شفتيه ليحيّيه، والآخر يرد على تحيّته. ووجد نفسه عندئذ جالساً على مصطبة حجرية قريبة من كرسي الحارس.

ـ أرى أنك قد عدت. لقد أعجبك المتحف.

فأزاح هو الأهميّة عن زيارته:

ـ أردت الذهاب في رحلة، لكنهم يبكّرون كثيراً هنا. ثم قمت بجولة.

ـ أردتَ الذهاب في رحلة؟ إلى الشاطئ الشرقي؟

هز هو كتفيه. وأخبره أنه كان يخطط للتعرف على أماكن أخرى من البلد. اكتشف أنه يتكلم بصوت خافت جداً، بصوت هامس تقريباً، مثلما كان يفعل في صباه حين يعترف قبالة سواد كوى مقصورات الاعتراف زكية الرائحة والمخلعة.

Twitter: @alqareah

ـ أنظر ـ قال الحارس خافضاً صوته أيضاً ـ أنا سافرت مرة واحدة في حياتي كلها. كان ذلك عند مجيئي إلى العاصمة، وأنا شاب. ولم أسافر بعدها قط.

وقام بحركة اكتفاء متكبرة.

ـ إنني هنا، أرى مرور الناس، ويبدو لي ذلك كما لو أنني أنا أيضاً أمضي متنقّلاً من مكان إلى آخر. أتحدث إليهم، ويخبرونني كيف هي الأماكن.

كان لطريقته المسهبة في الكلام إيقاع متقطع منبور. وكان هو يستمع إليه كأنما يفعل ذلك من خلال وهن الإعياء الذي يعقب الحمّى. أسند رأسه إلى الجدار ونظر إليه بعينيه نصف المغمضتين من البريق. كان الحارس يتحدث عن مناطق مختلفة من البلاد بحريّة الجاهل السعيد.

ـ هناك السهول ـ كان يقول ـ على امتداد ساحل المحيطين. حَوٌ، موز، زنوج. أنت تعرف.

«أعرف؟ ـ فكر هو» هل أعرف ذلك حقاً؟ ذلك أن كلمات الحارس أوردت إلى ذهنه، بأزيز كثيف، سلسلة متوالية من صور حية وغنية. كان الرجل يومئ بذراعيه مدعماً كلماته بحركات مفخمة.

ـ وسهوب البامبا، هنا في الغرب. جيتارات، ورقصات جميلة. إنما حرّ أيضاً. وبعوض.

دعك الأرض بحركات خفيفة من مقدمتي قدميه.

ـ أما الوادي الأوسط فشيء آخر، يا سيدي. ربيع دائم. إنه مهد الاستقلال.

ضبط إيقاع أنفاسه، ودس يديه في جيبيه. إنه يصف الآن الوادي الأوسط، الهضبة التي تفصل، وفي الوقت نفسه تتيح الوصول إلى القمم وإلى الأراضي الحدودية، حيث المياه الراكدة في مستنقعات كريهة. وكانت تختلط في وصفه، بطريقة عرضية وعبثية، مناجم الذهب بغابات الخشب، وقطعان المواشي بمعلبات التونة.

ـ أنا أعرف الأشخاص ـ هتف أخيراً، وعاد إلى الجلوس من جديد ـ أنا أعرف أنك تُقَدّر ذلك. ولكن البركان يشبه بركاناً آخر. ويقال إن البحر هو البحر نفسه دائماً. والأشجار كلها متشابهة تقريباً. أما في المتحف، فلا وجود لشيء له ما يشبهه.

ظلا صامتين بعد ذلك. ووجد «هو» نفسه مصاباً بعدوى الثقة الكاملة

Twitter: @alqareah

بذلك الجهل المسالم، وكأنه تبرأ تماماً من لقاءاته السريّة، في الأيام السابقة، عندما نشر المتحفُ أمامه مرجعيات حياته الخاصة نفسها، في تركيب مستحيل، لكنه مترع بالاحتمالية. ومن جديد كان الكسل يثبته كقوة جاذبية أخرى. نهض أخيراً، ابتعد، جاب الفناء المشمس، العابق برائحة العشب والأزهار، وظل يتأمل الحارس من مسافة معينة، من نقطة تفقد فيها هيئة الرجل وتسترد مظهرها الغامض كهيئة جامدة بلا حياة.

ـ لقد رأيت كل شيء ـ هتف بصوت قوي ـ. سأذهب.

لم يجب الحارس بشيء، وبدأ هو المشي.

وكان أن رأى عندئذ ذلك الباب: الدفّة الخشبية الكبيرة، القاتمة، المفتوحة، تقطع منظور الرواق المتناسق تحت الممرات المسقوفة. كان الباب يفضي إلى قاعة أخرى مستندة إلى صالون الرايات الكبير، وليس لها مع ذلك اتصال مباشر به. توقّف وتفحص العتمة الداخلية من خلال فراغ الباب.

ومن أقصى القاعة، كان هناك رجل طويل، جامد، يتأمله بثبات. كان جسده مطموساً في ظلمة الحجرة، لكن رأسه يبرز بوضوح على الخلفية. وكان في نظرته إلحاح شديد الوضوح شعر معه، بعد تردد، أنه مضطر إلى الاقتراب من ذلك الشكل، كما لو أن في ثبات تلك النظرة دعوةً، تحذيراً، تحية خاصة. وعندما لم يعد يفصله عن المدخل سوى عرض الرواق، أدرك أن الأمر يتعلق بلوحة، وأنه قدّر خطأ أنها هيئة حية. اقترب من باب القاعة الصغيرة، وبينما هو يواصل الاقتراب، أثارت الهيئة المرسومة فيه مفاجأة حية. وحين اجتاز الباب ولم تعد تفصله سوى خطوات، تحوّلت مفاجأته إلى ذهول حقيقي: فالأمر لم يعد إيحاء بهوية معروفة، وإن بدت ملتبسة في حجمها أو شكلها بمظهر آخر. فذلك الوجه المحاط بهالة ضاربة إلى الحمرة بفعل انعكاس ضوء الشمس، يمثل ملامح قريبة ويمكن التعرف إليها مباشرة. دخل إلى القاعة ووصل إلى جانب الصورة.

كانت الصورة تحتل منتصف الجدار، بين خزانة قاتمة متينة المقاطع ومنضدة مكتب ضخمة، تستخدم في الوقت نفسه لعرض وثائق قديمة عديدة. وكان وضعها يحافظ على تناظر مفاجئ مع أثاث الجدار المواجه: كراسٍ كبيرة ومنضدتين مستطيلتين تتبعثر عليهما قطع متنوعة، محدودبة جداً، من أدوات الكتابة، وواجهة زجاجية أفقية مترعة بالأوسمة.

Twitter: @alqareah

وفي وسط القاعة، هناك مقعد خشبي مخصص لاستراحة الزائرين. جلس عليه وظل يجترّ ذهوله لوقت طويل. ولو أنه التفت برأسه لكان بإمكانه أن يتأمل من تلك النقطة، في المدى المضيء، ذرى الجبال الضاربة إلى الزرقة. كان وهج الشمس في الفناء يصل من خلال الرواق، وبعد أن يصبغ بلاط الأرضية بلون أرجواني مبهم، يغمر الحجرة بتلألؤ ذهبي وأحمر دامٍ في الوقت نفسه.

كان للصورة إطار عريض أسود، وافر الزخارف الناتئة. وهي تمثل رجلاً متوسط العمر، جبهته متسعة إلى أعلى، وحاجباه كثيفان وعيناه سوداوان وثابتتان. وقد أبرز الفنان بعناية مدققة شيب الشعر، وصيواني الأذنين، وظلال الوجنتين، وتجعد الجبهة. وفي سعيه لتقديم ملامح هدوء صارم، انهمك، دون شك، في تمثيل الشفتين، لكنه لم يتوصل في سعيه إلى أكثر من إظهار تكشيرة موجزة، تكشيرة مبهمة تجرد الصورة من الصرامة لتحوّلها إلى مرارة. كان الوجه يلمع ببياض عظمي يطغى على ستارة الخلفية السميكة، وعلى الملابس القاتمة المؤلفة من سترة رسمية لا تناسب الحجم المنطقي للكتفين، ورباط عنق كبير أزرق اللون.

وكان صاحب الصورة التي تمثّل نصفه العلوي، يحمل في يده اليمنى كتاباً بني الغلاف. ولا بد أن وضع الإصبع السبابة المخفية بين الصفحات قد صعّب عملية التصغير، إلى حد تقديم نتيجة تكشف بوضوح عن عدم كفاءة الرسام. كما أن ظهر كرسي ضارب إلى الصفرة يخفي الذراع الآخر واليد الأخرى. وقد طبع الرسام على ظهر الكرسي اسم الشخصية، وتحته توقيع الرسام نفسه إلى جانب يوم وشهر وسنة إنجازه اللوحة.

ظل على ذهوله لوقت طويل. وبالرغم من أن الصورة قد رُسمت بالاعتماد على الإرادة أكثر من الأسلوب، إلا أنها تقدم وجهاً يشبه بصورة مطلقة وجه أبيه. لكن تلك الملابس القديمة، بدل أن تعارض جلاء التماثل، تقدم تبايناً أقرب إلى المعقول. وبينما هو يتحقّق بدقة من ذلك التشابه المذهل، تردد قرع نواقيس عدة مرات في البعيد، بإيقاع متقطع، طغى بحيوية على ركود الصمت المتماسك والمتبقي قريباً جداً، في الفناء، في الأروقة، في القاعة.

خرج إلى الفناء واقترب من البوابة. كانت بعض البنّفاوات تضج صخباً بين أشجار الرواق.

Twitter: @alqareah

ـ لم تذهب أخيراً ـ قال الحارس.

كان يتكلّم بتكتم، كما لو أنه يخبره بشيء لا يعنيه. فقدّم هو سيجارة إلى الحارس، وأشار إلى قاعة الصورة.

ـ رأيتُ صورة ـ قال.

ـ توجد صور كثيرة، يا سيدي.

ـ هناك، في حجرة صغيرة. صورة معلقة وحدها وسط جدار الصدارة. وتوجد هناك مناضد وكتب أيضاً.

ـ إنها قاعة المطبعة اليدوية.

كان الحارس لا يزال يتكلم بصوت خافت، أما هو، فبدا له أن حيوية ضحكة مقنَّعة تشتعل في عينيه.

ـ أرغب في معرفة شيء عن الشخص.

ـ الشخص المرسوم هناك؟

نهض الحارس واقفاً ببطء.

ـ تعال معي ـ هتف.

سارا ببطء باتجاه المكاتب، عبر ممر فسيح يمضي إلى ما وراء شبابيك التذاكر.

ـ الصور المرسومة كلها تمثل أشخاصاً مهمين. سادة متقاعدون. سيدات محسنات. رعايتهم حمت طفولة الوطن.

كان يمشي بخطوات شبه وقورة، فأحس «هو» بأنه ليس مجرد دليل عادي، وإنما يسهل له، بقرار يستطيع هو وحده اتخاذه، الوصول إلى تواصل مهم وسرّيّ. عندما وصلا إلى مكتب منعزل، ممتلئ بأشياء قديمة، حيث كان رجلان وفتاة يتناولون القهوة، بدا له أنه لمح في نظراتهم نوعاً خاصاً من الإذعان أمام الحارس يشبه إذعان المرأة التي اقتربت منه يوم السبت الفائت. كان أصغر الرجلين سناً يتكلم ببطء، منقلاً نظراته على امتداد الجدران، كما لو أنه يقرأ فيها نصّ كلماته. وأخبره أن تلك الصورة، كما يبدو، لأحد مؤسسي الأمة. ولم يكن بمقدوره أن يقول إلا القليل زيادة على ذلك. وأراه كاتالوجاً سيئ الطباعة.

ـ ألا تعرف الكاتالوج؟

نفى هو ذلك برأسه.

Twitter: @alqareah

ـ مؤلفه أستاذ في الجامعة. وهو قادر على إخبارك بدقّة كاملة.

رجع إلى المكان حيث الصورة وظل جالساً هناك، مستغرقاً في ذهول عميق.

على الرغم من أن كنية رجل الصورة لا تتوافق مع أي كنية من كنى ذويه، فقد تذكر أنه سمع، في قريته الأصلية، قصة جد بعيد من أسلافه، هجر الأعمال الريفية، وهاجر إلى الجانب الآخر من البحر. وقد كان لذلك الرجل، حسب رواية غير مؤكدة، دور بارز في النضال الاستقلالي. وإلى جانب رطوبة المقعد، في ساعات الغروب الشتائية، كانت الإشارات الغامضة إلى القريب السامي تكتسب، دون مفر، صدى قصص العجائب، لأن الآثار قد ضاعت منذ زمن طويل، وباستثناء تلك الذكرى غير المؤكدة عن شهرته، لم يبق في البيت أي خبر عن المهاجر ولا عن سلالة ممكنة تحدرت منه في ما وراء البحار.

انبثق في فكره مجدداً، وبقوة أكبر، الشك في أن ذلك كله لم يكن حقيقية، وإنما نتاج تخيل منحرف سيطر على ذهنه خلال فترة من النوم العميق.

جاء الحارس ليخبره بأنهم سيغلقون. واسترد هو وعيه.

ـ وداعاً ـ قال ـ. أشكرك جزيل الشكر على كل شيء.

شدّ على يده وأهدى إليه علبة سجائر.

أبدى الرجل البشاشة، ولكنه ظل متحفظاً، كما لو أن العلاقة بينهما قد انتهت، دون أي إمكانية مستقبلية. رافقه حتى الرصيف.

ـ أنا في خدمتك يا سيدي ـ قال، وظل ينظر إليه وهو يبتعد.

في اليوم التالي، قام أخيراً بواحدة من تلك الرحلات التي رغب فيها عدة مرات. وبعد اجتياز مدينة صاخبة، ممتلئة بأطلال استعمارية قديمة، والصعود البطيء على سفح جبل بلا نهاية، وبينما هو يجوب فوّهات بركان عملاق مترعة بالغبار، كان يفكر في الصورة. وكان يجد في تشابه الملامح المطلق مع ملامح وجه الأب توافقاً شديد الكمال لا يمكن معه الشك بأي انحراف، ويبلغ ذروته بصورة مدوية في تلك المتوالية الغريبة من اللقاء بأجواء وأشياء يجري التعرف عليها أيضاً كأنها تخصه.

حاول للحظة إجبار نفسه على التفكير في أنه ربما يخلط في ذهنه بين الملامح المستذكَرة، ويقابلها قسراً بتشابه غير موجود، ولكنه دقيق جداً مع ذلك. لقد كان يحتفظ ببعض الصور الفوتوغرافية ضمن الأشياء الموجودة في

Twitter: @alqareah

محفظته، وفي واحدة منها، التُقطت في ليلة عيد ميلاد بعيدة، يظهر الأب، وذرعاه متقاطعان على المنضدة بين حلوى "التورّون"[1] وزجاجات الشراب، يتأمله بنظرة التحديق الصارمة نفسها التي في تلك اللوحة، وهذه إحدى ملامحه المميزة: الوجه الجامد، والنظرة الثابتة، والشفتان اللتان توشكان على إطلاق صرخة تنحلّ أخيراً في صفير خافت.

في الأعلى، كانت الشمس تسطع بقوة، لكن ضباباً كثيفاً راح يطغى على الوادي، مغطياً قعر الوادي حيث كانت تتلألأ مدينة صغيرة جداً. مروج خضراء، واتساعات أزهار صفراء فسيحة تشكل حدوداً للضباب. ويمكن من إحدى نقاط فوهة البركان، كما يقولون، رؤية البحرين المحيطين اللذين يحدان جانبي البلاد. ومع ذلك، كانت السحب تخفي كل شيء. سحب بنّية، سريعة، تتقدم من السفحين وتختلط باندفاع. وللحظة رسمت السحب المتزاحمة أيضاً في الهواء مخططاً أولياً لتلك الملامح التي استحضرتها اللوحة إلى الذاكرة.

عندما رجع إلى الفندق، اتصل مجدداً بسوس. دوى صوت الأرجنتيني من الطرف الآخر للخط. فقد عرفه فوراً، وتكلّم صارخاً.

ـ سوس غير موجودة. ولكن حتى لو كانت موجودة لما حوّلت إليها مكالمتك.

تذكّره بوضوح أكبر من تذكره سوس نفسها: شخص غزير الشعر، يضع نظّارة مربعة العدستين، وله شارب ضارب إلى الحمرة، وأصغر من كليهما سناً. يعمل مساعداً في أحد أقسام الكيمياء، وهو محب متحمس للفراشات. وأوشك هو أن يصرخ به أيضاً، لكنه التزم الصمت، وبعد لحظة وزفرة، قطع الآخر الاتصال. عندئذ تخيل هو أن تلك الزفرة إنما هي أزيز حشرة ضخمة، وأن الوجه المُتذكّر قد استُبدل برأس كبير كثيف الشعر وعينين زائغتين، في مقدمته خرطوم دبق يلتفّ حلزونياً. وكانت هذه الفكرة هي ذروة اندفاع حزنه الذي ينكسر أخيراً على حماسته، مخلفاً إياها غارقة وملساء مثل رمل شاطئ.

❖ ❖ ❖

ـ يتحدر من شبه الجزيرة. ويُعرف عنه أنه أقام أول الأمر في مدينة

---

[1] تورون turrones: حلوى تصنع من اللوز والعسل، تقدم على موائد العشاء ليلة عيد الميلاد.

Twitter: @alqareah

فيراكروث وفي مدينة مكسيكو، ثم انتقل بعد ذلك إلى مقر القيادة العامة لغواتيمالا. وجاء أخيراً إلى هنا، وأقام ورشة حِدادة، وأسس في ما بعد جريدة أسبوعية.

بعد قول ذلك، أطبق مؤلّف الكاتالوج شفتيه والتزم الصمت الذي يصلح، بمرافقة نظرة تفخيم، لأن يكون خاتمة للمقدّمة المهيبة. كان رجلاً ضئيلاً وهزيلاً، له ملامح زنجية خفيفة، وشعر أملس وشديد السواد يلي الجبهة العريضة والنظارة ذات الإطار المذهّب.

ـ كانت جريدة بسيطة جداً، ورقة مزدوجة تُقدَّم فيها أخبار الأسواق، ونتائج متأخرة دائماً عن وصول الأسطول. لا بد أنك رأيتها في المتحف.

كان يتناول كأس قهوته بملعقة صغيرة، بحركات خفيفة، رقيقة أشبه بحركات هر.

ـ وبالطبع، كانت تنشر أيضاً أخبار الولادات، والزيجات، والوفيات. وتنشر، كما تعلم، أخبار المناسبات الدينية، والتقويم، ومراحل القمر، وأخبار التعيينات المدنية والعسكرية.

فأكد هو على ذلك برأسه.

ـ لم يتدخل قطّ في الشؤون العامة حتى الاستقلال. تزوج أرملة ضابط وطني. سيدة باهرة الجمال. ولا بد أنها من حفزته، وحوّلت مهامه التمدنية النبيلة إلى حماسة وطنية.

كانت له يدان كبيرتان، يحرّكهما برهافة، ويروّح بأصابعه كما لو أنه يلتقط الهواء ليسكبه ببطء على مقربة من وجهه.

ـ لقد انفق ثروته كلها في النضال ضد إمبراطورية ايتوربيدي. وتخلت الجريدة عن كونها ذلك التقرير عن الحياة المدينية لتتحوّل إلى بيان سياسي متواصل سيدعم بقوّة في ما بعد المقاطعات المتحدة حتى ولادة الجمهورية الاتحادية.

ومع خيط تلك المعلومات المنظومة في مراحل تاريخية، كان الأستاذ يعدّد التحولات التي طرأت على ذلك الشخص. قصص محدّدة تماماً كأنها تنتمي إلى تاريخ إخباري، تُلمح فيها مع ذلك إرادة في إسباغ هالة أسطورية قادرة على أن ترفع إلى خزائن المتحف الوطني تجاعيد شعر سيدة قديمة.

ـ في أحد الأيام أحرقوا له المطبعة، ولكنه عاد إلى إصدار الجريدة ثانية.

Twitter: @alqareah

وحوّل ورشة الحدادة إلى أوّل مصنع لمناجل المتشيتي. رجل عنيد جداً.

كان مظهر الشخصية الجسدي يوصف بعناية خاصة، كما لو أن الأستاذ يستحضر الذكريات من تجربته الشخصية.

ـ القامة رشيقة، الإيماءة هادئة، الصوت خفيض. وكانت نظرته عميقة وحيوية، والهيئة شديدة التأنق. وكان يتناول السَّعوط بحركات متميّزة.

وكان «هو» يصغي بانتباه إلى الكلام العذب الصادر عن الرجل الضئيل المعتدل الذي عَمَد، بعد أن فرك بسبّابة وإبهام يده اليمنى على ظاهر يده اليسرى، إلى تمثيل الحركة التي ينسبها إلى الشخصية التي يقدرها.

ـ كان يتحدر من أسرة نبلاء ريفيين، لها دارة في الجبال وشعار يقول «النضال والمزيد من النضال»، مقدماً بذلك شهادة على جرأة سبقته في أسلافه.

كان يتقبل بذهول تلك المظاهر التي تعظّم أصول البطل. ودون أن يعترض على أي شيء، كان يتخيل قرية أسلافه، وتوالي أسيجتها الداكنة وجدرانها الرمادية وطُوبها القاتم. القرية المنسية بين هضبتين، في ذروة جبل يكشف في أعلاه، بعد تجاوز الخضرة القاتمة، عن بياضه الكلسي. وعلى مدى متوسط، كان الطرف الأعلى لبرج الأجراس البارز بين السفوح، هو العلامة الوحيدة التي تشير إلى المكان. وحتى حين كان طفلاً، لم يكن قد بقي هناك، منذ سنوات طويلة، أي أثر من الأمجاد الماضية، لا قلاع ولا دور نبالة كبيرة. كان يتخيل أيضاً هيئة الجدّ البعيد ويصعب عليه، بالنظر إلى التشابه مع أبيه، أن يفرض تلك الصورة الشبحية المأسلبة التي يحلم بها محدّثه. بل كان يفكر في جسم بدين، وساقين غير طويلتين كثيراً، ويدين غليظتين كثيفتي الشعر، ورأس كبير تغور على قذاله العلامة الجبلية المشيرة إلى أسلافه الأبعدين.

وكان الأستاذ الضئيل يواصل فرط سلسلة الحكايات الخاصة بالأحداث.

ـ ومطارَداً أيضاً، بقلب تملؤه المرارة، مات في العام نفسه الذي أُعدم فيه موراثان. وبينما هو على فراش الموت، تلفظ بتلك الكلمات المنقوشة اليوم بحروف من الذهب في الجمعية الوطنية، والتي اعتبرها الشاعر بيكيث شعارنا الوطني الكبير.

بدأت الأسرة تشغل مناصب مهمة في السياسة وفي الجيش، وراحت تنجب أبطالها: أحد أبناء الرائد قضى في معركة سانتا روسا مندفعاً بجسارة على الإسطبل المزنر بالبنادق التي يحملها قراصنة والكر.

Twitter: @alqareah

ـ دامت المعركة أربع عشرة دقيقة. وقد تلقى بطلنا إصابته بالرصاص في الدقيقة التاسعة، حسب شهادة النقيب ديلغادو، وتوفي بعد أقل من خمس دقائق. ويُقال إن فراشة براقة ظلت تقف على شفتيه حتى مغيب الشمس، كأنها ترمز إلى قبلة الوطن الممتن.

ومع أن الأسرة راحت تتملك مزارع بنّ مهمة، إلا أنها كانت تقف عموماً مع الحركات الليبرالية والمناهضة للإكليروس. وإلى جانب الأبطال والمدافعين عن حقوق الشعب، برز في الأسرة شاعرة ورسام أزهار أوركيديا. وفي أواخر القرن، كان انخفاض أسعار البنّ السبب الأول في انحدار السلالة. ومع ذلك، وفي السنوات الأولى من القرن الجديد، وضع أحد أحفاد الشخص البارز الأول الخطوط المهمة العامة للتربية الوطنية والزراعة في فترة خاصة من الانتظام الدستوري.

ـ وفي الربع الأول من القرن، بدأ نجم السلالة بالأفول بصورة عجيبة: حوادث مُميتة، أمراض لا شفاء منها، اختفاءات دراماتيكية راحت تقضي على حياة الفروع الرئيسة. بدا كما لو أن لعنة هي السبب الأساسي في تلك الأحداث المحزنة.

وكان «هو» يستمع باستمتاع إلى العرض المفصل، والبعيد جداً عن أساليبه وتعبيراته في الطرق والمصطلحات المستخدمة عادة في الحلقات الدراسية. فالأستاذ ينقل معارفه بوضوح، بتفخيم مسرحي إلى حدّ ما، لكن دون أن يجردها من انفعالاته الخاصة. وكان هو يتأمله بمتعة، كما لو أنه يشهد تطورات عرض بهيج. وقد وجد فجأة في هذه المحادثة خلاصاً من الاجتماعات الطويلة حيث يتخبط فريق العمل في الشِباك العويصة لمفردة غامضة. وهكذا راحت تتراجع وتغيم تلك التعريفات المختزلة إلى رموز اصطلاحية وفهارس، والمعاجم المسروقة من العلوم الدقيقة، والوثائق المزودة بنظم بيانية وجداول قيود مزدوجة: كل ما كان يجعله يشك، بعد حماسته في الأسابيع الأولى، بوجود خدعة خفية، وكأن مسوغات مهمته التي دعت إليها هيئة دولية، لا تسعى إلى البحث حقاً عن الأهداف المحددة، أي درس وإعادة طرح برامج للغة في الكلية، وإنما هي محض بلبلة لمفاهيم غامضة محوّلة بصورة ملتبسة من تقنيات بعيدة، وليس لها في ميدانها إمكانية تطوّر مثمر، ولا تصلح في نهاية المطاف إلا لأغراض مجهولة، مضيفة إلى تشوشه من الازدواجية الغامضة التي يبدو أنه يجدها في المشهد المديني وفي زياراته إلى المتحف، سبباً آخر للشك

Twitter: @alqareah

بوجود خديعة حلم متسلط كأنه نوع من السحر.

ـ يمكننا القول إن الأسرة، عند وقوع تمرد تينوكو، كانت قد اختفت تماماً من حكم الجمهورية.

كانا يتبادلان الحديث في بار الجامعة، محل مشيد بمواد مسبقة الصنع، ومحاط بخضرة نباتات كثيفة، يتدفق الهواء من نوافذه الواسعة بفظاظة متقطعة حاملاً رطوبة تنذر بوابل مطر مفاجئ. تأمل بإشفاق خفيف ذلك الانطفاء للسلالة، كما لو أن في الأمر شيئاً يخصه. وراح يقارن، مذهولاً، هذا التألق السامي الذي لا يخطر على بال بحياة الأرض والزراعة لسلالته المباشرة التي توصلت، من خلال شخص أبيه فقط، إلى الانفصال عن الفلاحة والتحول إلى الثقافة المدينية. تذكر، حسب ما ترويه الأساطير الملتبسة التي سمعها في طفولته، أن ذلك السلف القديم البارع بصورة استثنائية بشؤون الآداب والأعداد، كان سكرتير كاهن من بلدته توصل مع مرور الزمن إلى شغل كرسي أبرشية إشبيلية.

كان الأستاذ يمسح بعناية شفتيه القاتمتين بمنديل ورقي.

ـ حدث ذلك خلال الحرب العالمية الأولى ـ أضاف ـ اختفت العائلة من الحياة المدنية، وكذلك العسكرية.

ظل يتفحصه مباشرة، بابتسامة خفيفة فيها شيء من التفخيم. وكان في نظرته تمعن واضح، وجمود عزاء غامض. وعندئذ أدرك هو أن فضوله النهم المطروح دون أي مقدمات أو مسوّغات، قد لامس حدود المجاملة العادية بين أولئك الناس ذوي الصوت الرصين والمعاملة المتكلفة. كان الأستاذ قد أنهى عرضه الذي قدر، دون شك، أنه لم يلق تعويضاً كافياً في مسوغات اهتمام الآخر ولا في الكلمات المواربة التي كان يمكن، على الأقل، أن تحلّ محلّها.

ـ يتوجب عليّ الاعتذار لأني داهمتك على هذا النحو ـ قال هو عندئذ ـ كان لدي اهتمام كبير، اهتمام شخصي.

فسارع الأستاذ إلى رفع يديه وحني رأسه في إيماءة استسلام وتذلل، كمن هو مغموم من تلك الكلمات، وكأنه يرغمها، وإن يكن بوداعة، على أن تكون غير ضرورية. لكنّ اعتداده بنفسه دون شك، وليس فضوله، كان قد بدأ يبلغ الإشباع.

ـ ليس لاهتمامي أي منشأ علمي، يا دكتور. سأوضح لك.

Twitter: @alqareah

ـ باللّه عليك، لا تهتم. لا أريد أن أكون متمادياً.

ـ لا بد أن أوضح لك الأمر. إنها قصة مثيرة للفضول.

واعترف عندئذ بتجواله الدقيق في المتحف، وإن لم يُشر إلى لُقى أخرى سوى الصورة. وأخبره بدهشته أمام تلك اللوحة التي واجهته بتشابه بالغ الدقة مع وجه أبيه، وكيف خطرت له بعد ذلك الذكرى المشوشة عن قريب قديم مهاجر. ضم الرجل الضئيل يديه معاً وهنّأه على تلك اللّقية التي يجب أن تكون مدعاة تشريف له بقدر ما هي مبهجة. وقال:

ـ إن لقاء كهذا، بعد حياة مكرّسة للأبحاث، هو أكبر من جائزة أكاديمية.

وكان يبدو سعيداً حقاً بمعرفة ذلك كله، والتعرّف على شخص من سلالة الرجل الوجيه. كان قد أمسك بإحدى يديه وراح ينظر إلى عينيه كأنه يريد أن يعبر له عن عاطفة حميمة وحاسمة كأنها الوله. أحس هو بالضيق. وعندئذ تكلّم الأستاذ بصوت محايد.

ـ لقد بقي لدينا نحن أيضاً واحد من سلالته ـ قال.

كان قد حان موعد إنجاز كل منهما مهامه، فأفلت هو اليد التي تثبته، ونهض واقفاً. فنهض الأستاذ أيضاً. وكان لا يزال ينظر إليه بزخم يبدو معه أنه لا حاجة إلى استخدام الكلام.

ـ وهل له حفيد؟

أمسك الأستاذ بإحدى ذراعيه بكلتا يديه وقرّب رأسه بحركة واضحة كمن يود البوح بسرّ. وأدرك هو متوجساً أن تلك النظرات الثابتة، غامضة المعاني، والابتسامات الملغزة، تخفي معرفة مصادفة أخرى.

ـ مذ رأيتُ حضرتك وأنا ألحظ فيك شبهاً تلعثم الرجل الضئيل .. والآن، بعد أن عرفتُ الأمر، أؤكد لك أنه لا يمكن لهم إنكار ملامح الأسرة.

ظلّ هو هادئاً، وبصره مصوب إلى عيني الأستاذ، وبدأ المشي بعد ذلك دون أن يقول شيئاً. خرجا من البار، وبينما هما يقتربان من المبنى، تحت النتوء المعماري الذي يربط الأجنحة ببعضها، شرح له الأستاذ بطريقته الإيقاعية في الكلام والتي تضبط وقع المشي، أن الفرع الأخير من نسل البطل المدني البعيد، والممثل الأخير للسلالة هو رجل أعمال متواضع يقيم في العاصمة.

تلقى ذلك النبأ كمن يتلقّى إثباتاً لشيء متوقع، وإن كان مختفياً وراء

Twitter: @alqareah

حجاب من النسيان. وقد أوحى إليه ذلك اللقاء بالصورة الأبوية فوراً بفكرة أن التوازي لا ينتهي عند تناظر الوجهين فقط.

أحس بالخوف مجدداً. فقد استيقظ فيه حدس مخيف، كما لو أن ذلك القريب الذي يضاعف السلالة الحالية لرجل اللوحة، يفرض واقعاً يمكن له، وقد كان سرياً حتى تلك اللحظة، أن ينقل إليه، إلى جانب أرقه، خطراً لا يمكن تصوره. ظل صامتاً. وبعد ذلك، كما لو أن الكلمات تولد من شخص، مناظر ومتوازٍ، يستقر فيه، أحس أنه مضطر إلى القول بتوسل لطيف:

ـ دكتور، يهمني جداً التعرف على هذا الرجل. لا أدري إن كان بإمكانك المساعدة في ذلك.

كان رضا الأستاذ واضحاً. وكانت عيناه تلمعان.

ـ إنني تحت تصرفك. سأكون سعيداً جداً إذا ما أفدتك في شيء.

❖ ❖ ❖

سلّمه في اليوم التالي العنوان مكتوباً بحروف دقيقة وعادية على قفا بطاقة.

ـ سأتصل به، إذا كنت ترغب في ذلك.

ـ لا ـ أجاب.

وانتبه إلى أنه كان حاسماً بمبالغة.

ـ لا، اعذرني، أُفضلُ أن أفعل ذلك بنفسي.

كان هناك تناقض غامض في ملامح الآخر.

ـ أشكرك كثيراً. أشكرك حقاً على كل الإزعاج الذي سببته لك.

وكان يشدّ على تلك اليد الكبيرة بجزع.

ـ سأكون هناك خلال أيام. سأذهب لقضاء بعض الوقت في بيت أبويّ، قبل أن أعود إلى الولايات المتحدة. وسوف أتذكر أن أرسل إليك صوراً من تلك القرية بالحالة التي هي عليها الآن.

ـ وإذا كان ممكناً، أريد صورة للبيت الذي ولد فيه ـ طلب الأستاذ.

كفّ أخيراً عن الضغط بأصابعه بارزة المفاصل وابتعد عبر الممر بخطوات بطيئة، وحركات رحالة حذر، ويداه وراء ظهره، وجبهته مائلة قليلاً.

عندما أنهى يوم عمله وعاد إلى الفندق، اتصل بذلك الرقم الهاتفي. رد عليه صوت فيه بحّة خفيفة، كأنه صوت نائم. فكرر الاسم المكتوب على البطاقة.

Twitter: @alqareah

ـ إنني أنا ـ قال محدّثه بعد بعض التردّد.

وتردد هو برهة أيضاً. كان الإحساس المخيف يتجدد بقوّة في معنوياته، وإرادة غامضة تغويه بإغلاق الجهاز ونسيان ذلك الرجل.

ـ حسن ـ قال ـ أعلم أن الأمر غريب، ولكنّ المسألة هي أننا، أنت وأنا، قريبان.

وفي الجانب الآخر، كان الشخص المجهول يُبدي استغرابه بصمت ونحنحات، كما لو أنه قد بوغت أيضاً بتوجس مخيف، وكان على وشك أن يقطع الحوار.

ـ لقد كانت مفاجأة كبيرة جداً ـ ألحّ هو ـ أن يكون أحدنا بعيداً جداً عن بيته، ويجد هذا الوجه، الملامح التي تأملها كثيراً، وبالتحديد في مكان مثل ذلك المكان، وفي صورة بذلك القِدم.

وبينما هو يتكلم بكلمات تبدو ودية، كان يكتشف أنه بحاجة، على الرغم من مخاوفه، إلى اللقاء بذلك الرجل، وإن لم يكن بهدف استثارة أية عواطف أسرية، وإنما لتقصي الشك الخفي، وكذلك هاجس الأحلام الغامض، الذي اخترق تفكيره. فربما كانت صورة ذلك الجد لا تمثّل وجهاً حقيقياً، وإنما قناع لا يمكن أن يكشف سره إلا وجه الحفيد المزعوم الذي من لحم وعظم. وقد يضيف معلومة موثوقة قادرة على توفير آثار أخرى، أو مؤشرات جديدة حول التشابه المستحيل.

ـ لقد تحدثت إلى أستاذ جامعي وأخبرني بقصة الأسرة. وهو من وفر لي عنوانك.

وأخيراً بدأ محدّثه يتحمس.

ـ ويسعدني أنا أيضاً أن أحييك، كيف لا. لكنني فوجئت للوهلة الأولى. عليك أن تعذرني.

كان يذكر بدقة اسم القرية الأصلية.

ـ إحدى العمات كانت تروي لي أشياء كثيرة عن الجد الثالث. ومازالت لدي في البيت أوراق تخصه.

راح تحفظه الأولي يتحول إلى ثرثرة. وكان لصوته رنة قريبة على نحو خاص، مع أنه ربما كان يداري بعض الشكوك أيضاً. ومع ذلك، كانت المحادثة ودّية، وتوصلت، بعد تبادل عدة تفسيرات، إلى أن تصير بلاغية، وقالا

Twitter: @alqareah

إنهما طرفا الفرع نفسه، وشهادتان حيّتان من سلالة قديمة على جانبي المحيط. وأخيراً حددا موعداً للقاء، في وقت لاحق، في أحد بارات الساحة المركزية.

وخلال انتظاره الوقت الذي يفصله عن الموعد، كان يشعر أن فضوله يتزايد، كما لو أنه يمكن لذلك اللقاء أن يحدد فهم بعض المفاتيح المجهولة عن نفسه بالذات. وفي الليلة السابقة، فكّر في عمله خلال الأسابيع الفائتة، وكما لو أنه يخرج من سراب ضبابي لا يسمح له بفهم المعنى الحقيقي للأشياء، شعر أن عمله لم يكن مُرضياً. وفي الصباح قرر أن يتحدث في الأمر مع نائبة المدير المسؤولة عن تنسيق نشاطه. وحين التقى بها، قال لها إن مناهج التقويم تلك، يجب أن تؤجل إلى ما بعد تحقيق تأمل بسيط وصريح حول التضاعيف، والانحناءات، والمضامين الخالية من النوعية. فكانت تنظر إليه بصمت، مرتبكة من تلك المقاربة الصارمة الخالية من المجاملة. كانت تقلّب بين يديها صفحات الكتيب الذي ألفته بنفسها، ويشكل أداة العمل الرئيسية، ولمع في عينيها وميض تشكك. لكنها استعادت تماسكها بسريعة: هدف تلك المساعدة، بالتحديد، هو تطبيق المنهاج الذي جُرب في أعمال سابقة.

ـ أفهم أنك تشعر بشيء من التعب، يا دكتور ـ ثم أضافت ـ ربما تمضي في مهمتك بإيقاع متعجل بعض الشيء.

ودّعها ورجع إلى القاعة، حيث كان فريق العمل قد تفرّق إلى جماعات صغيرة. وتحلل حيز الصفاء المكثف ذاك مجدداً إلى ضوء معاكس خفيف. تأمّل الحجرة بنظرة مقتضبة، وبالرغم من أنه مازالت أمامه ساعتان لينتهي، قال إنه لا يشعر بأنه على ما يرام، واعتذر وجمع أوراقه.

كانت أمطار الأيام الأخيرة قد استُبدلت بشمس دون غيوم، وكان الجو حاراً، لكنه رجع ماشياً في جولة طويلة، متعرقاً، ومتقبلاً ذلك الإزعاج الذي يشعر بحيوية أنه علاج لتشوشه.

تناول طعامه بسرعة، ووصل إلى مكان الموعد مبكراً، فتناول عدة فناجين قهوة وتصفّح الجريدة بإلحاح، دون أن يجد خبراً واحداً يبدو له غير مناسب. وفي الساحة، كانت الأشجار المبرقشة، بجذوعها الساميّة كأنها جلود، تقدم شهادة مباشرة عن المشهد الطبيعي الذي يتكاثر، دون ريب، في محيط المدينة وفي الوديان المحاطة بالقمم الكبيرة؛ أما وهي محاطة بالمشهد المديني، فتبدو مصطنعة تماماً مثلما هي زينة واجهات المباني والنوافذ. وكان الناس

Twitter: @alqareah

يذهبون ويجيئون في الشوارع، ووراء ملامح الوجوه التي تبدو معممة في الظاهر، يمكن تمييز سلسلة تلونات لا تقتصر على تمثل السكان الأصليين وتهجينهم الأوروبي فقط، وإنما كذلك الملامح الأفريقية والأسيوية، في مزيج لا يبدو تلقائياً، بل هو منظم لإحداث انطباع بالتشتت والاختلاط. وتخيل عندئذ أنها ليست وجوهاً حقيقية أيضاً، بل أقنعة تخفي ملامح مختلفة، ربما تحتفظ باللون، ولكن ليس بالتكشيرة غير المبالية، ولا بذلك المظهر ذي النظرة الساهية.

وبشيء من التأخر عن الموعد المقرر، اقترب شخص متقدماً تحت المدخل المسقوف. تحوّلت النظرة التي كان يراقب بها مرور المشاة واتجهت، فجأة، إلى ذلك الرجل. كان فيه شيء غير مألوف، وإن يكن محتجباً، لم يستطع اكتشافه في البدء. لم يكن الأمر يتعلق بأعضائه، ولا بملابسه، ولا بطريقته في الاقتراب. ربما كانت الغرابة في عينيه، في نظرة زائغة قليلاً، وفي تكشيرة فم تُظهر الأسنان، حيث الشفتان منفصلتان قليلاً عن بعضهما، كأنهما على وشك إطلاق صرخة، في تشنج واضح يشعّ من هيئته مانحاً لمظهره العادي في الظاهر بُعداً مختلفاً عن المظهر الجسدي المحض، كأنه ينتمي إلى حماقات كابوس.

كان ذهوله، وقد استُثير في لحظة واحدة، حاداً لدرجة بدا معها أنه يغطي حيزاً زمنياً أكثر اتساعاً بكثير. وأدرك في النهاية، حين توقف الرجل أمام منضدته الصغيرة وصوب إليه نظرته، أنه فعلاً الشخص الذي كان ينتظره.

جلس الآخر واحتفظ كلاهما بالصمت. ظل كل منهما يراقب وجه الآخر بإمعان. شامة على الوجنة اليسرى، فتحات الأنف ممتلئة بشعر قاتم، وندبة خفيفة على أحد جانبي الذقن، والشعر المجعد فوق الجبهة. وضع كلاهما يديه فوق المنضدة، وتأمّلا اتساع المسافة بين فقرات الأصابع، وشكل الأظافر، ورسم خطوط باطن الأكف.

وكان هو من تكلّم أولاً. وقد بذل جهداً لكسر ذلك الاستغراق في الافتتان.

ـ ألا تعرف الصورة؟

هزّ الآخر رأسه، وحناه بعد ذلك غاضاً بصره، كأنه يشعر بالخجل.

ـ لا أعرف المتحف.

Twitter: @alqareah

اعتصما بالصمت. وبعد ذلك قال الآخر كلمة لم يفهمها هو في البداية: كانت تلك الكلمة ترنّ في ذاكرته دون أن تجد لها صدى، كأنها اصطلاح لا يمكن فك رموزه، ولم يُسمع من قبل قط. وكرّر الآخر الكلمة دون أن يرمش، فأدرك هو عندئذ أنه اسم القرية الأصلية. وعندما انتبه إلى المعنى، بدأ التكلم متلعثماً، بصورة يمكن للكلام والحوار معها أن يثبّتا عادية الأشياء: القهوة التي تبرد على المنضدة، والصبي الذي يعرض مسح الأحذية، والسيارات التي تمر في الشارع، والطيور الكبيرة التي تنعق بين أغصان الشجر.

ـ إنها بلدة صغيرة جداً ـ قال ـ. قرية تعتمد على تربية الماشية أساساً. يمر منها نهر، مياهه باردة وصافية. نهر يحمل شذرات من التبر منذ قرون طويلة.

ـ كان أبي على وشك الذهاب للتعرّف عليها. لكن الحرب الأهلية اندلعت، ثم تلتها بعد ذلك الحرب الأخرى.

ـ فيها كنيسة صغيرة إلى جانب مقبرة ذات أسوار مرتفعة. وينبوع بسبعة فوارات، وجسر بحواجز حديدية، وآخر أصغر، يقال إن الرومان هم من أقاموه.

وقد واصل كلامه، بالفعل، كي يبقيه منصرفاً عن ذلك الوجه الذي ينظر إليه من الجانب الآخر للمنضدة.

ـ ومات العجوز المسكين دون أن ينفذ رغبته.

كان في رنة الصوت صدى عائليّ كئيب.

ـ يقال إنه كان هناك أيضاً، قبل سنوات طويلة، قلعة تحمي مدخل الوادي. غير أنه لم يبق منها سوى حجارة مفككة.

أجهز الآخر بجرعة واحدة على الشراب الذي أمامه، وطلب كأساً أخرى. فطلب هو أيضاً شراباً كحولياً.

ـ رغبة أبي كانت حلماً لم يستطع تحقيقه.

واصلا الكلام لوقت طويل. تحدثا في أول الأمر عن أسرتيهما. وبعد ذلك تبادلا وصف عملهما، والشكوى من التضخم. كانت عينا كل منهما مصوبتين إلى عيني الآخر، وراح حوارهما يتحول في النهاية إلى تمتمة بلا معنى، لا يكاد أحدهما يسمع الآخر، ويقتصر تواصلهما بالكامل على ذلك التأمل النهم، وذلك التمعن المترع بهواجس مسبقة غامضة.

كان طلب جولات متتالية من الشراب يحدد بعض اللحظات بين صمتهما

Twitter: @alqareah

ومونولوجاتهما، وكأنها نقلات تصبّ في وضع مماثل لسابقه. كانت الكؤوس وفيرة، ثم تبادلا تحية الوداع بعد عدة ساعات، عندما بدأ البار يمتلئ بالسيّاح.

ـ عليك أن تأتي إلى بيتي لتتعرف على آليثيا والأبناء ـ قال الآخر في النهاية.

كان يتكلم بصورة قسرية، دون دفء ولا قناعة.

ـ يسعدني الذهاب ـ أجاب هو ـ في يوم آخر.

ـ أجل، في يوم آخر. أنا سأخبرك. سأتصل بك في الفندق.

ـ سأكون بانتظار اتصالك ـ قال بصوت احتضاري.

وفجأة، بعد النظرة الأخيرة الحادة مثل نار موقد، اقترب الآخر منه ملتفاً حول الحيز الدائري الصغير الذي كان يفصل بينهما. وتكلم بصوت خافت ومذعور.

ـ لقد رأيت الليلة الفائتة حلماً. كنت عائداً إلى بيتي في وقت متأخر. ولم يكن هناك نور سوى ضوء القمر، وكان هناك صمت موت. كان الباب مفتوحاً، وكان يُسمع تنفّس النائمين، تنفس لاهث كأنه النفس الأخير. دخلت إلى مخدعي ورأيت في السرير جسدين: آليثيا نائمة، وإلى جانبها رجل، وكان نائماً أيضاً. كان مثلي، لكنه لم يكن أنا. وعلمت أنه لم يعد لي بيت، ولا امرأة، ولا أسرة، فرحتُ أبكي مثل طفل.

كان على وشك أن يرد عليه بعبارة قاسية، كما لو أن الآخر، بروايته ذلك الحلم، يحاول تحميله مسؤولية ما. لكنه لم يجد الوقت ليفعل ذلك. فقد كان الآخر يبتعد مسرعاً، ويجتاز الجزء الأخير من المدخل المسقوف، ويختفي في الشارع. كان الوقت ليلاً، وأوراق الشجر قد استردت زخم روائح البرية العطرة، والنافورة تؤكد خريرها في الظلمة إلى أن تحوله إلى صدى سيل.

وبينما هو مستغرق في تخمينات مترددة، وجّه خطاه نحو الفندق. كان تشوش ذلك اللقاء يزداد غرابة بفعل التأثير المباشر للشراب. وكانت الشوارع المقفرة، والمناسبة للمشي، توفر سكوناً مرحباً.

ودون أن يتخذ قراراً محدداً من جانبه، كانت مسيرته تتجه ببطء في اتجاه معاكس للاتجاه الذي عليه أن يسلكه. وعلى الرغم من حيرته من الأمكنة التي يجتازها، إلا أنه كان يذرعها بثقة سرية، كما لو أنه يضبط وجهة مرسومة ومستوعبة في لاوعيه.

Twitter: @alqareah

كانت مسيرة طويلة، خلّف وراءه المنطقة الكولونيالية واجتاز منطقة أخرى، حيث بقايا خضار وفواكه، وأوراق ممزّقة وقمامة، تقدم شهادة على السوق الذي كان هناك للتو. وبانتهاء النهار، كان أناس بائسو المظهر يتوجهون متهربين إلى بيوتهم. وكان المكان، ومثله الأشخاص، غير معروفين له على الإطلاق. لكنه كان يعرف، دون شك، تفسير الأضواء والحركات على أنها أضواء وحركات أحياء جال فيها طوال الحياة.

وبعد أن اجتاز جادّة مظلمة، توغل في منطقة مساكن معزولة. وتبدلت حجارة البناء والقرميد لتحل محلها مواد أكثر خفة وحداثة. وصل قبالة بيت صغير أبيض، واجهته مغطاة برواق يستند إلى أعمدة معدنية نحيلة. وكان هناك طفلان يتأرجحان على أرجوحة نوم. توقف يتأملهما. وبعد لحظات، انتبه الطفلان إلى وجوده، فقفزا إلى الأرض وجاءا راكضين للقائه وهما يناديانه. وعند سماعهما، خرجت فتاة سوداء إلى الباب.

ـ لقد تأخرت كثيراً، يا سيدي ـ قالت ـ سيدتي تشعر بالقلق.

وخرجت بعد ذلك امرأة ناعمة التقاطيع.

ـ ما الذي حدث؟ ألم تكن عند تشيبه.

وأدرك فجأة، بذهول ودهشة، أنه يشكل جزءاً من تلك الأسرة.

ـ سنتكلم، سنتكلم ـ أجاب متهرّباً.

ـ كيف هو؟ـ سألت المرأة.

وفوجئ بتذكر ذلك الوجه دون فزع، بل بكل هدوء.

ـ حسن ـ أجاب ـ إنه هكذا، لطيف.

ـ أهو كبير السن؟

ـ حسن ـ قال ـ لا بد أنه مثلي.

راح الطفلان يقصّان عليه بتلعثم مستجدات اليوم الصغرى. صعد درجات الرواق، واقترب من البوابة. كان في إحدى اللحظات على وشك أن يتراجع، أن يدير ظهره ويهرب. لكنه أنقاد باستسلام، وكأن ذلك كله ليس سوى حلم بالفعل.

ذرع الممرات، وتفحص الأثاث دون أي إحساس بوجود مستجدات. كما أن البيت تمثله دون استغراب، وكأنه ينتمي إليه منذ الأزل. تناولوا العشاء فوراً: متوالية من الأطعمة تقبلها بتلقائية، على الرغم من عدم اعتياده عليها، وكما لو

Twitter: @alqareah

أنها عادة قديمة أيضاً. كان يجيب عن الأسئلة من غير أن يعلم ما يقوله، منساقاً للآلية المتولدة كما يبدو من عادة طويلة. وبعد العشاء، جلس على الشرفة، إلى جانب المرأة، وواصلا الحديث في حوار ينساب بحيوية، حوار لا علاقة له باهتماماته، دون أن يجد نفسه مضطراً لبذل جهد في مواصلته. وكان الطفلان يجلسان على الأرض ويلعبان دور داما.

أحس بطمأنينة غامضة، براحة، كمن استرد العافية وحسن الطالع، وتحولت فكرة الحلم فجأة إلى نقيضها: إلى أنه قد خرج أخيراً من حلم، من أحد تلك الأحلام الفظيعة والمرهِقة، بحيث يمكن معها تقبل أي أرق على أنه تحرر وانعتاق. وكانت لا تزال تتقاطع في ذهنه أفكار مزدوجة، مقلقة. لكنه عندما استلقى لينام، كان يكاد لا يتذكّر من هو.

❖ ❖ ❖

وأخيراً، لمع في مركز أفكاره ضوء لم يكن بالإمكان كشف حقيقته، وتبدد في شرر متلألئ مخلفاً فيه فراغاً رناناً وحسب. وعندما فتح عينيه بدا له أنه لا يخرج من حلم وإنما من أرق ليلي آخر، من سهاد منهِك؛ وأنه لا يُخلّف وراءه مشهد الكابوس وأشباحه، وإنما يخلف شيئاً ينتمي إلى الواقع الكامل، شيئاً ـ وإن اختفى ـ تطل منه الآن ملامح: ذكريات تكافح، من عمق سحيق، لتطل من بين آلاف أجزاء ذاكرة مفتّتة، مهروسة، تالفة، مثل جدول خطوط بيانية معزولة وممحوّة، لا سابق لها ولا لاحق. وجوه هاربة، أشياء في فضاء داخلي، الشمس فوق جادة، ظلال على النوافذ، أعضاء أجساد بشرية وحيوانية، تلألؤ على الأوراق.

يبدو أن نسياناً عميقاً، أسود، دفع به نحو هاويات جهل بالغ الصفاء والقوة، أشبه بوهن مرض شديد الخطورة، فكان ينهض عند الاستيقاظ بجهد كبير، كما لو أنه يحاول الخروج من خندق مائي. كانت هناك ألياف، وطحالب، وحشرات صغيرة تهبط ببطء في العتمة. وكان بعض البريق يشبه عيون كائنات حيّة تترصد فريستها. وكان للصمت دوي سيل يُغرق حجرة النوم بتدفق عمودي، بسقوط يأتي من علو شاهق، أعلى من السقف.

كان يخرج من اليقظة، ينتزع نفسه من ذلك الحلم العميق، من ذلك النسيان، مثل وليد يغادر بطن أمه، ولا تزال نتف وبقايا مخاطية نابضة عالقة

Twitter: @alqareah

به. كان ضوء الصباح ينسكب في أرجاء الحجرة، وسط خثرات من الظلّ، ويتكثف في قشدة مضيئة على وجه التلفزيون الخالي من الملامح.

عندئذ رأى وجهاً آخر بلا حراك، يطل من جانب الباب. كما لو أنه يتأمله أول مرة بعد انقضاء زمن طويل، فظل ينظر بدهشة. ابتسمت الفتاة، ربما بانتظار إشارة ما.

ـ هل استيقظت؟ـ قالت ـ لقد كنت ممنوعاً من الشراب.

زفر بقوة، مط ذراعيه في حركة تثاؤب طويلة، وتناول ساعته عن الكوميدينو وتأكد من أنها تقارب العاشرة والنصف. كانت الزنجية الصغيرة تحمل فنجان القهوة في صينية.

ـ ماذا حدث؟ـ سأل.

ـ لقد شربت كثيراً يوم أمس ـ قالت الفتاة ـ. لم نجد وسيلة لإيقاظك صباح اليوم. السيدة أخذت الطفلين.

كان يحرّك السكّر دون أن يكفّ عن النظر إليها وهو لا يزال مشوشاً من عنف استيقاظه المؤثر. بعد ذلك، وكما لو أنه يصوغ التعويذة القادرة على أن تعيد إلى الأمور كلها حماية الحجاب اليومي المؤكدة، مدّ يده نحو الفتاة بيقين من يكرّر حركات روتينية، وهتف:

ـ بما أنها غير موجودة، تعالي إليّ. سأحملك إلى الخطيئة.

ومثلما يحدث في صباحات أخرى تكون زوجته قد خرجت فيها، ويستيقظ وحيداً، هربت الزنجية الصغيرة ضاحكة وهي تطلق كلمات تأنيب مازحة. وبعد تلك الدعابة المألوفة، والفعّالة مثل تعزيمة شفاء سحرية، تناول قهوته شاعراً بتحسن كبير، وراح يستعيد توازن اليقظة ببطء.

وكما لو أنه جمعها من الذاكرة بجهد فريد، وردت إلى ذهنه بعض واجبات ذلك اليوم. دين لا يمكن تسديده، لا بد أن يسبب له قلقاً كبيراً، لكنه تذكره فجأة دون اكتراث. بدا كمن يعدد مهمات غير مسؤول عنها، كما لو أن الرجل الذي استيقظ هذا الصباح لم يكن هو نفسه، وإنما بديل له يستذكر تماماً كل المعلومات الضرورية، لكنه يصرّفها بلامبالاة من يعرف أنها غريبة عنه.

وهكذا انضم هذا الموقف غير المبالي إلى خراقته الجسدية. فهو يخرج، من جهة أولى، من حلم يبدو أنه حدث بسبب تسمّم بشراب ما؛ أو كأنه رحالة

Twitter: @alqareah

يجتاز دغلاً متشابكاً، وتوقف ليستريح تحت شجيرات أزهار مُنوِّمة، فانتهى فوحان الأزهار الخرطومية الصفراء الكبيرة إلى إغراق عقله في مغطس لانهائي. وكان يشعر، من جهة أخرى، بعدم مبالاة تجاه المشاكل التي تقلقه عادة، وكأنها لا تؤثر فيه فعلاً إلا بصورة عرضية، بغياب من يتوجب عليه حقاً أن يعانيها ويواجهها.

عندما بدأ بارتداء ثيابه، دخلت الخادمة الصغيرة لتأخذ الصينية. أحس بالسخط بسبب ذلك التدلل، والحركة المتعمّدة في إشاحة البصر، والمظهر المضطرب الذي لم يكن سوى ذريعة لاستثارة المغازلات، فهتف:

ـ لا تزعجيني أكثر.

رتب هندامه بسرعة، وخرج أخيراً من البيت متضايقاً.

الزيارة الأولى إلى المصرف فاقمت أسباب استيائه. اتصل هاتفياً بالمسوف في الدفع وأنبه مرة أخرى على ذلك التأخير الذي قد يؤدّي به هو إلى وضع صعب. ولكنه لم يفعل ذلك بتأكيد رجل يدافع عن حقه المؤكد والحاسم، وإنما بطريقة من يرتل دوراً حفظه للمناسبة. واستمر استياؤه كاستمرار ألم عصبي. خرج سريعاً من المصرف، ودخل ثانية إلى سيارته وقادها إلى خارج المدينة صاعداً الجبل حتى وصل إلى المزرعة.

وعلى ضوء الظهيرة، كانت المدينة تمتد في الأسفل، ساكنة مثل لوحة رسم. وعلى شبح الجبال، في الجانب الآخر من الوادي، كانت تتفكك سحب بيضاء كبيرة. تأمل ذلك المنظر بذهول، كأنه يجده أمام عينيه أول مرة. وهذا ما كان قد حدث أيضاً قبل ساعة من ذلك، حين خرج من البيت وواجهه، من ظل الرواق المسقوف، الوهج الشديد المنسكب على الشارع. لم يكن هناك، مع ذلك، سبب للذهول: فقد تعرف تماماً على المشهد، وعلى شوارع المدينة المتقاطعة مع الجادّات في مخطّط رسم منظم ودقيق، والكتل الضخمة التي تشير إلى المباني الرئيسية (المسرح الوطني، والكاتدرائية، المتحف)، والمقابر والحدائق العامة التي تنفتح كبقع كبيرة خضراء.

تحول استياؤه إلى مرارة. فجانب كبير من المدينة الممتدة تحت قدميه كان مزارع بنٍّ قبل سنوات، وكانت الأسرة أكبر مالك لتلك الأراضي. أما أملاكه اليوم فتقتصر على مزرعة صغيرة، ويمكن لأي دين متوسط أن يعرض توازن حياته للخطر.

Twitter: @alqareah

كان يخيم على الجبلَ صمت وديع، لا يقطعه سوى خرير الماء المتدفق. وكانت أوراق الشجر المجعّدة تلمع تحت الشمس كأنها طليت للتو بالورنيش، وقرون الفلفل الحمراء كأنها جراح صغيرة بين الآجام، في عتمة الظلال. اقترب ببطء من السقيفة. وجاء إليه الكلب يهز ذيله بهياج متذلل. كان ذلك التملق الذليل متعة ابنيه، وقد شكر الحيوان عليه باسمهما مداعباً رأسه لحظة. في أوقات اشتداد الحر تلك، كان العبق النباتي ينسجم مع الصمت متوصلاً إلى كمال يبدو معه أي تبدل مستحيلاً. حومت ثلاثة عصافير طنّانة فوق رأسه، قبالة الأزهار التي تغطي الجدار.

وبينما هو في حماية ظل السقيفة، إلى جانب منصة تجفيف البن، تأمل المدينة مجدداً. كان مستحيلاً، من هذه المسافة، رؤية حركة الناس والسيارات. وكان بياض الأبنية، وقتامة الشوارع والساحات، يُفقدها مظهر لوحة الرسم التي بدت له في البدء، لتكتسب الإطار الدقيق والمبهم في الوقت نفسه لبطاقة بريدية هائلة. وساوره الشكّ بأنه في مكان آخر، يرى بطاقة بريدية لهذه المدينة النائية، صورةً ملوّنة قريبة من عينيه يمسك بها بيديه، ويتأملها وهو خالي الذهن من أي قلق، وأي استياء. أحسّ بالتعب وتمنى لو يتمكن من الغرق مجدداً في حلم كثيف عميق.

كان العجوز آكيليو يصعد السفح لاهثاً وهو يمسك عصاً طويلة قاتمة في إحدى يديه، ومنجل المتشيتي في اليد الأخرى. اندفع الكلب راكضاً لمسافة قصيرة، واقترب منه محركاً ذيله. كان العجوز يلهث متعباً من المسيرة.

ـ صباح الخير، يا سيدي ـ قال أخيراً ـ تسعدني رؤيتك. ظننتك شخصاً آخر.

ـ ألا تعرفني؟

ـ بدوت لي آخر، يا سيدي. رأيت السيارة قادمة، لكنك حين خرجت منها ظننتك شخصاً آخر. وقد شعرت بالخوف.

سارع العجوز إلى التصرف لينتزع أي أهمية عن كلماته.

ـ إنه التقدم في السن ويا لغرابة التفكير في شخص آخر بدلاً منك. كل ذلك بسبب غشاوة هاتين العينين.

إنه يرى الآن بوضوح هرم ذلك الخادم. والصورة الثابتة في ذاكرته ـ الوجه القاتم تحت قبعة القماش السميك، والشارب الكبير الأبيض، والثياب الناصعة

Twitter: @alqareah

ـ أبدت الآن تجاعيد، تكشيرات فقدان الأسنان، ومِزقاً في القميص، وبنطالاً مهترئاً، وحذاء تالفاً.

أبقته ظروف ذلك الانتظار وحلمُ تلك الليلة الخبيث عصبياً ومتعباً. وقد أبدى العجوز باحترام اهتمامه بتلك الزيارة غير المتوقعة، فأجابه هو بجفاء. وبعد ذلك، بينما هو يتأمل ذلك الوجه الذي طالما رآه دون أن يلحظ كيف كان مرور الزمن يعمل في حتّه، أومأ بحركة وديّة وشدٍّ على أحد ذراعي الرجل.

ـ اعذرني، يا آكيلو. لقد جئت لاستنشاق الهواء فقط. أريد إضاعة الوقت ريثما ينجزون لي بعض الأمور. في مرة أخرى سنتبادل حديثاً من تلك الأحاديث اللذيذة.

ابتعد وهو يشعر بشيء من الأسى على ذلك العجوز الوحيد، المحطم والأعرج. تبعه الكلب بضع خطوات، ثم رجع إلى الآخر، محافظاً بأمانة على واجباته الدنيوية. وظل هو يتأملهما للحظات قبل أن يشغّل المحرك ويلوّح بيده في إيماءة وداع.

قاد السيارة بسرعة بينما هو يجتاز منعطفات الطريق المقفر عائداً، لكنه توقف فجأة ليأكل شيئاً في المطعم الذي يشغل بيتاً كبيراً من أخشاب قاتمة، في منتصف الطريق الجبلي، إلى جانب عدة إعلانات عن السجائر. لم يكن هناك أحد في قاعة الطعام، وقدّم له النادل بتقتير بعض البيض القاتم والمشوه مقليّاً بدهن الدجاج. لقد تناول الغداء هناك في مرات سابقة، لكنه لم ينتبه بمثل ذلك الوضوح قطّ إلى عيوب القاعة، وإلى هُباب الدخان الأسود على الأطر والستائر والمقاعد، وإلى الأثاث المتواضع والمتآكل. كما أن الرجل الذي يقوم على خدمته كان عجوزاً جداً، يتحرك بنعومة بطيئة تشي بتوعكات خفية. بدا له كما لو أن سنوات طويلة قد انقضت، وأن كل شيء مثقل بكبر السن والغبار. وفكر بعد ذلك أنه يبدو غباراً مبالغاً فيه، مثل الذي يُصطنع في الأفلام منتشراً في أقبية مخيفة وزنازين مظلمة. وخامره الشك بأنها خدعة، وراوده الإغراء بأن يمد ذراعه ليمر بيده على الدعائم والتأكد من حقيقة تلك المظاهر العتيقة. لكنه لم يفعل، وواصل تأمل منظور المدينة الساكن، عن قرب أكبر. كانت لا تزال توحي إليه بصورة فوتوغرافية مطبوعة على بطاقة بريد فسيحة.

ومع ذلك، لم يكن شخصاً غريباً يتأمل منظراً مجهولاً وإكزوتيكياً، إذ

Twitter: @alqareah

كانت تنتصب على السفح، بمحاذاة المزارع الأخيرة، كثافة أشجار مألوفة: أشجار كراو، وبلوط، ومهاجوني. شرب بيرته، ودفع الحساب، وابتعد من جديد نازلاً الجبل بسرعة.

حين وصل إلى المصرف، كانت الأمور كلها قد حُلّت أخيراً. تقبل باطمئنان مفاجئ ابتسامة زبونه، بعد زفرة حلت توتره مثلما تطلق صمامات مراجل القاطرات اللاهثة ضغط البخار. ألح الآخر على أن يشربا شيئاً معاً، فشربا بعض الكؤوس. وأخيراً، بعد أن تقبل، دون اعتراض، الاعتذارات الأخيرة والوعود بأداء أفضل في المستقبل، افترقا وتوجه هو إلى بيته. كانوا يغلقون حينئذ المتاجر، والناس ينصرفون متفرقين. وكان يقود السيارة الآن ببطء، كأنه يضبط إيقاعه بطريقة ما مع الهدوء المتزايد في الشوارع. وكان جزعه خلال النهار قد توقف بصورة مفاجئة، لكن سكينته لم تطغَ على ذلك الإحساس بالغمّ الذي رافقه خلال اليوم كله.

كان الطفلان قد رجعا، وهما ينجزان واجباتهم المدرسية بمرافقة صخب موسيقى المذياع. وكانت زوجه والفتاة ترتبان الملابس وتتحاوران بصوت خافت وسط الكثير من تصنع الحركات والإيماءات. أخرج أرجوحة نوم إلى رواق المدخل، واستلقى عليها ومعه الجريدة وزجاجة البيرة. فكان بعض المارّة يحيونه، فيبعد هو أوراق الجريدة الكبيرة، وينظر إليهم باقتضاب، ويرد على تحيتهم ببشاشة أو بوقار.

كل شيء كان يبدو عادياً. وكان الليل يخيم بعذوبة على الحي، وعندما حان موعد الطعام، أحس أنه أفضل حالاً بكثير، كما لو أن ذلك النهار الغريب قد بدأ ينطفئ حقاً، ويتقوض، ليختفي إلى الأبد.

نعم، كل شيء كان عادياً. وبعد ذلك، عندما استلقى إلى جانب امرأته، بدا له أنه يلمح، أول مرة منذ الاستيقاظ في ذلك الصباح، كما في أول أيام نقاهة، الإشارات إلى أنه كان هو نفسه بطل الأحداث، دون أن يُجري أي تبديل. وكان الجسد الأسمر العاري يؤكد وجوده إلى جانبه كشهادة على الواقع. وبين الثديين البديعين كانت تتزلق قلادة تحمل رسم عذراء الملائكة والعوذة الصغيرة العطرة. كان العبق المنبعث من جراب العوذة القماشي الصغير يختلط برائحة البشرة مولداً شذى لا يمكن له معه أن يكون في حلم، بل كان يتسامى ظافراً فوق أي حلم. وكانت هي تنظر إليه

Twitter: @alqareah

مبتسمة.

ـ ماذا بك؟ـ قالت هامسة.

لم يجب. احتضنها وداعب الثديين الطريين، قبّل ذلك الفم العريض، رأى كيف أغمضت عينيها، وأغمض هو عينيه، بينما كانت الأنفاس المتبادلة تصير أكثر إنهاكاً. سعى بجهد للتواصل مع ذلك الجسد، كما لو أنه سيجد في حميمية أعضاء الجسد الآخر علامةً حاسمة على اليقظة، كمن يلقي بنفسه يائساً في نهر مجهول، يقدّم مع ذلك سبيل نجاة من تضييق يُفترض أنه لا خلاص منه.

لم تقل هي شيئاً آخر. كانت تضبط وضع جسدها بما ينسجم وهياجه، كما لو أن التحامهما يشكل جانباً من خطوط اتصال أكبر، يواصلها بدقة تتوالى وتنضبط بإحكام يصل إلى ما هو أبعد منهما بكثير، عبر اتصالات أخرى، وحركات هائلة وسرية أخرى. وبينما هو غارق في ذلك الاستسلام، فكر في أنه يمكن للنشوة التي تحمل جسديهما إلى تلك الذروة أن تشكل جانباً من نبض حقيقي وحيد لا وجود فيه لحيلة ممكنة، ولا علاقة له بأي تخيلات جنسية.

وأخيراً هدأا معاً. وكان صدى نبضهما يتردد برفق في رأس السرير. ارتدت هي قميص نومها وتكورت في السرير.

ـ تصبح على خير! ـ تنهدت.

ـ تصبحين على خير! ـ أجابها.

تأملها للحظات. وكانت هي قد أغمضت عينيها وراح تنفسها ينتظم.

ـ حلمتُ في الليلة الفائتة حلماً خبيثاً ـ قال.

تناول سيجارة، على خلاف عادته، وبدأ تدخينها. كان الدخان يمنح حجماً لبريق ضوء الكوميدينو على السقف، وعلى ورق الجدران الملوّن، وعلى حمرة هيكل الخزانة.

ـ حلم خبيث في الليلة الفائتة، ونهار سيئ هذا اليوم ـ أضاف.

سحق جمرة السيجارة وأطفأ النور.

لكن المرأة لم تكن تجيب. لا شك في أنها نامت. بعد أن أحس بواقعية جسديهما المنسجمين، كان التهديد بحلم كئيب يخفق بجناحيه حوله من جديد، كأنه نسر رخمة يحوم حول جيفة. أشعل الضوء ثانية، وعبأ نابض

Twitter: @alqareah

المنبّه ثم أعاد إطفاء النور. كان بريق مصباح عمود نور بعيد يعكس على شاشة التلفزيون بريقاً باهتاً. أغمض أيضاً عينيه، انقلب في الفراش، وانتظر النوم بلهفة، وكأنه سيحرره من قيد خفي.

Twitter: @alqareah

III. الضفة المظلمة

لكنه لم يتوصل إلى النوم. ولسبب غير مفهوم، صارت لياليه منذ ذلك اليوم تنقضي في انتظار غير مجدٍ للنوم، في حالة سبات تسمح له، مع ذلك، أن يسمع بدقة مغيظة كل أنواع الضجيج: تنفس زوجته، كلمات غير مفهومة يتلفظ بها الطفلان النائمان، طقطقة الجدران، غرغرة الماء في الأنابيب، وقع خطوات أحد العابرين، انزلاق السيارات على الشارع؛ أو أن يشعر، بخوف، بكل هزّة أرضية خفيفة من تلك التي ما كان يمكن لها أن توقظه في العادة. وبينما هو يسمع أصوات المواء، والنباح، وتحليق الطائرات الأجش، ومحادثة مشوشة تقترب وتبتعد في ما وراء النافذة، كان يلمح المرور البطيء لكل دقيقة من دقائق الليل غير المتناهية.

ـ كان جندياً يبحث عن موقع كنوز كثيرة يسمونه إلدورادو، وكان في بحثه ذاك يجتاز سهوباً وغابات وأنهاراً. وأخيراً، ضاع مع جماعته في الصحراء. لم يكن لديهم ما يأكلونه، ولم يكن لديهم خيول، ولا عربات، ولا خدم، يقال إنهم جميعهم راحوا يموتون شيئاً فشيئاً، وبسبب الجوع الذي كابدوه، اضطرّوا إلى أن يأكل البعض منهم الآخرين.

لم تكن ثمة وسيلة تعيد إليه النوم، وكان ذلك الأرق يبقيه خلال النهار في حالة وهن تشبه تلك التي تسببها عملية تحول محمومة. كان يقوم بواجباته، ويقابل زبائنه وزملاءه كما لو أن ذلك كله يحدث في الجانب الآخر من زجاج يغطيه البخار، أو وراء غلالة شفافة تشوه الأشكال وتجعل الحركات غير محدّدة. وكان إحساسه بأنه يتولى بعض الوظائف بالنيابة عن شخص آخر يزداد حدّة، وجاءت مؤثرات جديدة من الإشارة نفسها لتزيد من ذهوله: هكذا بدا له، ذات صباح، أنه اكتشف أن ذلك الوجه الذي ينظر إليه من المرآة، على الرغم من شبهه الشديد بالوجه الذي يعكس حضوره عادة، له مع ذلك تفرد مفاجئ يميزه عن وجهه، بل إنه وصل حدّ الشك، ليس من دون خوف، في أن للوجه نوعاً من الاستقلالية، إذ خُيل إليه للحظة أنه يراه يحرك شفتيه ليقول شيئاً من خلال جملة غير مسموعة لم ينطق هو بها، لأن فمه مطبق وشبه مغطى بصابون الحلاقة.

Twitter: @alqareah

عقّدت تلك الليالي الطويلة التي أمضاها دون نوم من بلبلة الزمان والمكان في ذهنه، وأضفت على مزاجه مظهر حزن وعدم اكتراث جعل منه محط تعليقات مشفقة. هجر عاداته القديمة في العزف على الجيتار أيام الآحاد، على الشرفة، بعد الغداء، بينما الطفلان يلعبان في الظل وامرأته تتأرجح في أرجوحة النوم؛ ولم يعد يخرج مع الأصدقاء ليتناول بعض الكؤوس أو لطقوس لقاء سري مع فتيات مرحات. وكان الأصدقاء يؤنبونه لابتعاده عنهم، وتسعى زوجه دون طائل لتمكينه من النوم، بوساطة مُغلى أعشاب، وأدعية وعُوذ. كما أن الأدوية الموصوفة لم تفده في شيء.

- إلى أن ظل ذلك الجندي وحيداً، ممزق الثياب، حافي القدمين، تغطي جسمه القروح. وكان يأكل كل ما يجده من أعشاب وذباب، وروث وبيوض. بل إنه أكل أفاعي وجرذاناً ونسور رخمة، وخفافيش. إذا كانت الشمس حارقة، يحتمي في الظل. وإذا ما اشتد البرد، يحفر حفرة في الأرض ويتغطّى بالتراب. كان يتحمّل قسوة المناخ، ويتابع البحث عن طريق تعيده إلى بيته، إلى زوجه وأبنائه.

في دوران تلك الساعات البطيء، كان يتحقق من ذكرياته كلها مثلما يستعرض هواة جمع الأشياء طوابعهم، أو لصاقات ماركات السيجار، أو عملاتهم. وخلال تحققه كان يخفق فيه الإحساس بأنه يراجع درساً محفوظاً، كما لو أن حياته لم تكن بالفعل تقديمه لدورٍ آخر لا يعنيه. وبطريقة ما، كان الأرق يظهر كأنه شيء منسي خفي وغامض. وفي شكوك هذا التناقض، كان يراجع حياته كما لو أنها لا تنتمي إليه حقاً، ويردد ذكرياته في الليل الصامت مثلما يكرر بنود عمله اليومي، محاولاً نبشها ليعرف بطلها الحقيقي، وليتعلّم في الوقت نفسه أن يكون ذلك البطل.

وهكذا راح يستعيد مئات المشاهد التي ظن أنها ضاعت إلى الأبد. وفي مواجهة ظلمة حجرة النوم، كما لو أنه مشاهد وحيد في السواد الباهت لقاعة سينما، كان يتأمل في مخيلته أضواء الذاكرة وظلالها. روائح وطعوم، تمايل عربات واندفاعات براكين. كان يستعيد نفسه طفلاً، في المدرسة، ويُفهرس الألعاب، والدروس، والزملاء. ويذكر إيماءة خاصة من معلمة، أو أغنية تعلمها للاحتفال بمناسبة معينة. كان يتذكر زمن الدروس وزمن العطلة في بيت أم أمه، على الساحل الغربي، بين مزارع الموز المحيطة بشواطئ شديدة البياض من رمل

Twitter: @alqareah

مكون من مرجان وأصداف مفتته؛ بيت كبير أخضر، مبني من الأخشاب، فيه دجاج وماعز وحصان. كان يتذكر مواقف، وملابس، وتكشيرات، وكلمات. يتذكر الضوء بين النخيل، والماء بين صخور الجانب الظليل، والنعاس اليابس للذرة المائلة، وحجرات تجفيف الكاكاو الصغيرة كأنها بيوت أقزام. يتذكر أعشاش الطيور، والفراشات الكبيرة، والأعشاب التي تنغلق حين تحس أنها لُمست، والسرطانات الصغيرة البرتقالية التي تهرب لتختبئ في الأجمة الكثيفة.

ـ اجتاز صحارى جديدة، وأنهاراً جديدة، ثم غابات وقفاراً وسهوباً أخرى. وقع في أيدي متوحّشين، بعضهم عذبوه وآخرون عاملوه كمبعوث من السماء. وأخيراً، وجد لدى فتاة رباطَ حذاء يشير إلى قرب أبناء قومه. ولم يبق عليه سوى أن يجتاز أرض براكين.

في البدء كانت الذكريات تستقر في ذهنه مختلطة كأنها سرب نحل شره. لكن توالي أرقه المتواصل أتاح له تنظيمها وضبطها في ميقاتها الصحيح، إلى أن أعاد تركيب الأحداث من جديد في تواليها المضبوط الذي جرت فيه كما يبدو له. راجع سنوات المدرسة، والعطل البعيدة، وأولى الميتات الأسرية، ومرحلة الصبا، والمعانقات التي دشنت معرفته بأجساد أخرى.

ومن أجل تأكيد بعض ذكرياته الليلية، بدأ البحث عن أشياء ومعطيات. كان هناك في عليّة صغيرة في البيت بعض العلب والصناديق وعلب القبّعات، حيث تُحفظ صور شخصية وبقايا من أزمنة أخرى. قدمت له بعض الصور صورته وهو طفل يغمض عينيه في مواجهة بريق الضوء، مع ظلال كبيرة تمتد تحت حاجبيه ووجنتيه. طفل عند حافة حقل ذرة، وصف أشجار نخيل تظهر على مسافة غير محددة. طفل إلى جانب أشجار جوز هندي كبيرة، ورأسه مغطى بقبّعة من القش: كان المطر قد هطل، والأرض مغمورة ببرك ماء.

ـ توغل في أمكنة موحشة، وفي غابة طويلة حيث ترقد جذوع محروقة، وفي وديان حرقها مهل البراكين الأسود، إلى جانب صخور شديدة الانحدار رمادية كأنها الرماد. في أحد الأيام، ومن فوق هضبة مكسوّة تقريباً بنباتات كثيفة، تأمل بناءً من الحجر. نزل إلى المكان: كان معبداً مهجوراً.

كانت هناك صور تعود إلى ما بعد تلك السن، بعضها من أيام التخرج من المدرسة، وأخرى يظهر فيها مرتدياً ثياب الراشدين في بعض أركان المدينة. وبعضها تشهد على طقوس واحتفالات أخرى. صور، كتابات متنوعة،

Twitter: @alqareah

مفكرات مضى عهدها دُونت فيها ملاحظات لم يعد بالإمكان سبر غورها. وجوه مسنين ماتوا منذ زمن، وأشكال حيوانات اختفت بدورها أيضاً إلى الأبد. كل تلك المعطيات راحت تشكل جانباً من أحلامه الليلية مضفية مزيداً من المصداقية على تلك الصور.

تفحص بعد ذلك علباً أخرى. الذكريات صارت هنا أقدم عهداً وشحت الصور إلى حد الاختفاء. وجد كتاب صلوات صغيراً، ووثائق تتضمن قوائم جرد قديمة، ورسائل ما عاد بالإمكان طيها دون أن تتفتت. لقد تراكمت في تلك العلب بقايا عدة أجيال سابقة على جيله. وكانت فوضاها بالذات هي التي حفظتها من الاندثار، لأن الخوف من إتلاف شيء ثمين قضى بحفظ تلك الأوراق، وتلك العلب الصفيحية، والسكاكين الصغيرة الخاصة ببري الأقلام، والكشتبانات والشرائط، ربما بانتظار قرار بفرزها وتنظيمها بصورة نهائية. وهكذا انتقل من البحث في ذكرياته الخاصة ـ وكأنه يقف بالمرصاد لمصادفة، وسط رسوخ التواطؤ الجلي، تعلن أنها ذكريات خاصة به، وشديدة الاختلاف، وغير قابلة للتحوير ـ وتحول إلى الاهتمام بتلك البقايا التي لم تعد ذكرى لأحد. إنها أزهار جافة، وثائق تسجيل، نشرات هجاء سياسي، كتفيات، وبدت تلك العاديات كأنها تقدم انعكاساً لمجد ضائع.

ومع مرور الوقت، راح واقع الساعات النهارية والتألق المستحضر في ساعات الليل يشكلان في ذهنه تعارضاً خيالياً يصعب فيه الفصل بين ما كان يحدث فعلاً وما كان قد حدث منذ زمن بعيد جداً، وصار مجرد استذكار وحسب.

وذات ليلة، ضربت ريح قوية النافذة، وحين نهض لتثبيتها رأى كيف كانت عظاءة إيغوانا صغيرة تهرب على الجدار إلى أعلى. صورة الحيوان الزاحف المتهرب، والمضاء بنور القمر، ظلت ثابتة في شبكيّتي عينيه لبعض الوقت، وظل يراها في الظلمة بينما هو يتذكر، فجأة، نفسه في طفولته، حين صادف في أحد الأيام إيغوانا تقبع دون حراك تحت أجمة، ويتذكر في الوقت نفسه، بوضوح وكمال، إحدى القصص التي كانت الخالة مارثيلينا تقصها عليه في طفولته.

كانت الخالة مرثلينا تعيش مع الجدة على الساحل الغربي. وكانت نحيلة جداً، وهشة. لم تتزوج قط، ويقال إنها كانت مريضة. وكانت تتكلم بصوت خفيض، فيه عذوبة، وتعرف الكثير من القصص، بعضها سمعتها والأخرى

Twitter: @alqareah

قرأتها. وكان يحب بصورة خاصة تلك القصص عن الإسبان الذين وصلوا، منذ سنوات طويلة، ليكتشفوا ويفتحوا تلك الأراضي التي كانت لا تزال آنذاك غامضة ومعادية: ربابنة سفن، وبناة حصون، وقادة عسكريون، ورجال دين، وتجار، ورجال قضاء، وكانت الشخصيات تُستذكر بطريقة غامضة، وتكون مغامراتهم في العادة جذابة، على الرغم من نهاياتها المنطوية على أمثولة أو الممجدة للكتب التي دُونت فيها. وفي بعض الأحيان كانت قصة شخصية حقيقية تتقاطع، في رواية الخالة مارثلينا، وحادثة مفاجئة من إحدى قصص السكان الأصليين القديمة، متحولة بذلك إلى قصة خوف. وكانت هذه القصص التي تغمره بمخاوف ممتعة هي المفضلة لديه.

ظل هناك، إلى جانب النافذة، مستغرقاً في ذكرياته إلى حدّ لم يشعر معه بماء الزجاجة الذي دلقه على قدميه عندما نهض. عاد إلى السرير وتخيل الخالة مارثلينا جالسةً إلى جانبه في السرير، تروي له حكاية بهمس خافت من صوتها الضعيف الناعم.

ـ كان معبد إله ضب، يظل تمثاله الحجري في الظلمة. وحين سمع اقتراب الجندي، استيقظ الإله الضب من نومه الطويل. كانت عبادته قد انقرضت منذ سنين بعيدة. فلم يعد هناك من يصلّي له، ولا من يقدم إليه القرابين. لم يعد هناك من يتذكره في العالم. وظن في البدء أن الجندي هو أحد المؤمنين به، وأن مجيئه سينهي تلك الوحدة الطويلة، وستُستأنف من جديد الاحتفالات وتقديم القرابين.

كان جانبٌ من جهاز التلفزيون، وظل الباب، والجزء الخلفي من السرير تستنسخ بطريقة ما بقعة بدن الخالة مارثلينا. ولا بد أن يكون وجهها مرسوماً بخطوط خفيفة على بياض الشاشة الصغيرة.

ـ وصل الجندي المنهوك إلى أسفل التمثال، وجلس ليستريح. كان قد جمع ثمار بعض الشجيرات، وراح يأكلها بلهفة. بعد ذلك غلبه النعاس. وأدرك الإله الضبُ، بعد أن تأمله طويلاً، أن ذلك الرجل ليس أياً من مؤمنيه، وأنه ليس عائداً إليه، وإنما هو عابر سبيل عارض، سرعان ما سيذهب إلى الأبد، ويتركه وحيداً من جديد.

كانت شفتا الخالة مارثلينا تكادان لا تتحركان: بدت كما لو أنها تصلي. ومع ذلك، كانت كلماتها تخرج واضحة، حاسمة، ومختلفة مثل حصى غُسلت للتو.

Twitter: @alqareah

ـ عندئذ قرر الإله الضبّ أن يستبدل جسده بجسد الجندي النائم، وأن يستخدم جسد الجندي للبحث عن قرية يمكن له أن يجد فيها مؤمنيه وطقوس عبادته. احتلّ جسدَ الجندي وخلفه متحولاً إلى ذلك التمثال الحجري، وغادر المعبد متوجهاً إلى القرية. وصل أخيراً إلى بيت الجندي، فاستقبلته الزوجة والأبناء ببهجة لرؤيته حياً بعد كل ذلك الزمن وكل تلك النكبات والمصاعب. لكن زوجته انتبهت سريعاً إلى أن ذلك الرجل، على الرغم من شبهه بزوجها، إلا أنه كائن آخر دون ريب. لأن عينيه ظلتا عيني ضبّ، وفي عمق البؤبؤين، عندما يكون ذاهلاً ـ وهو ما يحدث له بكثرة ـ يُلمح بريق نيران ضاربة إلى الزرقة.

تتوقف الآن عن الكلام، وترفع يديها لحظة عن حضنها كأنها تريد أن تحمل بهما ثقل صمتها القصير، ثم تعيد تشابك اليدين مجدداً وتواصل الكلام.

ـ طلبت امرأة الجندي نصيحة عجوز صانعة حلوى تعرف في الرقى، فقالت هذه لها إنه لا بد أولاً من معرفة إلى أي من العناصر الأربعة ينتمي ذلك الكائن الذي يحتل جسد زوجها. ولهذا الغرض، أشارت عليها بوجوب أن تحيط المكان الذي ينام فيه الرجل بالتراب، والرماد، والريش، والماء، على التوالي. وأن تخبرها بعد ذلك بما يحدث.

أغمض عينيه ليستحضر بقوة ذلك الصوت العذب، وتلك الخاتمة البطيئة للقصة. وكان من عادة الخالة مارثلينا أن تروي له حكاياتها عند موعد النوم، لا لتدفعه إلى النعاس، وإنما كلعبة أخرى في تلك الإجازات في بيت الجدّة التي كانت أفضل هديّة يتلقاها كل عام.

ـ فعلت المرأة ما طلبته منها العجوز، وعادت إليها بعد بعض الوقت لتخبرها بأن زوجها قد غضب كثيراً عندما استيقظ ووطأ بقدميه الحافيتين التراب، ثم عندما داس على الريش في اليوم التالي، وعلى الرماد في اليوم الذي تلاه. ولكنه عندما داس على الماء الذي كانت قد سكبته مسبقاً، لم يُبد ما يشير إلى أنه أحسّ بالرطوبة.

وقد كانت تنتمي إلى العصر نفسه، دون شك، تلك الصورة المنبعثة في الذاكرة حين اكتشف جسم عظاءة الإيغوانا الصغيرة الهاربة. كان ينزل راكضاً على الدرب المؤدي إلى النهر، إلى القرية، وقد توقف فجأة: لمح بريقاً على الأرض، شيئاً يلمع تحت شمس الضحى. كان الحيوان يقبع ساكناً دون حراك إلى جانب بعض الشجيرات الملتفة، بزعنفته المتهدلة على ظهره الأخضر،

Twitter: @alqareah

وحلقه المرتعش بخفقان متواصل. كان رأسه مرفوعاً، كأنه يراقب شيئاً بثبات. فانحنى هو، ومدّ يده، وبسط أصابعه كمن يريد مداعبة ذلك الحلق الذهبي الذي ينبض بنعومة، وظل ساكناً دون حراك أيضاً.

ـ عندئذ تناولت العجوز قطعة قماش، وخاطتها على هيئة جراب صغير، همست فيه بضع كلمات سرّية، ثم دست فيه بعد ذلك حفنة حبوب وبذور، وأنهت خياطته وسلمته إلى المرأة طالبة منها أن تلقي به على زوجها حين تعبر معه مجرى مائياً.

كانت ليالي هانئة، هادئة، تكاد لا تعكرها إلا أصوات البرّية. وكانت الخالة مارثلينا تقص عليه حكاية كاملة أو جزءاً من حكاية. وكانت كلماتها تُختتم عندما تنتهي ضوضاء المطبخ.

ـ وفي يوم كانت المرأة والرجل يجتازان النهر في زورق للذهاب إلى السوق، ألقت المرأة عليه ذلك الجراب السحري. وفي الحال، تحوّل الرجل إلى ضبّ كبير، ألقى بنفسه فزِعاً إلى الماء وابتعد سابحاً نحو الضفة، إلى أن ظل ثابت الرأس ومفتوح الفم، كضب آخر من أبناء جنسه الثابتين على رمل الضفة.

كانت هذه الليلة هادئة أيضاً، ولم تكن هناك أدنى ضجة توحي أنه في الفراش، بجانب زوجته، يتداول الجدل مع نفسه في أرقه وهو مغمض العينين.

ـ وماذا حدث للجندي؟

ـ هس! ـ قالت الخالة مارثلينا وهي تضع إصبعاً على شفتيها ـ نم الآن، وإلا لن أقص عليك البقية غداً.

لم يفتح عينيه. وفكر في نفسه طفلاً، يتأمل الإيغوانا. تخيل أن ذلك السكونَ الكثيف يتزايد حوله مثل أجمة مكوّنة من نتف ضجيج دقيقة، من أصداء صغيرة جداً. فكر في أنه طفل يتأمّل كيف كان الانعكاس الشاحب لوجه الخالة مارثلينا يختفي بفعل الظل، وكيف كانت الظلمة تلف المكان الذي يحتله جسدها. وفكر في الوقت نفسه في أنه راشد، يهيم على وجهه ضائعاً في الغابة، ويصل إلى معبد سري لإلهٍ ضبّ. الأحداث المفاجئة كلها: اللقاء الصغير تحت الشمس، والقصة المهموسة ليلاً، اختلطا في حدث واحد. وبينما كان يتخيل أنه هو نفسه من يؤدي دور البطولة، غلبه النعاس ونام أول مرة منذ زمن طويل.

❖ ❖ ❖

Twitter: @alqareah

في تلك الليلة، تمكن من النوم أخيراً. ورأى حلماً زخماً، بالغ الدقة في عناصر تصاعده ـ نهاية رحلة، ولقاء غريب ـ بدا له فصلاً جديداً من مغامرة أوسع بكثير، يحدس تتمتها المؤكدة، وإن كان غير قادر على تذكّرها. وعندما استيقظ، أبقته احتمالية الأوهام الحلمية قلقاً لوقت طويل، وكانت الصور القوية ومتعددة الألوان لا تزال مطبوعة في ذاكرته.

ولكن الأرق الطويل انتهى أخيراً كما يبدو. ففي الليلة التالية، عاوده النوم بالقوة نفسها، وعاودته كذلك رؤيا أنه جزء من مغامرة فريدة، بلا نهاية، تبرز مجدداً عند تداخل النهار واليقظة، ممتلئة بذبذبة أصوات مؤكدة، وبتضوع روائح حيّ، وبريق أضواء. وامحى الآن تماماً استذكار الخالة مارثلينا، لكن جانباً من قصتها تلك تحول إلى الحدث في الحلم. وهكذا، في هذا اليوم أيضاً، وفي الأيام التالية، بعد إطفاء النور، كان يستحضر دون رغبة منه تلك اللحظة التي وجد فيها، وهو طفل، عظاءة إيغوانا صغيرة، وعندئذ يغفو على الفور. وإلى جانب رحلة الطفل القصيرة ولقيته المتواضعة ـ درب مقتضب، وحيوان صغير ـ كان يحلم بتلك الرحلة الأخرى التي في الحكاية، متحولاً هو نفسه إلى محارب ضائع يجد معبداً، وفي داخله تمثال حجري لعظاءة في نحت بدائي.

وعلى الرغم من إلحاح حلمه، فإن واقع استعادته النوم بعد أرق بذلك الطول، أعاد إليه طمأنينة حياة تحددت فيها مجدداً بوضوح الحدود بين النوم واليقظة.

وفي أثناء ذلك، جاء زمن الإجازات. وامرأته التي عانت قلقاً شديداً وهي تشهد أرقه الطويل وتزايد حدة طبعه، اقترحت عليه أن يذهبا معاً لزيارة قنوات ساحل الأطلسي.

ـ أنت بحاجة للترويح عن نفسك. إنك تبدو شبه مكتئب.

فكان يسخر منها.

ـ أترغبين في معاناة الحر؟ وأن يلتهمنا ضب؟

وتلح هي. سيظل الطفلان عند أمها. كما أن الرحلة لن تتجاوز الأسبوع. ولم تكن ثمة ذريعة ممكنة.

ـ انظري، لا بد أن يكون ذلك مضجراً جداً. ولا تأملي بأن تجدي شيئاً آخر غير الزنوج والأفاعي. وهناك الوحل، وحل المستنقعات ذاك.

Twitter: @alqareah

ومع ذلك، كانت تجتذبه هو أيضاً تلك المنطقة المدارية التي لم تُتح له قط فرصة معرفتها.

ـ يقال إنه على الرغم من أن المركب يبحر ببطء شديد، إلا أن نسيماً بالغ العذوبة يهب هناك.

ـ ألن يعذبنا البعوض وينغص علينا؟

هناك محاليل خاصة بذلك. وكانت كل حججه ضد الرحلة تفقد سندها فوراً. ولكنه على الرغم من الانجذاب الذي يشعر به، واصل تخيل موانع أخرى: الطفيليات الجلدية، المياه الموبوء بكائنات وحيدة الخلية، القروح المشهورة. فإلى جانب اهتمامه بالتعرف على تلك المنطقة، كان يراوده هاجس مسبق غامض بسوء الطالع.

ـ الجميع عادوا من هناك سالمين. وسعداء جداً.

جميع من قاموا بتلك الرحلة يطرون على بهاء المناظر، وجودة طعام الفنادق، والأسعار غير المبالغ فيها.

وأخيراً حسم أمره. انطلقا في ظهيرة يوم أربعاء، في شاحنة صغيرة شديدة الصخب يقودها رجل بدين يفتقد نصف إحدى أذنيه. وكان يشاطرهما السيارة رجل آخر متين البنية، له لحية ضخمة، يرتدي ثياباً طويلة، يحمل حقيبة ظهر منتفخة وأكورديوناً، ويغطي رأسه بقبعة من القش. وكان سيواصل الرحلة في ما بعد، كما يبدو، وحيداً إلى مكان من الأدغال. كان ذلك الرجل قد عُرف مؤخراً في المدينة بممارسة نوع من التسوّل الراقي، بتقديمه عروضاً أكروباتية متواضعة. وفي الجزء الخلفي من الشاحنة، وُضعت المأكولات وصفائح الوقود من أجل محرك المركب.

كان صباحاً تتداخل فيه شمس وغيوم. وكانوا يهبطون من الوادي المركزي عبر الطريق الضيق والأفعواني، بجوار غابات تكسو السفوح الجبلية، ومزارع بنّ منتشرة في السفوح الظليلة ومشهد تهيمن عليه تدرجات الأخضر: الأخضر الفاتح، واللامع الذي يحدثه انعكاس الضوء على أوراق أشجار البنّ المحززة. تحولت تدرجات الأخضر المتتالية في آخر الأمر إلى زرقة تتزايد قتامتها، وتأخذ بالتفرق حتى الخضرة البعيدة، باتجاه أفق سلسلة الجبال، حيث تطل الغيوم الرمادية. وعلى جانبي الطريق تتراكم آجام شجيرات أزهار بنفسجية، زهرية، صفراء. والمدى البعيد الرمادي الضارب إلى الزرقة

Twitter: @alqareah

يتناقض وتعاقب الأراضي السوداء والحمراء. لقد خلفوا وراءهم البيوت الخشبية الصغيرة شاحبة الألوان: خضراء، وردية، ضاربة إلى الصفرة، بسقوف من التوتياء الصدئ. وخلفوا وراءهم فلاحين يجزون الأعشاب الضارة، ممسكين منجل المتشيتي بيد والعصا باليد الأخرى. وكانت تتوالى معاصر قصب السكر، حيث ينتصب القصب سامقاً، أو مكوماً على الأرض ويابساً. وظهرت بعد ذلك أشجار النخيل الكبيرة ذات الأوراق القاتمة واللامعة، مع قنازع ضاربة إلى الحمرة تنبئ بفسائل جديدة.

ولكن، على الرغم من أن الوديان أخذت بالاتساع، بدا أن المسافات أنهت امتدادها، وصار بالإمكان رؤية القطار يمضي في اتجاه طريقهم نفسه، ويتقاطع معه في بعض المنعطفات الطريق، وهو ممتلئ حتى سطح عرباته بجموع من الركاب. غير إنه كان يفكر أحياناً في أنه لا يقوم برحلة، وأنه لا يتحرك وسط المشهد المتبدّل، وأنه لا يهبط من الهضبة، وإنما لا يزال هادئاً، مستقراً في مكان بلا أبعاد لا زمان، وأن تلك الحركة لا علاقة لها به: إنها حقيقية بالنسبة للآخرين، أما بالنسبة إليه فهي مجرّد وهم ينعكس حوله مثل حيلة متقنة لمجسم كوخ كبير في مهرجان.

ومع غروب الشمس، صار الساحل أمامهم. تلك المدينة الصغيرة المشهورة التي قال عنها أحد الشعراء إنها طائر كيتزال نائم، ستقدم لهما إمكانية الاستراحة الأخيرة المريحة قبل رحلتهما المائية الطويلة. نزلا في فندق تعبق غرفه برائحة خشب رطب، وتنفتح على شرفات طويلة تطل على الشارع الرئيسي. تحدث السائق بحماسة مع ربان المركب الذي سيقلّهما عبر القنوات بدءاً من صباح اليوم التالي. وكان الربان إسبانياً كما يبدو، ولا يزال شاباً جاد المظهر.

كان سواد الليل قد اندلق على الأشياء، وراح غبش خفيف يطمس وميض النجوم. ومن البحر القريب الصاخب في العتمة، يصل نسيمٌ ساخن ورطب. كانت الشوارع خالية، غير أن نشاط المارة القليلين يوحي بأن الليلة ليلة عيد. فالنساء يرتدين ملابس ملونة، ويتجهن مع أزواجهن إلى أبواب معينة، لا إشارات تدل عليها في الخارج، إلا أنها تُصدر إلى الشارع جلبة حشود وإيقاعات ألحان.

المكان نفسه الذي تناولا فيه العشاء كان يضم، في الجانب الآخر من حاجز ذي فتحات كبيرة لها شكل المعينات، قاعةً تعزف فيها أوركسترا

Twitter: @alqareah

صغيرة، قبالة حلبة رقص بيضوية، موسيقى نشطة الإيقاع، يبرز فيها قرع عدة آلات نقر يزداد صخبها أكثر فأكثر. وسرعان ما راحت الحلبة الخالية أمام الموسيقيين تمتلئ بالراقصين. ولم تكد تمضي ثلاثون دقيقة حتى صارا غير قادرين على رؤية الموسيقيين. ففي الصالة المجاورة، في ذلك المكان شبه المظلم الذي جعله جو قاعة الطعام يتلألأ، بالرغم من أنه لم يكن مضاء إلا بمصابيح ضعيفة ملونة معلقة بالسقف على ارتفاع عالٍ، كانت كتلة أجساد بشرية مطموسة المعالم ترقص بصورة مجنونة، متابعة بدقة إيقاع اللحن الرجراج.

كان ذلك الرقص، وتلك الموسيقى أيضاً، مفتاح واقع يبدو منفصلاً وغريباً بالكامل، دون أن تكون هناك إمكانية للجمع بين الصخب والإحساس بالثبات والبعد الذي كثيراً ما يقلقه. خرجا للرقص، وظلا في الحلبة وقتاً طويلاً، مختلطَيْن بالحشد. وكانت زوجته سعيدة جداً.

ـ منذ متى لم نكن مثلما نحن الآن؟

ـ ولكننا رقصنا معاً منذ خمسة عشر يوماً ـ أجاب ـ في بيت آميليتا.

ـ ليس هذا ما أعنيه. لكننا لم نكن هكذا، أنت وأنا وحدنا، مثلما كنّا أيام الخطوبة. أتتذكّر؟

واستذكرت تلك الأزمنة عدة مرّات، فساءه ذلك الإلحاح على تذكر زمن ضائع. ذلك الإحساس بالغربة والغياب الذي شعر به على امتداد الرحلة تحول الآن إلى أسى خالص، فكان يسمع امرأته كأنها تحدثه عن زمن سعيد لم يكن هو موجوداً فيه، وكأنه لم يعش معها كذلك في أزمنة أخرى أقل سعادة. لم يكن ذلك فقدان ذاكرة، وإنما الوعي بحيز كبير من الفراغ يقوم خلفه كما لو أنه لم يكن آنذاك كائناً من لحم وعظم وإنما فرقعة مقتضبة لمخيّلة غريبة. وفكر: «ربما أكون قد متّ منذ زمن بعيد». وربما لم يكن جسده ذلك الجسد الذي يتحرك من جانب إلى آخر متابعاً إيقاعات اللحن.

وأخيراً، حوّل الحر والدخان ذلك الحيز إلى مكان خانق. فأمسك ذراع زوجته وتوجها إلى الشارع بينما كانت أعداد أكبر من الناس، جلهم من الملونين، ينتظرون دورهم للدخول، وكانت فتاة شبّاك التذاكر، وقد نفدت البطاقات لديها، توثق دفع رسم الدخول بطبع خاتم محبّر بعناية على قفا يد كل زبون. كانت تطفو في الجو رائحة تبغ وعرق وكحول كأنها رائحة بخور معبد.

Twitter: @alqareah

كانت أصداء الموسيقى تقطر في الليل. ليل شديد الظلمة الآن بفعل دثار غيوم كثيف يحجب النجوم، يعبق برائحة ثمار متعفنة وبول، حمل إليه مع ذلك ذكريات زخمة، وجعله يتعرّف بطريقة مباشرة على ليالٍ صيفية أخرى تصطف في ذاكرته وتهزم بصلابة أفكار الخواء وعدم الوجود والموت السابقة. «إنني حي»، فكر. وكان ورنيش غير ملموس يساوي الأشياء كلها، وترد إلى ذهنه الآن تلك الأعياد الشعبية الأخرى، مع ما فيها من موسيقى ورقص وشراب، وتندمج في حفلة اليوم بتناظر تام. وهكذا، بينما هو واقف في وسط الشارع المقفر، وزوجته تنظر إليه دون تعليق، مستمعاً إلى صدى قرع الطبول السريع ودوي الأبواق، في ضوء مصابيح قليلة تلطخ بضوئها الشاحب واجهات البيوت المتطاولة، تأملَ الظلمة الآخذة بالاشتداد في الأعالي كأنه يتأمل اللحظة نفسها من ليلة بعيدة. لقد عذّب نفسه وهو يفكر في عدم تماسكه، خائفاً ألا تدركه حركة الحياة، وبدا له الآن أنه كان مخطئاً: إنه وحده الواقعي، وكل ما يحيط به وهم، كل ما له مظهر ظرفي مؤقّت، مثلما هو الليل الآن، والموسيقى، والماء.

ـ ألست على ما يرام؟

ـ الحر شديد.

بحثه اليائس عن الذكريات، وحتى عن الصور قريبة العهد للرقص الجنوني، والأطعمة والروائح، سيكون على هذه الحال مجرد خديعة يتورط فيها تفكيره نفسه ليسلو بها وحدته. وعادت صورة الحلم الأولى تلك إلى فكره مجدداً. كان ينزل راكضاً، وجد الإيغوانا، توقف. تبادل هو والإيغوانا النظرات. ولم يكن هناك أحد سواهما في الضياء غير المتناهي. كانا متوقفين، مثلما يقف تحت الليل الآن، في هذه المدينة المجهولة، حيث يخفق مع ذلك تحت الظلمة الضبابية ارتجاج قديم. يمكن لهذا المكان إذاً أن يكون المكان الوحيد: مكان محاط بفقاعة ظلام، يخترق الكون.

كان يخرج من البوّابات الإيقاع المجنون نفسه الذي تضبطه دقات الطبل المدوية، إنما كانت تُسمع أيضاً همهمة صوت معزول يترنم بأغنيات كئيبة، تساعده في ذلك أنغام جيتار. وعلى النواصي، مومسات متوحدات لهن وجوه سوداء جميلة يرافقن بتمايل أجسادهن، وبحركة أقل من أقدامهن، تلك الألحان المتعددة الكئيبة التي تأتي من كلّ الأركان.

Twitter: @alqareah

مشيا ببطء حتى وصلا إلى نهاية الجادة. وفي ما وراء مجموعة وافرة من جذوع الشجر الشبيهة بقوائم عالية جداً لحيوانات غامضة تتزاحم أجسادها هناك في الأعلى، كان البحر يتحطّم لاهثاً على الرصيف. وفي سواد المياه، على الرغم من صخب حركتها التي لا تكل، كان هناك أيضاً بريق وحدة وفراغ شبيه بالبريق الذي يشع به سواد السماء الضبابي.

وفي الجهة المقابلة للبحر، في الظلمة التي تحجبها كتل البيوت الرمادية، تمتد الغابة حيث تختفي المعابد البدائية. وقد أدرك أن كل التضوعات متشابهة، وكأنها بدل أن تنبثق خارجه، تمضي في التشكل داخل ذاته تحديداً. وهكذا فإن هذا العالم، الآن وآنذاك، وصور الحلم، وهذه المدينة، والحر الذي يلف جسده مثل لعاب خفيف دافئ، هو شيء يبدو أنه يحدث الآن، وكان آخذا بالحدوث، مع ذلك، في داخله منذ بدايات حياته البعيدة.

ـ أريد التكلم بجد ـ قالت ـ أراك مريضاً منذ زمن. إنك لا تبدو الشخص نفسه.

نظر إليها مرتبكاً. كانت قد تشبثت بذراعيه والتصقت به في تقرب عاطفي.

ـ يخيفني أن تكون مريضاً.

ـ مريض؟ إنني بخير، بأحسن حال.

ـ علينا الذهاب إلى الدكتور. لا بد من إجراء فحص لك.

أحس فجأة بتكدر غريب، وكان تكدره يختلط بطعم مرارة، كما لو أن ذاكرته وإدراكه ـ وقد تحولا إلى شيء صلب، إلى المأكولات نفسها التي تناولها في قاعة الطعام الصاخبة تلك ـ لا يمكن لهما أن يُهضما في جسمه، وأن هذا الجسم يجاهد لتقيئهما خارجاً. ابتعد بضع خطوات وتقيّأ منحنياً باتجاه الجدار: تبعثرت ذاكرته وإدراكه على الأرض، وكانا لا يزالان يلتويان بين بقايا سوداء بيضاء من الرز والفاصولياء. أحس بعد ذلك أنه أحسن حالاً بكثير، وأنه جاهل تماماً كمن ولد للتو.

ـ لم يصبني شيء، يا آليثيا ـ هتف ـ إنه أرق الأيام الطويلة اللعين. لكنه انقضى الآن وانتهى.

❖ ❖ ❖

Twitter: @alqareah

كان اليوم التالي يشير إلى أنه سيكون مشرقاً أيضاً. وكانت نقطة الانطلاق هي مرسى صغير محاط بحشد مزدحم من بيوت صغيرة متسخة، كانت مطلية دون شك بألوان صارخة ومتعددة، لكنها توحّدت في لون رمادي شاحب يكاد لا يحتفظ بشيء من اللون الأصلي. وعلى الرغم من تلك الساعة المبكرة، كان هناك عدد كبير من الصبية العراة يلعبون ويتصايحون في مياه المرسى، وعلى مقربة منهم كانت طيور بجع من ذوات المنقار الضخم الأكرش تخفق بأجنحتها. وعلى الرصيف، كان رجال سود منهمكين في تكديس أقراط موز على أحزمة ناقلة بطيئة تنقلها إلى سطح مركب صدئ. وكان مظهر كل شيء ينضح بإعياء مضجر، والحر اللزج الذي أحاط بهما منذ وصولهما إلى شاطئ البحر، تحول إلى جلد لزج ملتصق بثبات بجلدهم الحقيقي.

كانت الرائحة كريهة، لكنه استنشقها بتلذذ غريب. فقد فاجأه أن يتداخل كل شيء مندغماً بتلك الدقة في تجاويف روحه السرية: الضوء المتلألئ الذي يضيء واجهات المساكن المتآكلة، والأفنية بما فيها من شِباك وأدوات وحوائج، والمارة ذوي الملابس البائسة والملامح القاتمة. وعاد إلى الإحساس بأنه، بفعل اجتماع الضوء والحر وكثافة المكان، يدخل ذلك العالم بأمل قوي في التوصل إلى كشف ما.

وبينما هم يقتربون من المركب الكبير، كان الربان يراقبهم. وفجأة، تقدم بضع خطوات، وأخرج يديه من جيبه، ونظر بالتناوب إلى الرجل الملتحي، وإليه هو نفسه. بدا كمن هو على وشك أن يقول لهما شيئاً، لكنه احتفظ بالصمت. وكانت رصانة مفاجئة قد تجمدت في نظرته.

ـ أتبحث عن شيء؟ ـ سأله.

نفى الربّان بحركة من رأسه. والتفت بعد ذلك ببطء نحو المركب، وساعده في وضع الحزم تحت المقاعد. وكانت ثمة لحظة تقارب فيها وجهيهما كثيراً، فكلمه الربان.

ـ المعذرة ـ قال ـ لقد خلطت للحظة بينكما وبين شخصين آخرين. وخاصة الراكب الآخر.

لم يجبه هو. كان يبتسم ببلاهة، كما لو أنه يسمع تفسيراً لأمر معروف ومفروغ منه.

ـ بدا لي أن صورتك مألوفة لي.

Twitter: @alqareah

ساعد زوجته على اجتياز المسافة القصيرة التي تفصل سطح المركب عن الرصيف. كان الراكب الملتحي قد شغل مقعد الميمنة، فاحتلا هما مكاناً مناظراً على المقعد المقابل. وضع رجلُ اللحية والشعر الطويل الأكورديون بحرص بين أمتعته. وقدم له الربان سيجارة رفضها الآخر بإيماءة.

ـ ألم نلتقِ من قبل؟ـ سأله الربان.

أدار الرجل الملتحي وجهه. كان يضع نظارة كبيرة، قاتمة جداً، وذات عدستين مستديرتين. نفى برأسه وأصدر بعد ذلك صوتاً خشناً، بدا أنه تأكيد للنفي. هزّ الربان كتفيه. أنهى السيجارة وذهب بعد ذلك ليلفّ الحبال بحرص.

ـ أنتم تعلمون أنها رحلة طويلة ـ قال ـ سنتوقف للغداء عند الظهر، في إحدى القرى. في السابق كان يجري تناول الطعام على متن المركب، لكن الزبائن يفضلون تحريك أرجلهم قليلاً كما يبدو.

كان قد شغّل المحرك الصاخب وراح المركب ينفصل ببطء عن الرصيف مخلّفاً وراءه الرجال المنهمكين في العمل والأطفال الصاخبين ومنظر البحر البعيد الذي تتوالى على سطحه الفسيح تشققات بيضاء يحدثها الهواء البحري.

شرع المركب المتأرجح بلطف بالتوغل في مياه القناة القاتمة، حيث تنتشر لطخات طويلة كامدة. وعلى جانبي المجرى البطيء، راحت تتوالى آخر الأكواخ الغارقة في الوحل الضارب إلى السواد، والمحاطة بكلاب هزيلة، ودخان متصاعد. ظهرت بعد ذلك مجموعة أبنية بيضاء، وسط مساحة خضراء فسيحة وبديعة.

ـ إنه فندق غرينغو ـ قال الربان ـ خاص بصيادي السمك.

وأخيراً اختفت المباني، وصارت أشجار الثيبا والنخيل أشد كثافة، والضفاف التي كانت خالية من النباتات من قبل، وتكشف دروب الوصول إلى الماء من الأكواخ والقرى، اكتست الآن بآجام متشابكة من النباتات.

ومع الصباح الوليد، تحت وميض بياض الشمس الأول، كانت الضفاف تمتد مكسوّة بنباتات تزداد تشابكاً. بدت امرأته مفتونة بتأمل المشهد. وبين الأغصان الكثيفة، كانت تختلط النباتات المتسلقة والمعرّشة. وفجأة، تنقطع النباتات الكثيفة لتظهر شواطئ صغيرة ذات رمال قاتمة. وكانت الشمس الساطعة تحتجب بين حين وآخر وراء مساحات طويلة غائمة بينما يوفر تقدّم المركب هبوب نسمات خفيفة. كانت تطفو على الماء كتل نبات ذات أزهار

Twitter: @alqareah

بنفسجية، وكثيراً ما تحلق، قريباً من الضفة، طيور صفراء وزرقاء، أو تغطس التماسيح الصغيرة في الماء، بعد أن تصعد فجأة. كانت امرأته قد أمسكت إحدى يديه، وراحت تضغط عليها لتؤكد على تعليقاتها عن الطيور والأزهار، وعن الفراشات الملوّنة التي تحوم فوق المركب والماء. وكان الرجل الملتحي، وهو يمد ساقيه العريضتين، يتمتم أيضاً ببعض الكلمات. وكثيراً ما كانت تطل من الضفة بقايا جذوع أشجار محطمة وغارقة، تقف عليها، بذهول لا يمكن تحديده، سلاحف ذات دروع قاتمة. ومعلقة بسوقها، تنحني أوراق الموز فوق الماء مثل كوخ كبير. وفي بعض الأحيان، تظهر في فسحات مفاجئة، دساكر صغيرة فيها نساء وأطفال ودجاج.

التقى الزورق بمراكب أخرى مسودّة، مخلعة، محمّلة بحيوانات ورزم ورجال حفاة. دفعه مظهر أولئك الناس إلى التفكير في ذلك الساحل الوبيل، حيث بهاء منظر الطبيعة المبرقش يخفي أخطاراً كثيرة: حشرات وثعابين ذات لسع ولدغ قاتل، وأمراض وبيلة، ويقدم إطاراً يشبه، على الرغم واقعيته الكاملة، بعض الكوابيس المفعمة بالألوان والمعقولية، والقادرة على بلبلة الحالم تحت مظهر حقيقة لا شك فيه.

لكن المنظر الطبيعي لم يتوصل إلى السيطرة التامة على اهتمامه. فكثيراً ما وجد نفسه يصوب عينيه إلى مؤخرة رأس الربان، يرصده بصورة سرية، وهو لا يزال قلقاً من ذلك التعبير الأول عن معرفة غامضة يبدو أن فيها خوفاً. ربما كان القلق مشتركاً، لأن نظرته التقت عدة مرات بنظرة الربان الذي كان يلتفت بين حين وآخر ليراقبهما، يراقبه ويراقب الراكب الملتحي، بطريقة متهربة.

توافقت الظهيرة مع أجواء شمس ساطعة. وكان البحر الذي يُلمح أحياناً في ما وراء الغابة، يتلألأ بانعكاسات ضاربة إلى الخضرة. توقفوا في إحدى قرى الضفة، الهامدة في خمود ساعة الظهيرة تلك. وخلال تناول الطعام، في ظل كوخ منتفخ السقف، بدا له أن الربان حاول التكلم معه عدة مرات، ولكن دون أن يحسم أمره في النهاية. وكان هو من جهته يشعر بقلق غامض، كما لو أن الربان ينوي إبلاغه خبراً كريهاً.

استأنفوا الرحلة من جديد. النسيم الخفيف الذي أحدثته حركة المركب، وظل الخيمة كانا أشبه بمعجزة برودة تحت وطأة الحر اللزج. كانت

Twitter: @alqareah

كتل الغابة الضخمة، على الجانبين، تحدد المنظور الطويل للقناة العريضة اللامعة مثل مرآة. والربان الذي شرب الكثير من الروم أثناء الغداء، واصل سكب جرعات كبيرة في قدح من الصفيح. وقد راح يترنم بصوت هامس. وأخيراً نظر إليه مباشرة وسأله رافعاً الزجاجة في يده.

ـ ألا تريد جرعة؟

ومع أنه فهمه جيداً، فقد تظاهر بالعكس، مبدياً طيبة سائح مطمئن.

ـ أسألُ إن كنت تريد جرعة ـ كرر الربان.

أدرك أن عليه أن يقترب، وكأنما قد أزفت لحظة إنجاز موعد. نهض مبتسماً. فابتسم الآخر أيضاً. لكن، ربما كانت ابتسامته، مثلما هو عرضه، لا يخفيان سوى تمهيد بروتوكولي للقاءٍ غاياتُه أكثر تعقيداً من مجرد دعوة للشرب.

ـ سيكون ساخناً جداً ـ أجابه.

ـ ما زال هناك ثلج في المبرِّدة ـ قال الآخر.

مدّ هو كأسه وسكب فيها الربان جرعة وافرة. كان ينتظر كلمات ذلك الرجل بفضول قدريّ.

ـ لا بد لنا من قتل الوقت ـ قال الربان أخيراً.

وكان ينظر إليه ثانية بإلحاح.

ـ لقد خلطتُ بينك وبين شخص لا أذكر من يكون. ربما كانت إيماءة، لا أدري. الحقيقة أنك لا تشبه أحداً أعرفه. بصحتك.

لم يشأ هو معرفة المزيد من تفاصيل تلك الإشارات الغامضة. شرب محتوى الكأس كله، رشفة بعد رشفة، ببطء، متلذذاً بمذاق الكحول البارد والحارق في الوقت نفسه.

ـ أما زال أمامنا الكثير ؟ـ سأل بعد قليل.

ـ ما زالت أمامنا ست ساعات. إذا سار كل شيء على ما يرام.

كانت امرأته والراكب الآخر جالسين على المقعدين الجانبيين يتأملان الماء. رؤيتهما من المقدمة، ثابتين، ومحيط جسميهما بارز على خلفية الضياء الخارجي، تجعلهما أشبه بتمثالين جامدين، هيئتين متعددتي الألوان موضوعتين هناك لتزيين المركب والرحلة زينة مقنعة، كما لو أن المياه ليست حقيقية، وضجيج المحرك والتأرجح الخفيف هي أمور مصطنعة أيضاً في سياق خدعة

Twitter: @alqareah

وهمية. وهكذا، كانت فكرة أن الحركة، واللون، وذلك الفضاء المضيء، غريبة عنه بالكامل وتحدُث في بُعد وزمن لا يمكن لها أن تؤثر عليه، عادت إليه بالحيوية نفسها التي كانت عليها أثناء سفره في اليوم السابق، في الشاحنة.

كان الربان الإسباني يتعرق. مال برأسه باتجاهه كأنه يريد أن يهمس شيئاً، ولكنه تكلم بعد ذلك بصوت عالٍ.

ـ يمكن للسائح أن يتسامح مع هذا المناخ ويحتمله. أما العمل هنا فقاسٍ جداً.

لا شك أنه في هذه البلاد منذ زمن قصير، فهو يلفظ بلهجة بلده الأصلي ذات الوقع الأجش.

ـ هل أنتم قادمون من الوادي المركزي؟ ـ سأله.

أكد هو ذلك بهز رأسه. كان قد سكب جرعة خمر أخرى، وراح يحرك الكأس كي يبرد الشراب. كان لحديث الربان، خلافاً لتوقعاته، صبغة عادية واضحة. فالربان يضجر ويرغب في أن يشاركه أحد شرابه وحديثه. وهو لم يدعُ الرجل الآخر، لأن الرجل كان يغفو كما تبين له بنظرة سريعة، وكان يسند رأسه إلى أحد أعمدة الظلة.

ـ نحن من هناك.

ـ ذلك المكان شيء آخر. إنه ربيع دائم. أنا لم أُخلق لمثل هذا الحرّ الخانق.

مسح العرق عن وجهه بمنديل مستخدم كثيراً.

ـ وأنا يروقني الهواء البارد، والماء البارد والثلج.

قال ذلك بنبرة خاصة، فتقلبت في ذهنه مجموعة صور جبلية بيضاء مختلطة، ربما رآها في التلفزيون أو السينما، أو في المجلات المصوّرة.

ـ تصوّر، الثلج ـ أجاب، ثم جلس ـ أنا لم أر الثلج على الطبيعة قطّ. وهل تعمل هنا منذ زمن طويل؟

نظر إليه الربان وفي عينيه وميض شك، وعلى الفور وجد نفسه مضطراً إلى مداراة نظرته بعرض جرعة روم أخرى عليه.

ـ جرعة صغيرة فقط ـ قال وهو يلحّ في أن يسكب له. ثم وضع الزجاجة إلى جانبه.

ـ منذ وقت كاف ـ أضاف ـ بل طويل.

Twitter: @alqareah

ـ ودائماً هنا؟

بدا الربان فخوراً جداً.

ـ هذا أول زورق سياحي جاب القنوات بانتظام. إنها فكرتي. في السابق كانت تُقدّم المشروبات فقط. أما الآن فأنا أتولى التجارتين كلتيهما.

أدار رأسه مرة أخرى.

ـ لكن، لا تظن أنني من يقوده. أنا أفعل ذلك هذه الأيام لأنهم أجروا عملية جراحية للشاب. أنا في الواقع مالك المركب.

ـ وهناك؟

نظر إليه عندئذ الرجل بعينين مكدرتين، كما لو أنه بدل أن يصوغ سؤالاً تلفظ بعبارة مشينة. احمرّت قرنية عينيه. فأدرك هو الآن أنه ينبغي لحذره أن يظل متيقظاً. فالمحادثة، بعيداً عن أن تكون تزجية للوقت، تخفي مسوغات أخرى ربما لا تجد سبلاً للتقدم، فتُبقي في روح كل منهما توتراً مستتراً.

ـ هناك؟

ـ المعذرة، لم أشأ إزعاجك.

ـ أنت لا تزعجني. هناك، كنت أعمل مصوّراً صحفياً.

قالها بالنبرة الفريدة نفسها التي حدثه فيها من قبل عن بلده: لم يبدُ عليه أنه يُخبره، وإنما يذكره بشيء واضح، ينبغي لمحدثه أن يعرفه جيداً. لا ريب في أنه أصغر سناً مما يبدو عليه، لكن بدا أن لملامحه استعداداً مسبقاً لشيخوخة مبكرة.

ـ في العاصمة بالذات؟

نظر إليه الربان عندئذ بزخم جحظت له عيناه. وكان في تلك النظرة تعبير الاستغراب نفسه، كما لو أن أسئلته تربكه بسخفها وعدم جدواها. التفت ببصره بعد ذلك إلى الأمام، وترك قدح الصفيح وأمسك مقود الدفة الصغير بكلتا يديه كأنه يثبت نفسه عليه.

ـ ألم تكن تعرف حضرتك؟ ـ تمتم ـ كل ذلك لم يعد له وجود.

ظلا صامتين لوقت طويل. وكان هو يُجهد نفسه للعثور بين ذكرياته على صدى ما لتلك الكلمات، لكن جهوده كلها كانت بلا جدوى.

ـ لقد اختفت تلك المدينة. أنا رأيتها. أنا كنت هناك.

لم يُنجز أي موعد، ولم يتحقق أي لقاء: لا بد أن في ذهن ذلك الرجل شيئاً

Twitter: @alqareah

من الانحراف بسبب عدم اعتياده على المناخ وإكثاره من الروم. ثم فكر بعد ذلك في أنه أحد أولئك المجانين القادرين، على الرغم من نزواتهم المتسلطة، على أن يعيشوا حياة عادية، وأن يسوقوا، وأن يتولوا أمورهم. وأخيراً وضع هو أيضاً كأسه على الرف، ونهض ليبتعد ويعود إلى جانب زوجه. لكن الإسباني نظر إليه مرة أخرى بالعينين المنفتحتين جداً.

ـ لا تذهب ـ قال متوسلاً ـ ألا تريد أن أخبرك بالقصة؟

تردد هو. وعاد يتولد فيه القلق السابق، كما لو أن تهديداً محدداً ينتظره في مضمون ذلك الاعتراف. أمسك الربان بأحد ذراعيه وأجبره على الجلوس مجدداً.

ـ سأروي لك كل شيء ـ قال.

وبدأ بعد ذلك الكلام. أما هو، فقد اتكأ في البدء بخفة، مستعداً لانتهاز أي توقف ليعود إلى مقعده، معتبراً بذلك أن المحادثة قد انتهت. لكن القصة كانت طويلة، وكان الراوي يتكلم دون توقف، مثبتاً عليه عينيه بتقطع لجوج، كما لو أنه يحتاط تحسباً لهربه. تكلم أولاً عن ملك، وعن احتفال بإحياء ذكرى، وعن مفاجأة. وراحت الرواية تتسع بعد ذلك كصوت آلي آخر، حتى بدت ضجة المحرك صدى دقيقاً، وإن يكن مشوهاً وغائماً، لكلماته. بل يمكن التفكير في أن ذلك الصوت هو القصة الحقيقية وكلمات الراوي هي جزء من أصدائها وحسب.

❖ ❖ ❖

هذا الذي أقوله لك حدث في الساعات الأخيرة من يوم خريفي. كان يوماً عادياً، حتى إنني لا أذكر شيئاً ذا مغزى قبل لحظة لقائي بهم. ومع أن اللقاء كان مفاجئاً، إلا أنه ما كان يمكن لأحد أن يفكر في أن المدينة ستختفي بعد أربع ساعات. ولكني سأمضي بالتسلسل. في مساء ذلك اليوم، في حوالي الساعة الثامنة، كانت المسافة الفاصلة بيني وبين الملك حوالي ستة أمتار. كالمسافة من هنا حتى المحرّك تقريباً. كنتُ قد وصلت متأخراً، وأول شيء رأيته هو رأسه البارز وسط الناس. تحرك قليلاً، وأتاحت لي الحركة رؤية الخطيب بوضوح، وهو سيد أصلع له صوت واضح. انتهيتُ من إعداد الكاميرا، وتأهبت لالتقاط بعض الصور باتخاذي موضعاً. قلت لك إنني وصلت متأخراً:

Twitter: @alqareah

كنت لا أزال ألهث من جهد الركض، وكان أحد الزملاء يتذمر بصوت خافت من اقتحامي المكان، بينما كان الملك يتحرك ويتيح لي رؤية الخطيب. وفي تلك اللحظة توقف الخطيب عن الكلام، رفع بصره، تأمل الملك والحضور، وتحرك قليلاً هو أيضاً، نصف خطوة إلى اليمين، كالمسافة التي تفصل بيني وبينك، ما يكفي لرؤية جذع المحتفى به. كان عليّ أن ألتقط له صورتين دون أن أنتبه إلى من يكون. ولكني حين أزحتُ الكاميرا ورفعت بصري، صرت عاجزاً عن التقاط أية صورة أخرى. ظللت متجمداً كما يقال. لأن ذلك الرجل الذي سيسلمه الملك الجائزة لم يكن سوى بيدرو بالاث. الآن سأخبرك، الآن سأقول لك من هو. بما أنني كنت قد حضرت بسرعة كبيرة، وكان عليّ إجراء ريبورتاج آخر قبل انقضاء النهار، فإنني لم أكن أعرف شيئاً، ولا أعرف أي اسم: الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه هو أن الملك سيمنح بعض الجوائز في ذلك اليوم نفسه، وفي تلك الساعة وذلك المكان. وطبعاً، ظللت أنظر إليه بذهول. لأنني لم أستطع، على الرغم من انقضاء سنوات طويلة، نسيان هيئته: ذلك الوجه الشاحب، الشعر الأشهب المقصوص على مستوى الجمجمة تقريباً، الشارب الكبير الأسود مثل ريش غراب، وسواد الحاجبين اللذين كأنهما قوس بارز وعريض، يبرزان فوق الأنف المدبب الذي يمنحه هيئة بومة. لم أنس مظهره على الرغم من السنين التي انقضت مذ رأيته أول مرة، واقفاً أمام بيت تروباخو ذاك، وأمتعته عند قدميه، وكان مطمئناً كما لو كان بيته مدى الحياة. ومذ رأيته آخر مرة، مطروحاً بين الأصص، في ذلك الفناء الآخر، ذات فجر، بمظهر من هو ميت تماماً. وكنت أنظر إليه دون أن أرمش، وكنتُ ما أزال أواصل التحديق في وجهه عندما أنهى الخطيب كلامه، واقترب هو، وقد كان المحتفى به، إلى المستوى الأول ليتسلم العلبة التي قدمها إليه الملك، وتكلم بدوره بالصوت الأجش نفسه، بينما كان الزملاء يلتقطون الصور، وأنا جامد بلا حراك. تراجع هو إلى مكانه السابق، وقرأ الملك ورقة صغيرة، واكتشفتُ أن ذلك لم يكن المفاجأة الوحيدة، فبين الناس الذين يشكلون حلقة بعيدة قليلاً، كان هناك وجه لا يُنسى أيضاً، توّج ظهور بيدرو بالاث غير المعقول: كان هناك، يقطّب جبينه، وبشعر مشعث فوق الجبهة العريضة، مارثان ذاك، وسأخبرك من هو، إنه شخصية بديعة، شخص رأيت صورته الأخيرة وأنا متعلق بأعمدة درابزين سلّم، تصور، مازالت منقوشة أيضاً في ذاكرتي بطريقة رهيبة لا يمكن محوها. وهكذا عاد بحدّة إلى

Twitter: @alqareah

ذاكري زمن ماضٍ، غير منطقي، ككابوس يملؤني خوفاً. أقسم لك إنني رغبت في أن أدير ظهري وأهرب، بينما الملك ينهي مداخلته والناس يصفقون، وبدؤوا بعد ذلك بالتفرق وسط همس واحتكاك ووقع كعوب. وقد رأيت مع ذلك رأس بالاث، للحظة، وسط الحشود، وفي اندفاع قرار غير عقلاني، اتجهت نحوه بدل أن أنسحب. كانت بضعة أجساد تفصل بيننا، وعندما تمكنتُ من الوصول إلى المكان الذي كان فيه قبل لحظات، كان قذاله يبتعد باتجاه الأبواب بين الرؤوس الأخرى. وإلى الوراء قليلاً، رأيت قذال مارثان الذي لا يمكن الخطأ فيه أيضاً، لأن البصلة السيسائية ناتئة جداً، تبرز فوق الرقبة البيضاء، بين الأذنين الصفراوين البارزتين، وكان يبتعد بدوره باهتزاز كبير. حال ازدحام الأجساد دون تقدمي، وكانت معداتي تعلق بالحشود. وكان عليّ أن أتوقف لأفلت حزاماً من أحد الأذرع، وأدركت بوضوح أن أشياء غريبة حقاً تحدث في ذلك اليوم: فأمامي، وبوجه يؤطره شعر قصير وأسود يضفي عليها ملمحاً شرقياً، كانت نونيا تنظر إليّ بجزع. وسوف أشرح لك أيضاً من هي نونيا، ولكنني لم أعرفها لأول وهلة. ووحده يقين العينين السوداوين الناظرتين إليّ، هو الذي ذكّرني بها. وهكذا كنا، وجهاً لوجه، هي تنظر إليّ دون مفاجأة، وذراعها متشابك بحزام آلة تصويري، كأنما لم تفرق بيننا سنون طويلة، وإنما لحظات قصيرة وحسب. أمسكتُ ذراعها بقوة، وراح التيار البشري يتدفق في ما حولنا إلى أن ظللنا وحيدين في القاعة.

ـ أنا مستعجلة جداً ـ قالت ـ جئت بحثاً عن شخص.

كانت جميلة جداً، ومرتبة المظهر كامرأة، بعيدة عن هيئتها الشبابية المشوشة قليلاً.

ـ ولكن، علينا أن نتكلم ـ هتفتُ أنا.

استعادتي لها فجأة، وبتلك الطريقة، كانت تضطرني إلى استبقائها لتسوية سوء تفاهم قديم مضت عليه سنوات. كنت لا أزال أمسك بذراعها، وربما كنت أضغط عليه بمبالغة، لأنها أفلتته بقوة ونظرت إليّ بصرامة.

ـ ماذا أصابك؟

وكان ذلك غريباً أيضاً: تلك اللهجة العادية، مع لمسة توبيخ لها تلقائية العادة المعهودة، كما لو أن كل سنوات الفراق والصمت، لم تكن بالفعل إلا تخيلات من جانبي. رؤية بالاث ومارثان المستحيلة، وسترى سبب قولي هذا،

Twitter: @alqareah

ولقائي بتلك الطريقة معها، أصابني بهزة قوية. وسترى أن الأمر لم يكن أقل من ذلك، عندما أوضح لك كل شيء.

ـ لا بد لي من التكلم معكِ. أحتاج إلى التحدث إليك ـ قلت لها.

ـ لا أستطيع الآن. لا أستطيع حقاً.

ربما كانت تلقائيتها الظاهرة مجرد نتيجة لتعجلها وحسب، إذ كان واضحاً أن هناك ما يستدعيها بعجلة خاصة. كانت القاعة قد خلت تماماً، ومرّ حاجب من أمامنا وهو يحمل كؤوس ماء الخطباء.

ـ سنلتقي في ما بعد، إن شئت ـ أضافت.

ـ تعالي إلى بيتي ـ قلت لها.

ـ أينما تريد. في بيتك إن شئت. لكن عليّ أن أذهب الآن.

كلمتني بثقة وبدأت تبتعد. كتبت عنواني على قطعة مغلف، وحفظت هي الورقة في حقيبتها.

ـ ليس قبل الساعة العاشرة ـ قالت ـ إن استطعت.

توجهت نحو الباب، ماشية فوق منتصف السجادة بالضبط، بخطوات سريعة. وبعد بعض التردد، خرجتُ أنا أيضاً. كان الناس يتفرقون عند الباب المؤدي إلى الشارع، لكنني لم أكن قادراً على تمييز القذالين ولا الوجهين. وللحظة التقت عيناي بعيني نونيا التي كانت تتأمل الجموع بجزع، وكأنها تبحث عن شيء أيضاً. ابتعدتُ مسرعاً، وعندما وصلتُ إلى نهاية الشارع، توقفت أمام إشارة مرور. ولم أنتبه إلا بعد وقت طويل إلى أن الإشارة الضوئية قد بدّلت ألوانها عدة مرات، بينما أنا واقف أمامها، مستغرقاً في مفاجأتي. ولكن مفاجأة أكبر أخرجتني من ذهولي: رأيت امرأة تعبر الشارع، لأنها كانت تمشي بسرعة، كما لو أنها تبحث بجزع عن شيء ما. وعندما صارت قريبة، اكتشفت أنها شبح آخر من أشباحي القديمة. إنها سوسانا. سأوضح لكَ في ما بعد. ودون أن تنتبه إلي، مرّت بجانبي راكضة. كانت سوسانا دون شك. وعلى ضوء أعمدة النور رأيت عينيها الخضراوين المشوبتين بالزرقة. إنها امرأتي الأولى، لا أدري إذا ما كنتَ تفهمني. وأدركتُ أن لقائي مع نونيا قد استنفد كل جهودي، فتركتها تمضي صعوداً في الشارع. فكّرتُ فيهم جميعاً بعد ذلك في بيتي، فكرت في بالاث ومارثان، في نونيا وسوسانا، مباعداً ما بين ساقيّ على الصوفا، دون أن أخلع السترة، وحتى دون أن أنزع الكاميرا والحقيبة عن

Twitter: @alqareah

كتفي، بطني إلى أعلى وكأني سقطتُ من عل، من نقطة غير مرئية، أبعد من السقف الذي وضعه أحد فجأة فوق رأسي. أجل، أنا كنت هناك، بعينين ثابتتين على حركة حساسين تخفق أجنحتها بضعف، مستمعاً إلى وشوشة حوض السمك الذي تتحرك في بهائه الأشكال الصغيرة، والساقان ممدودتان حتى لامست أطراف الأصابع أدراج منضدة المكتب، إلى جانب النافذة، حيث ضوء الخريف آخذ بالانطفاء. كان يُسمع النقر على الآلة الكاتبة في الفناء، خلف النافذة الصغيرة، مع الصرير الحادّ الذي يصبح واضحاً جداً في ساعات المساء، عندما يواصل الطابع عمله دون وهن على مدى ساعات. كان النقر يلي ضرباته الخفيفة على ملامس الحروف، وكنت أفكر، على إيقاع النقر، في نونيا وسوسانا، وفي أعين الاثنتين ومشيتهما، بحنين له أصداء شديدة التماثل بالرغم من أنه مكوّن من أحاسيس وذكريات متناقضة. كيف هي الأشياء. وعدت بعد ذلك لتخيل رأسيهما، تجاعيد الوجهين، التكشيرات، الآذان، الأنفين، وتذكّرت بدقة كاملة، بدقة فوتوغرافية حقيقية، ذلك اليوم البعيد جداً، والذي علمت فيه أول مرة بأخبار بيدرو بالاث. الآن سترى حضرتك ذلك. ولكن اسمح لي أن أبلل لساني. بصحتك.

أكانت زوجته تومئ إليه؟ أدرك أن لا، وأنها قامت فقط بهش حشرة تحوّم حول رأسها. صار الوهج الأبيض ساكناً الآن كأنه برجكتور إنارة، وكان يسطع خارجاً، موسعاً مدى سطح الماء وكتل النبات الكبيرة. وعلى عكس ذلك البريق القوي، كانت ظلال الخيمة قد تحولت إلى حجرة مظلمة تتعاظم فيها الأشكال والألوان، وتخف الظلال. وكان الراكب الملتحي، وقد استغرق تماماً في النوم، يضطجع على المقعد ورأسه محصور بين جانب المركب ودعامته، يمد ساقيه بالكامل، كاشفاً عن نعلي جزمته الكبيرة.

وكان هو ينظر إلى امرأته بحدّة، آملاً أن يلفت نظرها لينقل إليها طلبه بالمساعدة، وأن تتدخّل بطريقة ما لتقطع هذه القصة الطويلة التي لن تنتهي كما يبدو، وأن تدعوه إلى جانبها. لكنها ظلت مستغرقة في تأمل القناة. وكان الربان قد سكب لنفسه قدر إصبع من الليكور وشربه في جرعة واحدة. ربّت بعد ذلك على ركبته وواصل رواية قصته بتفخيم مندفع.

Twitter: @alqareah

IV. رواية الربان

عندما أحاول التفكير في ما حدث قبل ذلك اليوم، يتجمع كل شيء في ذاكرتي مثل ركام مختلط من إيماءات ووجوه وأمكنة ـ دون أحداث ولا أشكال ولا منظور ـ يصعب فيه تحديد التلونات وتمييزها. لستُ أشير إلى يوم الملك، حين عدت للقاء بالاث ومارثان، نونيا وسوسانا، اليوم الذي اختفت فيه مدريد، وإنما إلى يوم آخر سابق جداً. إنه قبل ذلك اليوم الأول الذي أقول لك إن كل شيء يختلط فيه، ويبدو أن الأشياء تخلو من تجانس الأحداث المعيشة حقاً: فقد كانت تتراكم هناك بصورة مفاجئة مجموعة عناصر مشتتة، كما لو كانت سقط متاع تافه، هذه التي تسمى عندكم ترهات، عناصر مبعثرة ومفككة، وليست إحالات من ذاكرتي بالذات. الحقيقة أني كنت آنذاك صبياً تقريباً، أكملت السابعة عشرة من عمري في ذلك الشهر بالذات، كنت صبياً على الرغم من أنني كنت أجد نفسي في تلك الأيام ممتلئاً بعاطفة أحسبها ناضجة. فقد كتبتُ رواية، وقد كتبتها بسيولة وثقة أذهلتاني عندما تبين بجلاء أن كتابتها ستظل أمراً معزولا واستثنائياً في حياتي. لقد أنجزت تلك الرواية دفعة واحدة، وكأنني ممسوس بضرورة مجنونة، ولم أتوقفت إلا عند الانتهاء، بعد أن كتبت قرابة ثلاثمئة صفحة، توقفت عندما انتبهت إلى إمكانية نهايات بديلة، وحتى متناقضة. ومع ذلك، فإن كل ماضيّ السابق على ذلك اليوم، وصياغة تلك الرواية نفسها، قد ضاع في الذاكرة، ولم أعد أتوصل إلا إلى تخيله بصورة مشوشة، بصورة مقتضبة، مثل واحدة من هذه الخلاصات الموجزة التي تسبق كل حدث من الأحداث المتعاقبة في قصة، أو قصة رسوم متسلسلة. هذا يعني، أني إذا ما بذلت الجهد في نظرة استردادية، فإنني لا أرى نفسي بوضوح إلا في الرسم الأول من أحد أحداث قصة الرسوم المتسلسلة، وإن كنت أشتبه بأن أحداثاً أخرى مماثلة قد تطورت سابقاً. في هذه الحادثة من ذاكرتي، والتي تبدأ تحديداً في ذلك اليوم الذي أكلمك عنه، أظهر في مركز الصورة وأنا أمدّ يدي. وأحد الأصدقاء يسلمني عدة أوراق. وفي الخلفية تمتد الرفوف المثقلة بالزجاجات، في بار كاستريّو. أما

Twitter: @alqareah

بروفيل صاحب البار، وهو رجل بدين يدعى تيودوميرو، فيغلق الصورة من الجهة اليسرى، فوق منضدة الكونتوار. سلمني صديقي الأوراق بورع، كمن يقدم وثائق مقدسة.

ـ سترى حين تقرؤها ـ قال.

كانت عدة قصاصات كبيرة من صحيفة مدريدية، محفوظة جيداً. تضم مقالين وسيرة شخصية. كانت السيرة مرفقة برسم توضيحي دقيق جداً بكل تأكيد في أصله، وإن كانت ذبذبات الطباعة قد شوهت خطوطه مثلما تركت لطخات في المساحات البيضاء. ويمثل الرسم رأس رجل ضخم الرقبة، بعينين ثابتتين جداً وشعر كفرشاة. وفوق التوقيع كتب بوضوح: ***إلى بالاث!*** أتذكر ذلك بدقة، وأتذكر تاريخاً قريب العهد. وكان المقالان مطبوعين بصورة مكثفة جداً: يشغلان نصف صفحة تقريباً، على خمسة أعمدة.

ـ ومن هو هذا؟ ـ سألت.

ـ إنه شخص من فاسفار! ـ هتف صديقي بابتهاج.

وهكذا، في ذلك اليوم، وفي تلك اللحظة بالذات التي أرى انطلاقاً منها ـ أكرر ـ أحداث حياتي بوضوح، بعد أن كانت قبلها مجرد ظل ضبابي، علمتُ بوجود بيدور بالاث. إنه أحد أبناء البلد، عمل منذ عدة سنوات سابقة أستاذاً للأدب في الخارج. عوقب في زمن الهياج الطلابي، وكان قد غادر البلد، وعاش في العام 1968 عملية احتلال المدرسة الإسبانية في باريس. وبعد علاقة عارضة كأستاذ مساعد في إحدى الجامعات الأمريكية الشمالية، استقر بصفة دائمة في قسم لغات الرومانس في تلك الجامعة. وكانت قائمة مؤلفاته كبيرة بصورة استثنائية بالقياس إلى عمره. فالصحيفة تقول إنه مؤلف دراسات في مواضيع أدبية متنوعة، ولديه اهتمام خاص بالتوفيق بين الثقافي والشعبي، وبين الأدبين المتوسطيّ والأطلنطي، بين أدب شبه الجزيرة وأدب ما وراء البحار. كما أنه كتب بعض النصوص التخييلية، منها رواية وكتاب قصص تبرزهما الملاحظة بالإطراء عليهما. أخذتُ تلك القصاصات، ومسَّدتها بيدي، وبدأت قراءتها أخيراً: المقال الأول قرأته في بار كاستريّو نفسه وأنا جالس على مقعد. وستعذرني إذا ما أسهبتُ قليلاً. فذلك المقال يتناول الحكاية الشفوية ويسعى إلى استرداد ذلك العالم السردي إلى الأدب، وهو عالم مجهول عموماً لدى من يمارسون نوعاً من الأستاذية الأدبية، وقد لاذ أخيراً، وهو

Twitter: @alqareah

يحتضر، بأجواء المطابخ الريفية المتواضعة، حول النار وعلى المقعد، متطوراً على بريق آخر جمرات آخذة بالانطفاء، في تلك السهرات المسائية التي يجتمع فيها الجيران. ويستذكر بدرو بالاث في المقال هذا الوقت المنتزع من الغروب، مع الشتاء المتربص في الخارج، والمزمجر في الريح العاصفة، وهو شيء لا يمكن تخيله هنا؛ ويستحضر تلك الساعات المكرسة للقص، مشدداً على حيوية وغنى هذه الأشكال السردية التي تبدو، في نظر الاختصاصيين، حصراً على البدائية الساذجة في الأزمنة الماضية. ويشير بالاث إلى بعض نقاط السهرات تلك. فعدت أرى نفسي، لاحظ ذلك، في بيت جديّ من خلال شرخ مفاجئ في ضباب ماضيّ الكثيف ذاك الذي بلا ذاكرة، متكوراً بجانب المقعد، ومستمعاً إلى أخبار الوقائع، كما لو أنها تشكل التاريخ الحقيقي للعالم، حيث الأحداث أكثر تحديداً. فيها أمور عن الحروب، وحكايات عن الذئاب، وقصص حسد، وثروات، وكنوز، وغراميات تعيسة، وحوادث وكوارث. ورحت أدرك فجأة الجوهر الحقيقي لتلك القصص التي كانت تسحرني وأنا طفل، والتي لم تكن، كما يبدو، مجرد عادة ريفية وحسب، ففيها حفاظ على الجوهر الذي كسا في النهاية، كما هو معروف، تقنية الكتب، وشكّل منشأ الأدب.

ـ أرأيت؟ أرأيت؟ ـ كان يقول صديقي.

وهكذا انطلقت إلى البيت حاملاً تلك القصاصات كأنها زاد رحلة. وبعد العشاء، واصلتُ قراءتها في الفراش. كان المقال الآخر تأملاً حول التداخل المتبادل بين الأدب والحياة. ويشير بيدرو بالاث إلى أن حياته الحقيقية كلها كانت ملحقة بحيواتٍ قرأها، ويصف كيف أن العوالم التي عرفها في التخييل القصصي تتداخل مع مشاهد عالمه، وروائحه، وظلاله، ومع عالم حياته الواقعي، العالم الذي من لحم وعظم. وهكذا فإن ذاكرته، المتحولة في نهاية الأمر إلى حياته نفسها، مكوَّنة من مزيج حميم من المعيش والمقروء، ويرى أنه صار عاجزاً عن الفصل بينهما ووضع ما هو واقعي في جانب وما هو تخيلي في الجانب الآخر. أتذكر بصفاءٍ كامل مقطعاً يعرض فيه فكرته ـ بغض النظر عن شيء من الكره للنساء ـ بفعالية عالية. يقول إن الحياة لم تُتح له التعرف على نساء لهن من الجمال أو العذوبة، من المكر أو السذاجة، من الشيطنة أو السمو، أكثر مما لدى بطلات الكثير من التخيلات الأدبية. وأنا القارئ الورع ودون تمييز منذ طفولتي، أحسست بنفسي منعكساً في تلك التقديرات بصورة

Twitter: @alqareah

مباشرة، كما لو أن الكاتب كان يفكر فيَّ وهو يكتبها. لأنني عرفت من خلال الروايات عصف الريح بالأشرعة، وقلب الأدغال المتشابكة والرطبة، والتيارات المخادعة في الأنهار العملاقة، بالطريقة نفسها التي عرفت بها روائح جزر الجنوب، عندما تشرق الشمس وتمتلئ القبة النباتية بغناء الطيور. كانت كل المناظر محفورة في ذهني بدقة بصرية. وعندما رحت أكبر، تعرفت من خلال التخييل الأدبي على أشكال الغروب في عواصم العالم الكبرى، وعشت قسوة السجون السيبيرية أو عاطفة الفاتحين المتأججة. بل إنني تعرفت على ديكورات كريهة تصلح لأن تكون خلفية قصص كوابيس تفوق في دقتها أي حلم، وتحولات مسوخ قريبة من المعقول كانت قراءتها أشبه بأن تعيشها حقاً. لكنني قد أكون استفضت كثيراً في عرض مضمون المقالين. المسألة هي أنني، بعد الإضاءة الأولى، أعدت قراءة المقالين بحماس متزايد وأحسست بالتحرر من الغموض الذي يختلط دوماً بما يستهويني. سأحاول الشرح: أدركت أني كنت يتيماً، ولم أعد كذلك في الوقت نفسه. أقول إنني لم أعد يتيماً أدبياً، عندما اكتشفت، بالرغم من البعاد الواضح، معاصراً بارزاً من أبناء بلدي، حساسيته تجاه جانب كبير من الأمور والبشر والأحداث تتغذى من مصادر يمكن التعرف عليها مباشرة. لهذا، كان لا بد لبيدرو بالاث من أن يصير معلمي منذ تلك اللحظة. وستصل بعد ذلك إلى يديّ، إلى أيدينا، مقالات جديدة، يبدو أن بالاث كان يواظب منذ عدة شهور على الكتابة في الصفحات الأدبية بتلك الجريدة، وكانت النصوص الجديدة تعزز، بل تزيد من تقديري الأولي له: لم تكن تلك الحساسية الأخوية تقتصر على الجانب الكتبي وحده، بل تستند إلى معرفة واسعة ودقيقة بالأرض والبشر والعواطف. وأؤكد لك أنني كنت أشعر بأني أسيرُ ورعٍ مهتزٍ متحمس. وبالطريقة نفسها التي حدثت بها الأمور قبل ذلك اليوم في بار كاستريّو، كان يحتشد في الذاكرة مزيج مختلط من وجوه وأضواء وأشياء، ومنذ ذلك الحين أتذكر كل شيء بدقة يمكن أن تبدو مبالغاً فيها، وكأني لم أعشه بنفسي وإنما هو مؤول من نص كتب إيماءة فإيماءة وكلمة فكلمة، بصورة غير قابلة للتبديل أو الزوال. وأحد الأشياء التي أتذكرها بهذه الدقة هي الرواية تحديداً، وأعني رواية بالاث. لقد حصلنا عليها أخيراً. وأظن أن ذلك حدث في الخريف. هناك توجد فصول، مناخات مختلفة على امتداد السنة. وفي الخريف، تأخذ الأشجار بفقدان لونها الأخضر، فتصير

Twitter: @alqareah

بعض الأوراق صفراء كأنها من الذهب، ويصير بعضها الآخر ضارباً إلى الحمرة كالنحاس. كانت بعض الأمطار قد بدأت بالهطول، واخضرت المروج في الجبل ولمعت الألوان كلها كأنها طليت حديثاً. بعد ذلك، تبدأ الأوراق التي يبست بالسقوط، وتصبح الأغصان عارية، هاجعة، تنتظر الانبعاث الربيعي. أتذكر تماماً صورة الغلاف البارزة على خلفية الأوراق الجافة المبعثرة على الأرض، ونحن جلوس على مقعد، ربما في «بابالاغيتدا» بينما نحن ندخن سيجارة. هكذا كان الغلاف: شبح أسود لشخص عابر مطأطئ الرأس على خلفية أفق غير محدد، تحت ضوء القمر. بدأت أنا قراءتها في ذلك اليوم بالذات، وواصلت القراءة في السرير أيضاً، بافتتان متزايد. كانت ليلة هادئة، مع أنها باردة جداً. ولكنه برد حقيقي، يشبه هذا الذي تُحدثه المكيفات هنا. كانت الرواية غريبة جداً؛ سأقصها عليك لأني أظن أنها ستنال اهتمامك. فهي تصف وصفاً بالغ التفصيل ثلاثة أيام من حياة رجل كان قد هاجر إلى هذه القارة منذ زمن بعيد، ولم يحصل بعد على المال اللازم لعودته إلى أرض موطنه الأصلي وتحقيق مشاريعه القديمة في الرفاهية والتحسُّن. كان قد هاجر وهو فتي، وسعى جاهداً للحصول على الثروة التي تتيح له العودة كإنديانو، مثلما كان يرجع الكثيرون، بساعة ذهبية وحلية ماسية، وسيارة فارهة ومحفظة مترعة بالنقود، أو أن يأتي معه بأمه التي قد يكون ترمّلَ مبكر قد اضطرها إلى عيش حياة عمل وفقر. ومع ذلك، فقد جافت الأمورُ الرجلَ منذ اللحظة الأولى. وفي هذه الفترة من حياته، كان يعيش حياة بؤس كمشرف على بار يملكه ألماني. وفي كل يوم، حين يُفقده السكر وعيه، يضطر صاحب البار إلى اقتياده حتى الفراش، في حجرة خلفية، بعد أن يُبعده بمشقة عن صندوق النقود، إذ كان يحتضنه بقوة ردّ فعل محض عندما ينومه التسمم الكحولي. كان قد كفّ منذ سنوات عن الكتابة إلى بيته، كما أن سنوات طويلة قد انقضت دون أن يتلقى أخباراً من هناك. لقد قرر ألا يكون ذكرى دائمة لهم، وألا يظلوا هم ضمن ذكرياته. وهكذا انتهى به الأمر إلى عدم معرفة ما كان يحدث في الجانب الآخر من المحيط. لم يكن يعلم إذا ما كانت أمه لا تزال على قيد الحياة، أو إذا كانت قد توفيت. وقد أجبر نفسه على التفكير، حتى اعتاد، في أن ذلك كله غير موجود ولم يوجد قط، وأنه مجرد حلم ظل عالقاً في ذاكرته، متكرراً على شكل ذكرى حقيقية. وفي المدينة، بالقرب من الكوخ الذي يعيش فيه،

Twitter: @alqareah

كانت هناك رابية، وكان شكل انحدار أحد سفوحها للوصول إلى درب يمضي أسفلها، قبالة دغل كثيف، وارتسامها على الأفق بطريقة خاصة، يذكره بالضبط ببقعة محددة من قريته. يذكره بها لأنه نقل مادي، واقعي، لا لبس فيه، لمنظر عند مخرج القرية، في مواجهة الطريق العام، يستبق، عند تجاوز منعطف الدرب المحاذي لسفح الرابية، رؤية بيت أمه المتوحد والمعزول قبل بلوغ الجسر القديم. وكثيراً ما كان يقترب من ذلك المكان، وقد سيطر عليه هاجس أنه ما إن يجتاز المنعطف حتى يرى البيت العائلي. ولكنه لم يكن يتجرأ على الوصول إلى النهاية. كان يتراجع في كل مرة، ويتابع طريقه مقتنعاً بأن تلك الرابية لا تخفي وراءها منظر طفولته وصباه، وإنما هي تصب في مكان آخر يتلاشى فيه، فجأة، كل شبه بمكان الذكرى، وأن حقل ذرة، أو «ميلبا» كما يسمون حقل الذرة هنا، هو ما يحتل مكان البيت والجسر والنهر. لقد تقبل ذلك الإنكار مئات، بل آلاف المرات، حتى أدرك أن المنظر الوحيد هو هذا المنظر الذي يجوبه، منظر الرابية وبقع النبات وأكوام التراب القاتم، وهو منظر يتكرر تماماً دون ريب في الجانب الآخر من الرابية، متصلاً مع حقل الذرة الذي يهبط السفح. وأن البيت قرب الجسر لم يوجد قط إلا في حلم تميز بزخم خاص، لكنه يخلو من أي احتمال حقيقي. في بعض الأحيان، وهي قليلة جداً، يأتي مسافرون من هناك، فيشعر هو بضيق شديد، بارتباك لا يمكن تجنبه. ارتباك يؤلمه. ولكنه يدرك بعد ذلك أن ذلك البلد الأصلي ليس إلا مجرد حلم آخر، ومرجعية غير واقعية وبلا أي دليل. وفي النهاية، كان الجميع يذهبون، ويظل هو من جديد مع الواقع الوحيد، واقع حياته في عالم مفرط، حار، معتل؛ حياة مغمورة حُكم عليه أن يعيشها إلى الأبد. إلى أن جاء يوم، لدى خروجه من البيت عند الفجر، امتلكت فيه صورة الرابية قوة استذكار انهزم أمامها تردده باتخاذ القرار، فصعد السفح ليرى الجانب الآخر. وتصل الرواية عندئذ إلى أبعاد غير متوقعة: فالذكريات، والشكوك، والحقائق اليقينية، تختلط كلها فجأة لتشكل هيكلاً مختلفاً، ويشتبك الحدث بصورة دائرية. لا أدري كيف أشرح لك الأمر: هنا بالتحديد تظهر براعة الراوي، في هذه النهاية التي تختم الحبكة، وتترك مع ذلك الاحتمال مفتوحاً لأن يكون للأمرين كليهما، الحلم واليقظة، القوام نفسه، ويحتلان المجال نفسه بوئام. وفي غموضها، كانت النهاية مركّبة بطريقة بدا لي معها، وأنا أسمع دقات الساعة الخامسة في غرفة

Twitter: @alqareah

الطعام، أنني فهمت أن هناك في حل الحبكة رسالة مخصصة لي بطريقة ما، يمكن لها أن تساعدني في حل النهاية الخاصة لروايتي تلك، الرواية التي سأقصها عليك في ما بعد إذا لم يضجرك ذلك، لأن أمامنا في الحقيقة متسعاً من الوقت، فأنا في هذا العمل منذ ما يزيد على ثلاث سنوات، ويمكن لك أن تتصور مدى معرفتي بالقنوات، وكيف ينقضي الوقت فيها. وهكذا أطفأتُ الضوء وتدثرت بين ملاءات الفراش، متنبهاً إلى أن اهتمامي بكتاب بالاث جعلني أفقد الإحساس بالبرد ومرور الساعات على السواء. لقد كانت تلك القراءة المتحمسة ذروة إحساسي بالاستقرار والثبات. لأن ذلك اليتم الذي حدثتك عنه، اليتم الأدبي - وإن كنت أنا أيضاً يتيماً تقريباً، تولت أمر رعايتي عمة لي لأني فقدت أمي عند ولادتي وكان أبي مقعداً - كان لذلك اليتم الأدبي سببه تحديداً في الإحساس بالانتماء إلى مكان أبكم، بلا صوت. ما أريد قوله هو أن كل من يمارسون دور المعلمين في عالم الأدب، تتحدر أصولهم من أطر بعيدة عن عالمي المألوف والقريب. كنا نعرف من الكتب، ومن تعليقات الأساتذة، أنه هناك في مسامرات بعيدة وأسطورية، وفي أماكن مهيبة الأصداء، كان كتاب العصر يحتلون مكانتهم دون تردد، كما لو أنه لا توجد إمكانية لمغامرة أدبية أخرى مختلفة عن مغامرتهم المرسومة بالرعب مما هو محليّ والتوجه إلى كوسموبوليتية حاسمة، وإن كانوا يغلفون أنفسهم في أحيان كثيرة، كما في براقع سحرية، بالإشارة إلى أصولهم، ليُظهروا بذلك، وسط الممارسة المعهودة لكل ذلك السمو، نقاءً أصيلاً، جذرياً، يمنحهم، مثل هدية حوريات طيبات، فضيلة مكتسبة بالولادة. إنهم يتحدرون من كل الأنحاء ويتقاسمون المواهب بتوازن مميز. وهكذا كان الشماليون هم المؤتمنين على الحس الجمالي، مثلما هم كتاب أقصى الشمال الشرقي حفظة الخيال الفوار؛ ويتباهى الشماليون بفن المفارقة، مثلما يتباهى الجنوبيون بالغنائية، العذبة منها والقاسية؛ وفي الشرق ولد سحرة الأجواء بارعة التلونات. وكأنهم دكاكين أدوات خياطة صغيرة متخصصة، لكل منهم، بالتوافق مع بلدة، الحق الحصري بنوع محدد من الدبابيس، بهذا النوع أو ذاك من الأزرار والشرائط الملونة. أما نحن مع ذلك، فلا ننتمي إلى أي من تلك الأمكنة، ومئة وخمسة أسماء من مدينتنا وقرانا لا تظهر أبداً في كتاباتهم. وإذا ما أقدموا على ذكرها، فإنما يفعلون ذلك بذريعة أنهم يعنون منطقة متخيلة. ومن أجل العثور على علم بارز من مواطنينا في دنيا الأدب،

Twitter: @alqareah

كان علينا الرجوع بعيداً إلى أسماء منسية، يعلوها الغبار، ليس لأي منها اعتبار خاص. لهذا أقول لك إن إحساسي بتوصلي إلى حياة مختلفة منذ ذلك اليوم الذي قُدمت إليّ فيه مقالات بالاث، حياة حقيقية وواضحة، غير مكونة من فتات الذاكرة فقط، بل أضيف إليها هذه الحياة الأخرى بعثوري على مُعَلِّم. كنت أفكر في أنه يمكن لاتصالي بعمله أن يكون حاسماً لعملي، وإن يكن بفضل براعة ذلك السحر المعدي الذي لا بد أنه ينبعث من واقع أننا ولدنا بين الأنهار نفسها، وعند أقدام الجبال نفسها. كنت قد خرجت للتو من بار كاستريّو ذات غروب، يلفني الدخان وقرقعة أحجار الدومينو، وكانت المدينة كلها مزينة بمتدليات جليدية طويلة، بيضاء في الظلمة كأنها أسنان فك هائل، زينة شتاء لا يمكن تصوره هنا، بل يبدو مستحيلاً، عندئذ فكرتُ في الاتصال به، وطلب نصيحته لوضع حل لروايتي، ولأتلقى رأياً صائباً يوضح علاقتي الحميمة بالأدب، وبهذه المهمة الغريبة التي هي سرد القص، حيث لا يُعرف أبداً أين ينتهي التفريج عن النفس ويبدأ الإبداع؛ وليقول لي إذا ما كان التخييل الذي أكتبه، والذي يبدو أنه يكتبُ نفسه بنفسه، خارجاً من ظلمة لستُ فيها سوى مجرد ناقل بسيط، ونابعاً من أرض تصبح مرئية شيئاً فشيئاً، وفق غرضه المنطقي الخاص ليصير حقاً، أمام دهشتي، رواية قادرة على إثارة اهتمام يتجاوز بلاهتي. ولكن، على الرغم من إنني حاولت تحديد مكان بالاث في البيت الذي يقال إن أبويه يعيشان فيه، إلا أني لم أستطع العثور عليه قط. وبعد أن أرسلتُ عدة رسائل طالباً عنوانه، رسالتين منها إلى دار النشر، وأكثر من ثلاث إلى الصحيفة، لم أحصل على جواب، ولم يهتم بطلبي أحد. إلا أنه كان عليّ أن أقول لك إن ذلك الصمت لم يخمد ورعي تجاهه، فكنت أفكر وأعيد التفكير في حل عقدة روايته على أنه نموذج تنبؤيّ لإنهاء حل روايتي: نهاية، دون أن تكون رمزاً لأي شيء، ينبغي لها مع ذلك أن تمضي إلى ما هو أبعد من مجرد تبدلات هلوسة، وتتحول إلى طور آخر، بعيد الغور وغامض ولكنه مقنع، من بحث يكفّ، عندئذ تحديداً، عن أن تكون كذلك، ليتحول إلى الواقع الوحيد. آه، أجل، أؤكد لك أنني كنت آنذاك ما أزال فتياً جداً وأفكر، بعاطفة شديدة الزخم بقدر ما هي عابرة، في أنه يمكن لي أن أتوصل ذات يوم لأن أكون كاتباً.

❖ ❖ ❖

Twitter: @alqareah

ألا أُتعبك؟ لقد قلت لك، على أي حال، إنه مازالت أمامنا ساعات طويلة. لدينا الشراب والحديث، وليس بالإمكان عمل شيء آخر هنا. الثلج مازال محفوظاً بحالة جيدة، أكاد لا أصدق ذلك. سأوضح لك إذاً من هي سوسانا. عرفتُ سوسانا بطريقة غريبة جداً: يمكن التفكير في أن قدراً محتوماً، وإنجاز دور محدد هو ما جعلني أجتاز ساحة الكاتدرائية في ذلك اليوم من تشرين الثاني، إذ ما الذي يمكن لي أنا أن أذهب لأفعله هناك فوق في الساعة الرابعة مساء، وأراها ممسكة بعنان بغلتها قرب الرأس، وهي تحاول إجبارها على الشدّ بقوة أكبر وإخراج عجلتي العربة من بركة الوحل التي علقت فيها. وعندما نظرتُ بعد ذلك إلى ما في داخل العربة، أدركتُ سبب ثقلها الكبير. فقد حمّلت سوسانا داخلها كمية من الأشياء، بعضها كبير الحجم جداً. مدفأة حديدية، وعدة تيجان أعمدة قديمة، وخزانة قاتمة ذات أدراج، وحتى تمثال نصفي حجري يمثل شخصاً متوجاً. ساعدتها على دفع العربة إلى أن تمكنا من إخراجها من الوحل. بدأ المطر يهطل مرة أخرى، وقادت هي البهيمة حتى المدخل المقنطر. وظلت وقتاً طويلاً تنظر إلى مدخل الكاتدرائية، وكأنها نسيت وجودي. نظرت أولاً إلى الأبراج والسقف الجملوني. ثم نزلت ببصرها ونظرت إلى الأبواب. بدت كأنها تبحث عن شيء. وأخيراً بدأت المشي، اجتازت البوابة الحديدية واقتربت من تمثال **لابلانكا**، وظلت ساهمة أمامه. وأنا أيضاً تأملتُ برهة ابتسامة الحجر تلك. وبعد ذلك، عندما هممتُ بالانصراف، التفتت سوسانا إليّ وشكرتني بتفخيم. كانت بشرتها وردية وعيناها لامعتان، لهما لون الطحلب. وكانت تضع منديلاً كبيراً مثبتاً على رأسها بمظهر هو مزيج من مظهر بنات البلد الغجريات. قلت لها أن تأتي لتناول فنجان قهوة معي، وذهبنا إلى بار قريب هناك. أخبرتني أنها في رحلة حجّ إلى سانتياغو، لكنها تنوي البقاء لبعض الوقت في المدينة التي وصلتها للتو. إنها ترسم. هذا ما قالته، إنها ترسم، لكن تبين لي بعد ذلك أنها موسيقية كذلك، وهاوية جمع تحف قديمة. حدثتني عن رحلتها بطريقة مشوشة جداً، وبدا لي أنني فهمت، وإن يكن بصورة غير واضحة، أنها تنتظر شخصاً، أحد مواطني بلدها، يقوم بالرحلة نفسها، وقد انفصلت عنه في إحدى لحظات طريق الحج. بينما هي تتكلم، تناولت دون تردد كأسين من تفل عصير العنب. الحقيقة أني لا أعلم كم هو عمرها، لكني أظن أنها لم تكن قد تجاوزت الثلاثين آنذاك. كانت

Twitter: @alqareah

فرنسية، وتجوب طريق الحج في تلك العربة، ترسم المناظر والكنائس والناس. تحفظ بين أمتعتها دفاتر كثيرة وبعض الرسوم. وكانت تتكلم لغتنا بدقة نحوية نادرة ومفردات ضئيلة، تحجب معناها لهجتُها المشدّدة بحدة. اقتضاب جملها وخلوها من المرونة يضفي على أقوالها وقعاً غريباً كأنه صادر عن غراموفون. لنرَ إن كنت تفهمني: إنها رنَّة معدنية، رنَّة صوت مستنسخ. وسأعود لرؤيتها بعد يومين من ذلك، أمام البلدية. صوتها ذاك ناداني بقوة، ورأيتها تقبل وسط جلبة حمائم، بينما هي تجتاز الشارع بخطى واسعة. عانقتني كما لو كنا صديقين حميمين لم نلتق منذ زمن بعيد، تشبثت بذراعي وبدأت تتمشى معي من جانب إلى آخر في الساحة الصغيرة. كانت أطول قامة مني قليلاً. وقالت لي إنها استقرت في مكان، فوق **الكروثيرو**. وإنها بدأت ترسم لوحة كبيرة. وإن المدينة تروقها. والحقيقة أنها مدينة جميلة، ولكنك ستقول: ماذا عساي أقول غير ذلك، وأنا من هناك. المسألة أنني، في ذلك المساء، كنتُ مستعجلاً جداً وانصرفت في الحال. وبعد ذلك انقضى الشتاء ولم أعد لرؤيتها. وعلى الرغم من أن هذه واحدة من فجوات ذاكرتي، إلا أنني أظن أني قد نسيتها تماماً. ولكني لا أستطيع تأكيد ذلك، ولنقل إن الزمن مضى، ولا بد أنه كان أواخر شهر شباط عندما التقينا من جديد، ولست أتذكر أيضاً ما الذي كنت أفعله في ساحة الكاتدرائية في ذلك الوقت من الصباح. عانقتني مرة أخرى. أسندت رأسها إلى رأسي في إشارة إلى ثقة حانية بلبلتني، وكما لو أننا كنا قد التقينا في اليوم السابق، راحت تتوسع بالمعلومات التي قدمتها لي قبل شهور. لقد استقرت في مكان إقامة. وتقول إنه مكان فسيح جداً. وتقول إنها ترسم لوحة كبيرة، وإنها تقدمت فيها كثيراً. وتوصلت كذلك إلى الحصول على فرصة إعطاء بعض دروس العزف على البيانو واللغة الفرنسية، كي تساعدها في موازنة حساباتها. وكان أن فهمت عندئذ أنها أستاذة نونيا. سأشرح لك جيداً في ما بعد من هي نونيا، تلك الفتاة التي عدت للقاء بها بعد سنوات طويلة. والمسألة أنني لم أقل شيئاً آنذاك. كنتُ أتأمل وجه الصبية الكبيرة، وشفتيها المتلئتين، وقد تشققتا قليلاً من البرد، وتجعدات جبهتها الدقيقة، وعينيها اللتين بلون عشب قاتم. لم تكن تضع منديلاً وكان شعرها يلتف في موجات كبيرة سميكة. وبالحميمية نفسها التي حيّتني بها، دعتني للتعرف على مسكنها الجديد في ذلك المساء. وقد ذهبت. صعدت حين كان

Twitter: @alqareah

الوقت نهاراً، حوالي الساعة الخامسة، تحت شمس شاحبة لم تستطع إذابة الجليد. كان البيت بعيداً جداً عن **كروثيرو**، بعد مطعم البرايسو، في وسط **تروباخو**. لم تكن هناك غُرف، وإنما هي أقرب إلى سلسلة حجرات بلا أبواب، وبأرضية تكسر استواءها درجات مفاجئة. وفي الحجرة الخلفية، وضعت سوسانا البغلة. كانت رائحة الإسطبل، وكومة التبن الكبيرة على البلاط، وذلك المغسل الحجري الذي يستعمل كمعلف أحياناً، تضفي على الحجرة مظهراً فريداً، في توليفة شاذة. وكانت الحجرة تؤدي إلى باحة ضيقة، في جدارها الخلفي باب كبير. كانت سوسانا تشغل الحجرة الأمامية. ولا بد أن البيت كان في السابق مخبزاً، إذ كان هناك في الجدار المقابل لبوابة المدخل فرن كبير، حين فتحت بابه هبّ منه هواء بارد، ورائحة سِناج عفن. وكانت سوسانا قد بعثرت أمتعتها في الحجرة. وفي منتصفها بدت المدفأة معلّقة بأنبوب الدخان الأسود المثبت بصورة سيئة بحبال وأسلاك، ليخرج طرفه إلى الشارع من إحدى الفتحات العليا في النافذة التي استُبدل زجاجها بكرة من الخيش. كان الفحم يتأجج في المدفأة، وفوقها إناء فيه ماء يغلي. وإلى أحد جانبي الفرن، سرير صغير مغطى بأقمشة وأغطية. وفي الجانب الآخر، ركّبت سوسانا من دفة الفرن وقائمتين خشبيتين كبيرتين حاملاً للوحات استقرت فوقه قطعة قماش كبيرة مشدودة على إطار، تُلطِّخ سطحها الأبيض خطوط أولية ناعمة وغير مفهومة. تلك هي، كما يبدو، اللوحة التي تتحدث عنها بسعادة. أرتني بعد ذلك أعمالها: إنها تحتفظ في الدفاتر وفي محافظ كبيرة برسوم أولية عديدة لكنائس، ومذابح، وأعمدة، وأبراج أجراس، وعربات، وجسور، وبيوت ريفية، وهيئات ووجوه بشرية. رسوم مشغولة ببراعة، وإن كان فيها جميعاً خلل ضئيل في النسب، وخراقة غريبة تحني السقوف، وتقوض المنظور، وتشوه حجوم الأبنية، وتتلاعب بتوازن ملامح الوجوه. وكانت الرسوم الزيتية القليلة تمثّل مناظر طبيعية، لكن ألوانها باهتة جداً، شبه رمادية، تستوحي عزلات ضبابية. جلسنا على السرير وبدأنا نأكل جوزاً. كان لدى سوسانا، معلقاً على رف، زق جلدي كبير مملوء بنبيذ الهضاب. فكنا نكسر الجوز على الأرض، ونشرب النبيذ دون أن نتكلم، بحركات متزامنة ومتماثلة. انفجرت هي في الضحك.

ـ يا لنا من أبكمين.

Twitter: @alqareah

هذا ما قالته. ولا بد أنها أرادت أن تقول: يا لنا من صامتين، أو شيئاً من هذا القبيل. كانت أصابعها مصبوغة بحبر صيني، بقع قديمة منه تظهر بوضوح على بياض البشرة. كان الوقت قد صار ليلاً، ولكننا واصلنا الشرب. وكنا قد فتحنا لفافة لحم مقدد جلبتها معي، وصارت أمامنا في نصفين. سألتها عن صديقها الذي يبدو أنها بانتظاره، وأدركتُ بشيء من المهانة، أجل، وبقليل من الضيق، ذلك أن تحفُّظها مؤشر إلى سرّ لا تريد نقله إليّ، ولم أكن بدوري مهتماً بكشفه، أقسم على ذلك، فما الذي كان تعنيني آنذاك حياتها، لاسيما وأن معلوماتها لي مذ تعارفنا، وهي الأساس الوحيد لأسئلتي، لم تكن أكثر من عناصر حديث عابر، كإشاراتها إلى بلدها الأصلي، أو إلى مهنتها، أو الوجهة النهائية لرحلتها، أو طبيعة الرحلة نفسها، أو اسم بغلتها. وبالتالي، انحرفت بأسئلتي إلى اتجاهات أخرى، وأبديت اهتمامي برسومها. عندئذ قالت لي إنها وصلت إلى الرسم متأخرة؛ وأن تكوينها الفني الحقيقي كان موسيقياً منذ الطفولة. ونهضت من فورها وأخرجت من خُرج آلة ثامبونيا، وهي أداة موسيقية قديمة، تشبه كماناً غريب الشكل، ولها ذراع تدوير، وصلت إليها توارثاً من بيت أسلافها، وبدأت تعزف لحناً له مذاق قديم وتدندن بأغنية مفعمة بالأسى. ووسط فرقعة النار في المدفأة، والظلال التي تتكاثف وراء الأشياء المتنافرة في أركان وزوايا تلك الحجرة غير المتناسقة، أثر خفيف من دخان يساعد على إخفاء كل شيء بضباب كثيف. وقد فكرت في أنه يبدو طافياً في نظرتي نفسها: كما لو أن ذلك كله، ونحن نفسينا، لسنا سوى صورة في ذهنٍ آخر، وأن الموسيقى والأغنية مجبران على التواجد أيضاً في مخيلة غريبة، كي يكتسب كل شيء ـ ولستُ أدري إذا ما كنت تفهمني ـ بُعداً من النأي والضياع. وحين أنهت الأغنية، اقترحتُ أن نزيح عن نفسينا الكآبة المتنامية، وتمكنتُ أخيراً من استعادة هناء الساعات الأولى الحميم. الحقيقة أننا شربنا كثيراً، ولم أكن معتاداً على الشرب بكثرة. عندما دوى صفير قطار أستورياس السريع، كنا متعانقين ونتبادل القبلات. أقول لك هذا بكل هدوء. وبعد قليل، ملأتُ المدفأة فحماً، واندسسنا عاريين معاً تحت اللحاف. قد تتساءل لماذا أقول لك كل هذا، سأخبرك بذلك: لسوسانا جسد طويل وأبيض، وكتفان يغطيهما نمش دقيق جداً، وكثيف مثل شال رقيق، ولنهديها حلمتان كبيرتان كأنهما حبتا كرز، وعلى عانتها شعر غزير بلون شجر الماهاغوني. وعندما

Twitter: @alqareah

نامت، ظللتُ أتأمل وجهها باستمتاع. كان بريق المدفأة يجعل شعرها ذهبياً، ويبسط على خديها تموجات برتقالية متوالية. ولكنها لم تكن نائمة. وبدأت تتكلم بصوت غير مفهوم تقريباً، بصوت بدا في البدء كأنه آت من بعيد، من خارج الحجرة. كانت تتكلم عن مدن بعيدة دون أن تذكر اسمها، تحددها من خلال لون بعض الجدران، وانعكاس ضوء المساء على الزجاج، وانكسار شارع منحدر، وبريق الحجارة المرصوفة. كانت تعدد كنائس ومباني عامة، وقلاعاً، ودور بلديات. وتذكر وجوهاً قابلتها، وأيدياي تحيي عند المرور، وخسارة رفاق سفر. كانت قد اجتازت عواصف وأيام شمس مشرقة، وثلوجاً وبَرَداً، وضباباً من كل الأنواع. وكأن رحلات حجها قد بدأت قبل زمن طويل، في ماض ناءٍ غير محدد لشدة قِدمه، وقد اندمج في جوهر الأيام المتوالية التي راحت تذوب فيه حتى شكلت مشهداً لا زمنياً، يُعرض بنعومة اللامبالاة نفسها والتلون الباهت للسجاجيد العتيقة. كنتُ أستمع إليها مذهولاً، يملؤني تراخي الخمول. عندئذ اشتعل في الحائط المقابل ضوء أبيض ودائري، كأن نافذة مستديرة أخرى، كأن كوة مفاجئة قد انفتحت في الجدار. صمتت سوسانا ورحنا نتأملها بصمت.

ـ إنه القمر ـ دمدمت ـ إنه يرتفع فوق القفر، خلف الفناء.

لاحظ كيف ذلك: انعكاس القمر الوليد في مرآة الجدار كان نتيجة مصادفة ثغرات واصطفاف عرضي مثيرة، مجرد وهم، أحدثته آلية ما. وحضرتك تدرك أن تلك الليلة كانت بالنسبة إليّ أشبه بسفر في فضاءات لا يمكن لمداها وأبعادها أن تقتصر على حسابات الساعة أو التقويم. تلك المدن المستحضر ذكرها، وتلك الأزقة التي تصب في ساحة مضاءة أو تصل إلى ضفة تيار قاتم، والوجوه التي تراقب من شقّ ستارة، ومفترقات الدروب وذرى الجبال الموصوفة في ذلك الخليط، لا يمكن لها كلها أن تكون قد تواجدت معاً بهذه الطريقة في حياة فردية. لقد كان لكلمات سوسانا تلك صدى شهادة تشمل مئات السنين. ففي لحظات معينة، تذكرت جثثاً محاطة بطيور العقعق، ويوماً ضبابياً في فناء قلعة محترقة. وتحدثت عن رماح وسيوف ونبال.

ـ لكن، متى كان ذاك، عمَّ تتكلمين؟ ـ سألتها.

لمع في عينيها الخضراوين بريق المدفأة. وارتعشت كأنها أُصيبت بقشعريرة، وتنهدت.

ـ من يدري ـ أجابت.

Twitter: @alqareah

وفي أثناء ذلك كان القمر قد اجتاز المرآة ببطء، إلى أن اختفى. وكان فحم المدفأة قد استُنفد تقريباً، ولم يعد بإمكان وميض الجمر الضعيف الوصول إلى أبعد من عشه، كان يزداد خفوتاً بفعل الظلام. ظللنا مستيقظين، دون كلام، بقية الليل. وعلى الرغم من اللحاف، كان البرد يشتد، وكنتُ أتحمله على جسدي مثلما نتقبل مداعبة حزينة. ومع الفجر، عندما بدأت ضجة الشوارع، نهضتُ وارتديت ملابسي دون أن أنظر إليها. وكنت أمضي باتجاه **الكروثيرو** ويداي في جيبي، خائفاً، بمحاذاة صف أشجار الحور الأسود العارية، بينما أنا أفكر فيها بمزيج من الرغبة والخوف، وصممتُ على أمرين بالإصرار نفسه: أن أبتعد عنها نهائياً، وأن أعود لرؤيتها في تلك الليلة بالذات. ألم يحدث لكَ شيء مماثل؟ أما بشأن نونيا، فلم أبحث عنها، ولم أعد أتصل بها منذ ذلك الحين. وأعترفُ بأني أسأت التصرف معها. انقضت أيام كثيرة، وأرغمت نفسي على حفظ ذكراها في أحد أدراج الوعي المغلقة. ولهذا كنت بحاجة إلى أن أكلمها، بعد انقضاء كل تلك السنوات الطويلة. ولكنني لا أريد أن أستبق الأحداث. الواقع أن تلك الفرنسية فتنتني، لا أعرف إن كنتَ تفهمني، لقد سحرتني كما يقال.

❖ ❖ ❖

ذكرياتي عنها دقيقة جداً. وتحضرني الآن بالذات ذكرى أخرى، وهي صورة أيضاً قبل أي شيء، زخرفة صغيرة، أو صورة مسطحة؛ مثل رسم قصة مصورة: سوسانا عند النافذة، واقفة أمام حامل اللوحات، توجه ضربات فرشاة إلى اللوحة القماشية، وأنا جالس على كرسي صغير، عند عتبة الباب المفتوح بالضبط، أراجع دروسي. إنها عشيّة امتحان، واليوم مشرق في أوائل حزيران. وفجأة أخرج من دراستي، وأصوغ تأكيداً يرتبط بتأكيد آخر صفته منذ قليل، أو أمس، أو قبل أيام عدة: إنني أشير بكل تأكيد إلى روايتي التي لم تقرأها، فهي تقول إنها لا تستطيع فهم هذه اللغة عند قراءتها، لكني رويتها لها بكل تفصيل، دون أن يبدو عليها كبير اهتمام. تدير وجهها نحوي، وتسألني بصعوبة، كما لو أنها تلفظ كلمات عصية على النطق:

ـ أهي منظور رباعي الوجوه؟

عليَّ أن ألح على أني كنت فتياً جداً، ولهذا كنت مفعماً بجهل ساذج

Twitter: @alqareah

وجريء في الوقت نفسه، بحيث إني لم أكتب رواية وحسب، بل كانت لدي نظرية حولها أيضاً. كنت قد أنهيت في العام السابق قراءة كتّاب القرن التاسع عشر الطبيعيين في المكتبة العامة المحلية، وقد أعطوني روايتين أو ثلاث روايات غريبة، تعتمد آلية شديدة التداخل، معقدة، كثيرة المسننات المتشابكة، كما لو أنها تزعم العمل بصورة آلية. وأردت أن أضبط روايتي وفق تلك التقنيات، وأن أصوغ نظرية. وحسب تلك النظرية، كان كتابي يتوافق مع مخطط رباعي الوجوه. وأنا أيضاً يتلعثم لساني حين أقول: رباعي الوجوه. لابد أن السبب هو هذا الحر الذي يورِّم لساني. سأشرح لك الأمر، وسأروي لك في أثناء ذلك حبكة الرواية. وإن يكن بصورة عامة فقط. أحد جوانب رباعي الوجوه، وهو الذي يشكل القاعدة تحديداً، هو مكان وقوع الأحداث، حيث أنشأتُ مجالاً جغرافياً هو في الواقع وادي أجدادي، بالرغم من أنني زينته بكل أنواع المباني الغامضة، وبقلاع، وأنهار عريضة، ونصب، وغابات من اختراعي. هذه ستكون قاعدة رباعي الوجوه: مكان وقع فيه غزو ذات مرة. وقد كانت مسألة الغزو تلك بالغة الأهمية في رأيي، مع أنها لم تكن واضحة، بل إنني تجنبت توضيح إذا ما كان الغزو بشرياً أو حيوانياً، وهل هو جائحة حشرات أو تعاظم كثافة نباتية منفلتة، لأني أنا نفسي لم أكن أعرف ذلك؛ ربما كان غزواً بشرياً بالفعل، هزيمة ما، الذكريات الغائمة مقنّعه بقناع كارثة، بقضاء وقدر أرضي. وعلى كل حال، كان ذلك المكان الذي أعلم أنا وحدي أنه تعرض للغزو، يشكل مسرح الأحداث، وأحد جوانب رباعي الوجوه. أما الوجوه الثلاثة الأخرى فيشكلها ثلاثة أشخاص: مسافر عائد إلى بيته وهو لا يعلم بالغزو، وشخص ينتظر وصولاً، أو يخشى مغادرة، وثالث يحاول الهرب من الأراضي المغزوّة. إنها في الواقع ثلاث قصص مستقلة وغريبة كل منها عن الأخريين في الظاهر، لكني حاولت أن أوجد في ما بينها صلة دنيا، غير أنها علاقة لا غنى عنها، بالطريقة نفسها التي ترتبط بها سطوح رباعي الوجوه عند تقاطعها في زواياه، مع أن كل منها يواجه توجهاً مختلفاً بحيث لا يمكن لأي من الثلاثة أن يعكس المشهد نفسه، إذا كانت من مادة يمكن لها أن تعكس ما حولها، أن تعكس عالم عرضها الخاص. لكن القصص الثلاث المختلفة تلتقي في النهاية، كما لو أن الشخصيات تصل إلى زاوية التطابق، والجوانب الأربعة، وقد تفكك المجسم، تنبسط في مستوى

Twitter: @alqareah

وحيد مثلما كانت في قطعة الكرتون التي تشكلها قبل قصها ولصق طياتها الصغيرة لمنحها شكلها وحجمها. بهذه العناصر كلّها تتطور الرواية، إلى أن يكون هناك غزو جديد، يحدث دون شك ـ وإن بدا أنه الغزو نفسه يُعاش من جديد ولا يعلم به إلا المؤلف وحده ـ، ويُغلق الدائرة ليكون المسافر الذي يعود هو المسافر الذي يهرب مذعوراً، والمسافر الذي يهرب هو المسافر الذي يعود إلى البيت مفعماً بالأمل، والشخص الذي يبقى، لا ينتظر ولا يتذكر. لكن، لا تقلق، فأنا أتخلى عن شرح ذلك، مثلما تخليت عنه مع سوسانا. وقلت لها أيضاً إنه مجرد تفسير شخصي جداً، وليس له أية أهمية. فقد كان المهم في نظري هو كيف يتوحد سلوك الشخصيات. ولم تُبدِ هي في الحقيقة أي اعتراض، لكنها لم تسألني عن أي شيء أيضاً. مدّت ضربة فرشاة طويلة، وبعد أن رفعت بصرها ولاقته بعيني الثابتتين على وجهها، كلمتني ببطء أيضاً:

ـ ركّز. ادرس. وإلا سقّطوك.

كنا هناك نسمي الرسوب، عدم النجاح، سقوطاً. ويا للوضوح الذي أعود الآن لرؤيتها به: هي واقفة قرب النافذة، وأنا جالس في العتبة. في مساء صيفي. ومع ذلك، بدلاً من الاستمتاع بذلك الهدوء وتلك السعادة، كنت أتلهف بقوة آنذاك إلى محاورٍ قادر على فهم روايتي حقاً، ويمكن له مساعدتي في التوصل إلى حل لها: كنت أفكر في بالاث. وبالرغم من أن الزمن قد اختلط كثيراً، بحيث لم أعد أعرف إذا ما كانت لدي أخبار عن بالاث قبل التعرف على سوسانا، أو أن الأمرين حدثا في يومين متتاليين ـ في ذلك الحين، فلنر، كنت أحمل القصاصات في جيبي بينما أنا أساعدها في دفع العربة ـ لقد كانت لدي آنذاك، على ما أظن، معرفة طويلة ببالاث. كنت أعرف مقالاته عن ظهر قلب، وكنت قد قرأت روايته مرتين، بل إنني كنت قد فقدت أي أمل في أن تردّ الصحيفة ودار النشر على رسائلي تلك التي طلبت فيها عنوانه. كنت أفكر في بالاث وأحدث سوسانا عنه. وكانت سوسانا أيضاً تبدي اهتماماً ببيدرو بالاث. وكانت ترى أنه لا يمكن إلا في بلد مثل هذا أن يكون هناك رجل معروف في الخارج بينما هو مجهول لدى مواطنيه. وعندما علمت برغبتي في الاتصال به، وأنني أنتظر دون طائل الحصول على عنوانه، نظرت إليّ باستغراب، بعينين مذهولتين، بريئتين. هكذا:

ـ ألم يردوا عليك؟ لماذا؟

Twitter: @alqareah

لابد أنني هززت كتفي. لقد ذهبت عدة مرات إلى البيت الذي يقال إن أبويه يعيشان فيه، بل إنني تركت له رسالة، لكن أصحاب البيت كانوا غائبين دائماً. أما الصحيفة ودار النشر فقد التزمتا الصمت المطبق. كانت معظم الامتحانات قد انتهت. وكان مساء يوم آخر، وكانت طيور الخطف توشي الشارع بزعيقها الحاد، بعد صخبها تحت أفاريز البناء حيث تصطف أعشاشها في صفوف مزدحمة. يمكن لي أن أقول أي شيء، لكن سوسانا أكدت أنه عليها الذهاب إلى مدريد لمقابلة بعض تجار الأثاث والأشياء القديمة. وأنها تريد التعرف أيضاً على العاصمة. وستكون فرصة ملائمة لأقوم مباشرة بتحرياتي عن بالاث، بعد أن أنهي امتحاناتي. وأقول بثقة تامة، وبصورة حاسمة، أنني حصلت قبل ظهور النتائج على بعض المال وعلى إذنٍ من عمي، وذهبت معها إلى مدريد. خرجنا في فجر يوم من أيام أول أسبوع في تموز. لقد غامت ذكرى الرحلة أيضاً من ذاكرتي بعد وميض مفاجئ من توليفة، فورية، تراكبت فيها غابات أشجار حور أسود وتلال، سهول مغرة طويلة، قعقعة القطار الإيقاعية، البواشق المحومة في الظهيرة تحت سماء مفعمة بالضوء، نتف صور، بقايا معطيات بيانية، ذاكرة غير مترابطة، وأول الصور المدريدية، تظهر وتتلاشى كذلك بصورة مفاجئة: غير أنني أرى وراء هذه الذكريات المختلطة، بالوضوح الذي أرى فيه وجهك، وجه الشاب الذي يضع نظارة مدورة ويرتدي قميصاً صارخ اللون، وعلى الرغم من أنه في مثل سني، إلا أنه عاملنا بحذر متحسب، وقد قدم لنا، في دار النشر، أول الأخبار عن بالاث. كنا قد ذهبنا كذلك إلى الصحيفة التي يبدو أن اليوم الصيفي الحار قد أبقاها في حالة شلل خاص، ولم يستطع أحد فيها إفادتنا: فمسؤول الصفحات الأدبية لم يكن موجوداً، وكذلك رئيس التحرير. وكان رجل يضع مئزراً رمادياً، له صوت خفيف ذو رنة غريبة، قد حاول أن يجردنا شيئاً فشيئاً من أي أمل. لكن ذلك الشاب كان مختلفاً.

ـ بيدرو بالاث؟ ـ سأل؟

ـ أجل ـ أجبته، وناولته الكتاب.

تصفح الكتاب دون رغبة.

ـ انتظر قليلاً.

نهض واختفى وراء الباب الزجاجي. كانت النافذة تطل على فناء مجاور،

Twitter: @alqareah

تنساب منه بعض البرودة. وكانت هناك امرأة تغني ملء رئتيها، ومع أن غناءها لم يكن جيدا، إلا أن الأغنية كانت تعانق هواء الصباح المضيء، مُدخلة نوعاً من التفاؤل. عاد الشاب ذو القميص الأحمر بعد قليل وفي يده ورقة.

ـ لماذا تهتمان به هذا الاهتمام؟

خجلتُ من الشرح له، لكن سوسانا تدخّلت، مشيرة إليّ، وقالت بنبرة صوتها المعدنية إنني أنوي كتابة دراسة. جلس الشاب ثانية. وكانت تطل من جيب قميصه الأعلى جوزة غليون تشوه قماش القميص.

ـ دراسة؟

كان يتكلم بصوت واضح الشرود. لكنه أضاف على الفور إنهم لا يعرفون عنوان بيدرو بالاث.

ـ تحدثا إلى ابن عمه. إنه ممثله الشخصي. سجلا عنوانه.

عندما خرجنا من دار النشر، كان موعد الغداء قد حل، فذهبنا إلى مكان رخيص. كانت الشمس تسطع في الجانب الآخر من زجاج المحل، في الشارع المقفر. وبعد حديث طويل عقب تناول الطعام، ودّعتُ سوسانا التي مازال عليها القيام ببعض الزيارات، وبحثتُ عن ذلك العنوان. كان ابن عم بالاث يدعى أناستاسيو مارثان.

❖ ❖ ❖

كان مارثان يعيش في بيت كبير وقديم، على مقربة من الساحة الكبرى. هرّ أسود، له وبر لامع وعينان صفراويان، كان يتفحصني من أحد الأركان، بينما الخادمة التي فتحت الباب بزيها الرسمي، وبعد أن عرفت ما أريده، ابتعدت بصمت وتركتني وحيداً في تلك الردهة. كانت هناك فوق خزانة مكتبة، ساعة كبيرة تمثل ملائكة يتشبثون بوبر تيس وتطلق تكتكة متعجلة. دمدمة همسات ووقع خطوات خفيفة سبقت دخول مارثان. كان رجلاً طويلاً، بشعر قاتم وشارب كبير شائك كنبتة عليق. له عينان صافيتان ونظرة زائغة قليلاً، وسط تكشيرة لا يُعرف إن كانت ضحكاً أم دهشة. أدخلني إلى قاعة فيها كثير من الكتب واللوحات، ودعاني إلى فنجان قهوة. وقبالة النافذة، كان يلمع سطح بيانو أسود ضخم. وبصوته المعتدل، تحدث مارثان كثيراً عن نفسه طوال المساء. وقد بالغ في ذلك حتى بدا لي أخيراً أن تلك

Twitter: @alqareah

المعلومات ليست مجرد إضافة عفوية على لطفه، وإنما اعتذار ذكي عن عيب خفي. وهكذا علمت أنه محامٍ، لكنه لا يمارس المهنة. وأنه مولع جداً بالموسيقى، ويعزف على عدة آلات موسيقية. وأنه استقر في مدريد بعد سنوات طويلة من التجوال في العالم.

ـ في بعض الأحيان، وحتى الآن، أترك كل شيء وأمضي لأجوب الدروب، حاملاً جعبتي وسكيني متعدد الاستعمالات. ولا فرق في أن أجد نفسي في أومانويلا أو في نيبال.

يبدو أن لديه، منذ سنوات، إيراداً يتيح له أن يعيش براحة. ويعتبر نفسه مرتبطاً جداً بمسقط رأسه الذي يرجع إليه بصورة دورية. كان الوقت قد صار عصراً عندما قال لي متلعثماً، بطريقة غامضة، وبخجل تقريباً، إنه هو أيضاً خاض مغامرات أدبية: نشر كتاب أشعار وكتاب قصص، وعدة مقالات أدبية في الصحافة. غير أن تصريحاته لم تظهر إلا في الساعات الأخيرة. لكني لن أستبق هذه المفاجأة. اصبر حضرتك، وسترى.

ـ أما نحن، هناك، فملأنا بالكبرياء.

هذا ما كنت أقوله تقريباً، موضحاً له حماستي كباحث عن بيدرو بالاث. وكنت أؤكدّ له أن خبر وجوده كان بالنسبة إلي كشفاً، وحافزاً. كنت أشكو عدم اهتمام الصحفيين والناشرين الذين تجاهلوا رسائلي. وكان مارثان يستمع إليّ بلطف، لكني رحت أدرك على امتداد المساء أنه غير مهتم بالحديث عن بيدرو بالاث. بل كان طوال الوقت، بكثير من التكتم في البدء، وبصورة سافرة بعد ذلك، يوجه الحديث نحو موضوعات أخرى: موطننا المشترك، ميولي الأدبية، حياته الخاصة. وكان ذلك يثير في نفسي، أول الأمر، تقديراً خاصاً نحوه، لما اعتبرته بساطة خاصة في طبعه ـ نوع من تجنب الزهو بعدم الإثقال عليّ بكشف علاقته الحميمة بالمعلم ـ وقد بدا لي ذلك في نهاية الأمر مبالغاً فيه، بل مثيراً للريبة أيضاً.

ـ وماذا عن بالاث: هل هو متزوج؟ هل لديه رفيقة؟ هل هو متوحد؟ بدا أن في طبعه كرهاً للنساء ـ ربما قلتُ ذلك.

ـ أنا مثلاً، عازب متوحد، ومع ذلك لا وجود في شخصيتي لذرة واحدة من كراهية النساء ـ ردّ عليّ.

وكما يمكن لحضرتك أن ترى، كان يتجنب الحديث في موضوعات

Twitter: @alqareah

اهتمامي بصورة صريحة ومباشرة. ولكنك سترى إلى أين انتهى الأمر. دعاني لتناول وجبة خفيفة عند العصر، وجلس إلى البيانو وعزف هنيهة بتفخيم كبير. كانت هناك على الرفوف مئات الكتب. ثم واصل بعد ذلك البوح لي بمناجاة التي لم أدرك الهدف منها. كان قد جمع معلومات كثيرة عن نهاية مهنة البغّالين من أجل أطروحة لم يبدأها قط. فعندما ورث بعض الأراضي، اختار أن يبيعها ويستثمر ثمنها في قطاع الأغذية والنقل. كان يحب الأدب والموسيقى والرسم. والتمكن من الاستمتاع بهدوء بهذه المتع هو كل ما يأمله من الحياة. كان يفتح عينيه قليلاً ويقول جملة وقورة، ذات وقع مضحك بعض الشيء. وما أدراني أنا:

ـ أن أكتب ذات يوم عملاً يرضيني تماماً.

لقد وُلد يوم إعلان الجمهورية الثانية بالضبط، وهو يرى معنى خاصاً في ذلك التوافق. كنت أحاول معرفة شيء عن إيديولوجية بالاث، فيحدثني عن تحولات حياته الشخصية، كأن يقول لي إنه انتقل من لينين إلى البستنة. لم تكن ثمة طريقة لحصر المسائل. ومن جهة أخرى، كانت تقترب ساعة موعدي مع سوسانا، لأننا سنعود تلك الليلة في القطار. كانت السماء قد بدأت تمتلئ بالنجوم، وراحت أعمدة النور في المدينة تمد خطاً طويلاً من الضوء، يضفي على الشرفات مظهراً شبحياً، مطاولاً في واجهات المباني الستائر الخارجية للنوافذ، وتفرعات أزهار الجيرانيوم مطموسة الألوان. كنا، أنا ومارثان قد أجهزنا على عدة زجاجات نبيذ، وكنت قد انقضضت بتألق على مجزرته، أعني بذلك مجموعة بديعة من أنواع السجق، والجامبون، والفيليه. وكنت أنظر إلى الفراشات تحوم في الشارع، حول مصباح، وأحسست أن شكوكي تلتقط بعض الملامح السرية، وإن كنت غير قادر على كشفها. فبيدرو بالاث الغائب كان يُحجب طوعاً، بطريقة ما، من قبل مارثان. أحسستُ بذلك هنا، في القلب، كأنني أحدس فعلاً فظيعاً، جريمة منكرة. فأعربت عن اعتراضي، ومازلت أندهش كلما تذكّرت ذلك، مثلما دُهشت حينذاك من جرأتي على فعل ما فعلته. إنني أعود الآن لأرى نفسي وأنا أتوجه إلى مارثان، عن قرب شديد، دون أن ترتجف الكأس التي أحملها في يدي. لكني سيطرت على عصبيتي بهيئة ولهجة تبدوان غاضبتين. وأمسكتُ بكمه هكذا تقريباً، اعذرني حضرتك.

Twitter: @alqareah

ـ أرغب في أن أعرف ما الذي لديك ضد بيدرو بالاث ـ قلت له.

كان صوتي عالياً قليلاً. رفع مارثان حاجبيه ونظرته التي تنبئ دائماً ببسمة غامضة، وزاد من لهجته المرحة.

ـ أنا؟ ما الذي لدي أنا ضد بيدرو بالاث؟

كانت كثرة الشراب قد صعدت، دون ريب، إلى رأسي. وكنت أطالب بتكريم الغائب بأريحية مبالغ فيها. وجد مارثان نفسه مضطراً إلى التوقف عن العزف والنظر إليّ نظرة مفاجأة. لا تظن أنه من المناسب الإكثار من شرب النبيذ. فهو يؤذي المعدة ويشوش الذهن. لقد اتهمته عندئذ بأنه يتعمد طوال الوقت تجاهل بالاث. واتهمته بأنه لم يرد على أي من أسئلتي عنه.

ـ كنت أظن أنك مثلنا، تحترمه كمعلم. وأرى الآن أن ذلك ليس صحيحاً. أنت غير مهتم ببالاث على الإطلاق.

قلت له ذلك تقريباً. ووجهت إليه أخيراً التوبيخ: إنه يشعر نحوه بالحسد. هذا ما قلته له في وجهه. فانفجر هو في الضحك، وأخرج بعد ذلك سيجاراً. أشعله، وعبَّ منه عدة أنفاس، وأطلق دفقة كبيرة من الدخان باتجاه السقف وبدأ الكلام.

ـ لم أتصور قط أنه يمكن لبيدرو بالاث أن يوقظ مثل هذه العواطف.

قال ذلك، وأضاف ساخراً إنه مازالت تتأجج، دون شك، جمرة ما في مقاطعتنا القديمة. ثم أبدى الجدية فجأة. أكد أنه لم يكن يعي ذلك التجاهل الواضح. هذا ما قاله بالضبط. وأضاف إنه إذا كان قد أبدى، على كل حال، ذلك المظهر، فإن لديه ما يكفي من المسوغات. وكانت ملامحه تزداد تجهماً، كمن هو غاضب. وبدا صوته صارماً، وعلى شيء من الخشونة. كان يتكلم في دفعات من زفرات خفيفة. وتعلق نهايات الجمل في حلقه أحياناً كحشرجات صغيرة. لاحظ حضرتك، أظن أنني قادر على أن أنقل بأمانة الطريقة التي قال لي فيها تلك الكلمات:

ـ أنا أول من يسعده ذكر أسماء المؤلفين المفضلين عند بالاث، والحديث عما يروقه من الشراب والطعام، وإذا ما كان متهتكاً في أمور الجنس أم ناسكاً، ومن هم أصدقاؤه المقربون في الجامعات الكبرى، وما هو رأيه بديكتاتورية البروليتاريا.

لقد قال هذا كله بكل تأكيد، وبالترتيب نفسه الذي كررته تقريباً. توصل ذلك الخطاب اللاهث قليلاً إلى تبديد عصبيتي، فاجتاحني، وقد

Twitter: @alqareah

هدأت، مدّ من الفضول. كان مارثان ينظر أمامه، لكنه كان يحني رأسه نحوي، كما لو أنه لا يتكلم، بل يستمع.

ـ ولكني ضقت ذرعاً ببيدرو بالاث.

قال ذلك بحسم كامل. ورفع بعد ذلك السيجار إلى فمه، وسحب منه مجدداً عدة أنفاس، كما لو أنه في جزع متزايد. وأطلق أخيراً سحابة دخان أخرى كبيرة، ارتفعت بسرعة نحو مصباح السقف.

ـ ضقت ذرعاً به. في البداية، علّقت عليه الكثير من الأمل، وأُفضّل الآن أن أنساه. وسأخبرك بالسبب: في بيدرو بالاث، وهو ليبرالي صار إلى فوضوي، والعكس بالعكس، حيوي، واسع الخيال وفضولي، ينعكس بمفارقة وجه بلادنا الدوغمائية، الجاهلة، العنيدة. لهذا أُفضل نسيانه.

سكب مزيداً من النبيذ في الكأسين. لم أفهم مارثان، وبدأت أشك أن فيه انحرافاً خطيراً تحت مظهر السيد المثقف. تناول كأساً، وتذوق جرعة منه، وواصل الكلام.

ـ بعد اثنين وخمسين مقالاً في الصحافة، مقالات مهمة، بأهمية متوسط ما ينشر كل يوم على الأقل، لم يشأ أي منا نحن الضليعين في الموضوع أن يعرف كيف يسترد بيدرو بالاث إلى بلده الأصلي. والآن، وقد نَشَرَ هنا بقدر من المثابرة، مازال يثقل عليه الصمت نفسه الذي خيم عليه طيلة فترة غيابه الأمريكية. لأنه عليك أن تعرف أنه تظهر في الصحافة منذ عدة سنوات، بصورة دورية، أخبار عن بيدرو بالاث، دون أن يهتم أحد بها.

ترك الكأس على المنضدة الصغيرة ونفض يديه.

ـ هل تعلم أن الرواية، وبعد ثمانية شهور من ظهورها، لم يُكتب عنها بعد أي نقد باستثناء ما كتبه صديق مقرب مني؟

كانت توجد ندبة صغيرة في أحد جفنيه.

ـ ليس هناك من يعرفه شخصياً، وليس هناك من يعرف أصدقاءه. وليست هناك بالتالي وجهات نظر للقول إذا ما كان يمكن لما يفعله أن يكون مقبولاً أم ينبغي تجاهله.

ظل صامتاً. وسُمع في شارع قريب صراخ امرأة، لكن الصرخة تحوّلت إلى قهقهة طويلة. كانت التكشيرة المضحكة لا تزال مشدودة حول عينيه، حتى بلغت حداً بدت فيه تكشيرة ألم.

Twitter: @alqareah

ـ ومع ذلك، لم يخطر ببال أحد أن يشك فعلاً في أن هذا الإسباني موجود.

والآن، بينما أنا أتابع كلماته، مدّ مارثان يده اليسرى، يد كبيرة أحاطت بكتفي كلها، وضغطت عليها لحظة.

ـ هذا يوضح أكثر أنهم، مثل الموظف البيروقراطي المضطر إلى أن يتصفح كل يوم الجريدة الرسمية، يلقون هم أيضاً نظرة يومية على الموضوعات الأدبية. ولكنهم يفضلون عدم التدقيق ويلتزمون الصمت. أو أنهم يتكلمون مرة بعد أخرى في الموضوع نفسه وحسب. الموضوع نفسه على الدوام.

ـ لكن بيدرو بالاث قيمة معترف بها عالمياً ـ أجبته ـ أليس كذلك؟

ربما كنت أحدس بصورة غامضة ما سيقوله لي. أعاد الضغط على كتفي، ثم سحب يده وشبك أصابعها بأصابع اليد الأخرى. وتحدث بعد ذلك دون أن ينظر إليّ، بصوت خفيض جداً وبلا أي تفخيم.

ـ أنا هو بيدرو بالاث ـ قال.

ثم رفع نبرة صوته وحماسته:

ـ أنا مبدع بيدرو بالاث. أنا اختلقته. وأنا من منح حياة أدبية لهذه الشخصية.

كان وجهه الآن ملاصقاً لوجهي تقريباً. وكان يصرخ. وتحت رائحة النيكوتين، كان ينطلق من فمه نفس نتانة خفيفة. كان غياب التفخيم بالذات، واللهاث المتقطع، يُكسبان كلماته صدى غريباً من عنف خفي. قال إن صديقاً له، ناقد الرواية الوحيد، جعل من نفسه شريكاً في الخديعة انطلاقاً من القسم الثقافي في تلك الصحيفة، وإنه ساعده أيضاً في نشر الرواية. إن بالاث لا وجود له، وإن يكن الصمت حول عمله المزعوم، وكان جانباً منه مكتوباً، لا علاقة له بمعرفة المتخصصين به. بالاث لم يوجد ولكنه، كما أكد هو، واتخذني شاهداً على ذلك، كان اختراعاً جيداً وصورة مقنِعة لدارس واسع الإطلاع، لكاتب على جانب من الأهمية.

ـ كان على الفرنسيين أن يقولوا شيئاً ـ أضاف ـ. أو ربما ليسوا هم ما كان عليهم أن يقولوا. أحد ما من هنا خارجاً. وسوف ترى عندئذ. وحتى ذلك الحين، الصمت فقط.

هذه كانت المفاجأة. أرى أن الأمر أثار اهتمامك. كل شيء كان زيفاً، لوحة بيكاسو، حياة المغامرة، العلاقة بالدوائر الفكرية في العالم، مقالات الأبحاث. وانفجر مارثان في الضحك مقهقهاً.

Twitter: @alqareah

ـ إنه شخصية مختلقة، يا صديقي العزيز. بيدرو بالاث مجرد اختلاق.

انفجرت أنا أيضاً في الضحك، ولك أن تتصور بأي رغبة ضحكت. أحسست في أعماقي بالقنوط، بالارتباك، بالحزن، وما أدراني بأية أشياء أخرى. وبإحساس متعاظم بأنني قد خُدعتُ بفظاظة.

❖ ❖ ❖

قال الربان «خُدعت بفظاظة» وظل صامتاً بصورة مفاجئة، كما لو أنه فقد خيط القصة، أو أن تأملاً غامضاً قطع خطابه. أما «هو» فلم يجب بشيء. كان قد تقبل تلك المناجاة الطويلة عن أحداث بعيدة وغامضة وشخصية باستسلام شبيه بالاستسلام حيال أي ظاهرة لا يمكن الحدس المسبق بها أو تجنبها: هطول مطر مفاجئ في العراء، انفجار عجلة سيارة، انقطاع في التيار الكهربائي. كان قد اتكأ إلى جانب الراوي، مسنداً كتفه الأيسر إلى جدار المقصورة الخشبي، ومادّاً ساقيه. مع ذلك، وعلى الرغم من بُعد تلك الأحداث، كانت كلمات الربان تبعث فيه قلقاً فريداً، كما لو أنه يمكن، بالفعل، أن تنبثق فجأة من تلك القصة معلومة قادرة على النيل منه؛ أو كما لو أنه هو نفسه، مهما بدا ذلك غريباً، متورط بطريقة ما في الحبكة.

لكن صمت الربان لم يكن بسبب وقفة تأمل مفاجئة. كان قد أدار رقبته، وبعينين نصف مغمضتين، مثّل وضع اهتمام جامد. تمتم شيئاً بين أسنانه.

ـ مروحة لعينة ـ صاح أخيراً.

كان ارتجاج مميز قد أخذ يسيطر على حركة المركب، فصار يتقدم متعثراً. خفّف الربان السرعة، وراح يقترب بالمركب من الضفة حتى أوقفه تماماً ورسا به، ملقياً إلى الماء الموحل حجرين كبيرين مربوطين بحبال.

لم يفاجأ «هو» بذلك: وكأن الحدث تكرار لحدث آخر عاشه، أو رآه في فيلم مغامرات بعيد. قال لنفسه: «هذا الرجل سيغوص في الماء». وبالفعل، تعرى الربان، وبحث على الرف عن نظارة غوص حمراء، ومطرقة خشبية صغيرة، ثبت ذراع المطرقة بحزام سروال السباحة، ومستعيناً بيديه، نزل من مؤخرة المركب حتى اختفى تحت المياه العكرة.

خمدت ضجة المحرك، وتعالت أصوات الغابة في صخب متعدد، كاشفة بين أنواع متوالية من الصفير، أصداء زمجرات وكشط نائية.

Twitter: @alqareah

كان «هو» قد اجتاز المركب حتى المؤخرة، وراح يراقب بجزع متزايد المكانَ الذي اختفى فيه الربان. وكانت ضربات مخنوقة تكشف عن نشاط ما حيث غطس الربان. نظر إلى زوجته وإلى الرجل الملتحي اللذين مازالا في الوضع الثابت نفسه الذي كانا عليه طيلة الرحلة، فبدوا له مجدداً كجهاز من مجسم ضخم. كانت موجات صغيرة تضرب هيكل المركب، والتيار ينساب حاملاً معه كتل نباتات مغطاة بزهور صغيرة ضاربة إلى الزرقة. أحس بأنه يتعرق، وأن قطرات العرق تنزلق بطيئة على ظهره وعلى فخذيه، مسببة في انزلاقها حرقة خفيف. وكان هذا آخر إحساس له بالتفرد، لأنه لم يعد قادراً بعد ذلك على تحديد المكان الذي تكمن فيه حساسيته. بل لم يعد قادراً على قول إذا ما كان من لحم وعظم أم أنه ينتمي إلى المركب، كجزء تكميلي آخر منه، مثلما هي هيئة زوجته والمسافر كبير اللحية اللذين تصورهما من قبل كقناعي مساخر كبيرين. وفكر: «هل أنا إذاً، القارب نفسه؟ أتراني أشكل كذلك جزءاً من القناة، ومن الغابة؟».

بدا ذلك السكون تأكيداً حاسماً على أنه ليس ثمة إمكانية لأي غياب. لا غياب هناك للربان، وهذا السكون لم يكن مسبوقاً بحركة دائمة، ولا أصوات الغابة حلّت محل صدى المحرك المقرقع. كل شيء كان ساكناً، وعليه «هو» أن يستسلم إلى السكون دون استغراب، ودون أن يعتبر غوص الربان مفرطاً في طول مدته، وكأن هذا الربان لم يوجد قط، ولم تكن قصته سوى محض وهم.

وعندئذ، كان الرجل الملتحي الذي استيقظ، قد نهض وجاء إليه.

ـ ألن يخرج؟

كان الملتحي يتكلم الإسبانية، وإن كان يفعل ذلك بلكنة خاصة. هز «هو» كتفيه وتفحص الماء الموحل باهتمام. وفجأة، برز رأس الربان إلى السطح، وأكدت زفرة كبيرة على جهده المبذول. صعد إلى سطح المركب حاملاً مروحة برونزية ذات ثلاث ريشات على محيطها نتوءات غير منتظمة من بقايا سبكها.

ـ إنهم يصنعونها هنا ـ قال الربان ـ. فتخرج على هذه الحال.

فتح إحدى مقصورات أرضية المركب وبحث بين خرق ملوثة بالشحم، وعلب وعدّة، حتى وجد مروحة أخرى.

Twitter: @alqareah

ـ لحسن الحظ أن لدي مروحة احتياطية ـ قال معلقاً.

ثبّت بعد ذلك النظارة بإحدى يديه، وشد المروحة باليد الأخرى إلى صدره، تخطى الدرابزين الجانبي وغطس قافزاً بفرقعة صماء دون تطاير للماء. كان الملتحي يمسك المروحة الأولى بين يديه، وكان في مظهره شبهاً بهيئته تمثال يعرض شيئاً. وبغتة، فاجأهم صوت محرك وراء ظهورهم: كانت طائرة صغيرة تطير على ارتفاع منخفض جداً، وتمضي في اتجاه القناة نفسه. اقترب الرجل الملتحي من حافة المركب، ومطّ جسده ليتأملها، ولوّح بيده محيياً. سقطت من الطائرة كتلة مكورة ارتطمت في منتصف القناة مثيرة فرقعة حادة وتطاير الماء، بعد مسار بطيء فوق نباتات الضفة. وفكر «هو» دون استغراب، ودون رعب، وبمتعة هادئة، أن ما سقط هو رأس: ظلت الكتلة طافية قرب المركب، وأتاح تأرجحها رؤية فجوات وفتحات كأنها ملامح مقتضبة لوجه. وفكّر دون أي ذعر في أنه رأس بشري، وأنه رأس الربان تحديداً، كما لو أن هناك تطابقاً تاماً بين تصرف الربان الأخير، وغوصه واختفاؤه تحت الماء، وواقع إلقاء رأسه من الطائرة.

ـ ليس رأساً ـ قال الرجل الملتحي ـ إنها ثمرة جوز هند.

تقبل، ببرود أيضاً، ذلك التأكيد الذي يبيّن فيه رجل اللحية الكبيرة والنظارة السوداء أنه قد قرأ أفكاره، وإن ظلت فكرته بأنه رأسُ الربان تبدو له معقولة ومنطقية. كان الرجل الملتحي يخفي بكتلة جسده الضخم جزءاً من جسم امرأته، مفسحاً المجال فقط لرؤية ساقيها وقدميها، ويديها الهادئتين على حضنها. وفكر عندئذ، على الرغم من أن بنطالها وحذاءها هما نفسيهما، وتبدو يداها بمظهرهما المعهود، بوجود خاتم زواج عريض، وخاتم الفيروز، فقد يكون وجهها قد تبدل ولم يعد وجهها. انتابته حينئذ قشعريرة، وأوشك على الإحساس بأنه ضائع ووحيد في مكان ناء ومجهول تماماً. زفرة الغوّاص القوية أخرجته من ذلك الشلل. كان الرجل الملتحي قد ابتعد من جديد مما أتاح له استعادة رؤية زوجه: إنها هي نفسها دون ريب، وبدّد الوجه الباسم المألوف خوفه. كان الربان يصعد مرة أخرى متشبثاً بحافة المركب، والمطرقة مثبتة بحزام سروال السباحة.

ـ إننا جاهزون ـ قال ـ كنت أفكر وأنا تحت الماء بالعصر البرونزي.

وكان «هو» ينظر إليه دون أن يفهم. جفف الربان جسده بمنشفة مجعدة جداً.

Twitter: @alqareah

ـ إنهم يصنعونها هنا، في أفران صهر بدائية كأفران عصر البرونز.

ارتدى ثيابه، ورفع الحجرين الكبيرين وأبعد المركب عن الضفة مستعيناً بعصا طويلة.

ـ يوجد هنا صنف سمك من عصر ما قبل الطوفان. إنه يتمتع بالحماية، ولكنهم يأكلونه هنا مشوياً على الجمر. الحقيقة أنه لذيذ جداً.

كان الرجل الملتحي قد جلس في المكان المعهود. وجلس «هو» إلى جانب زوجه التي مازالت تبتسم.

ـ ألم تشعري بالضجر؟ ـ سألها.

فنفت بحركة من رأسها. عاد إلى إمساك إحدى يديها والضغط عليها.

ـ مكان بديع جداً.

شغّل الربان المحرك، وزاد من السرعة عدة مرات، والتفت نحوهم برأسه.

ـ فلنر كم ستدوم ـ صاح.

عندئذ تكلم الملتحي، بصوت عالٍ أيضاً، ليطغى على ضجة المحرك.

ـ سانتا مرغريتا ـ قال.

ـ لا تقلق، إننا قريبون منها ـ أجاب الربان ـ سنصلها بعد قريتين. أقل من ساعتين.

عادوا ثانية إلى وسط القناة، وعاد صوت المضخات يطغى من جديد على أجواء المكان الرنانة، كأنه عادة قديمة في مسامعهم. وكان يدرك الآن أن ذلك الانقطاع الذي كسر، فجأة، رتابة الرحلة، قد تمخض في روحه عن حل لروايته، وبدا كما لو أن هذه الحركة تنتمي إلى إبحار آخر بدأ في ماضٍ صار غائماً ومشوشاً، لا يمكن معرفة أصوله ولا أسبابه. وفي البعيد، من جهة مقدمة المركب، ظهرت بقعة آخذة بالتعاظم على صفحة الماء، وبعد قليل كانوا يقتربون من إحدى تلك السفن المحملة بحيوانات وأشياء تؤمن خطوط النقل على امتداد القنوات.

كانت السفينة تقترب ببطء. خالية من أية خطوط حركية هوائية. إنها أشبه بهيكلٍ متوازي السطوح، مثل نعش ضخم أزيل طلاؤه. وكان عشرات الزنوج الجامدين، يجلسون بين حزم البالات أو يستندون إلى أطر الفراغات، وينظرون إليهم بثبات. عندئذ فكر في أنها سفينة جثث، وأن كل تلك الكائنات الساكنة الذاهلة قد ماتت قبل قليل، وظلت في وضعها الأخير.

Twitter: @alqareah

ومثلما لم تثر فيه صورة رأس الربان المقطوع أي إحساس بالذعر، رأى بعدم المبالاة نفسها مرور تلك السفينة وابتعادها بحمولتها الكئيبة.

ـ حسن ـ قال بصوت عال ـ لقد شربتُ كثيراً.

ـ ماذا بك؟ ـ سألت هي.

ـ شربت الكثير من الروم. هذا الرجل يشرب مثل إسفنجة.

انفجرت هي في الضحك. والتفت الربان إليه، كأنه قد سمعه، ورفع بيده زجاجة جديدة.

ـ تعال ـ دعاه ـ جرعة أخرى.

فأومأ «هو» بيده رافضاً. غير أن نداء ملحاً، أو رسالة بعيدة الغور بدت في عيني الربان.

ـ تشجع! ـ قالت المرأة ـ إننا في إجازة.

نهض عندئذ. اقترب من الربان، جلس إلى جانبه بوداعة قدرية، مدركاً أن الرجل سيتابع رواية قصته. سكب الإسباني روماً في كأسين، وقدم إليه إحداهما وشرب عدة رشفات من كأسه. واستأنف بعد ذلك رواية قصته دون تردد، كما لو أن الانقطاع لم يحدث.

Twitter: @alqareah

V. وتتواصل رواية الربان

قلت لك إنني شعرت بأني ضحية خديعة فظة. كنت ألتهب، كنت أتأجج حتى الغضب لمجرد التفكير في الأمر. وكنت أحاول طبعاً البحث عن مُسكّنات لخيبة أملي أيضاً: أحاجج نفسي بأنه لا أهمية على الإطلاق لوجود بيدور بالاث أو عدم وجوده، إذا نظرنا إلى الأمر من منظور أدبي محض. هل تفهمني؟ والأمر الحاسم هو في أنني قرأت، وأنا مؤمن بوجوده، مجموعة نصوص مليئة بالإيحاءات على أنها له، وأحسست فيها أيضاً بنبض عدة أفكار بدت لي، فجأة، مألوفة وقريبة، بل إنها ساعدتني على التأمل. ومع ذلك، حتى وأنا آخذ الخيال في الاعتبار، لم أكن أتوصل إلى أن أزيح عن ذهني فكرة الخديعة؛ أعني أنه على الرغم من معرفتي أن التخييل الأدبي ليس إلا خديعة مموهة ومقبولة على أنها كذلك، تجوب دوماً دروب القارئ على حافة الشك. وأسوأ ما في ذلك كله أنني أعدت قراءة بعض المقالات، فلم أجد فيها تلك الظرافة الطازجة والفريدة التي فتنتني من قبل. ربما لأني لم أستطع أن أُبعد عن مخيلتي صورة مارثان، بعينيه الزائغتين وشاربه الذي كفرشاة، وقد حلّ نهائياً محل وجه بالاث الذي ترسخ في ذهني، انطلاقاً من رسم بيكاسو، كواحد من تلك الوجوه النمطية الخالدة في النحت الروماني. وحين النظر إلى العمل على ضوء الرؤية الجديدة، بدا لي متوافقاً تماماً مع المؤلف الحقيقي، ولم أعد أجد فيه أي شيء استثنائي. وبدأت أعيد قراءة الرواية أيضاً، وجاءت لحظة لم أجرؤ بعدها على متابعة القراءة: فبعد معرفتي المحددة باليد الحقيقية التي كتبتها، صارت الرواية تتمثل لي بمظهر مختلف تماماً عما تمثلت لي في القراءة الأولى المتحمسة، في تلك الليالي الخريفية التي حدثتك عنها. وهكذا، حيث كنت وجدت غموضاً من قبل، صرت أجد الآن فظاظة غير محددة؛ والشخصيات التي بدت لي مرسومة ببراعة، فقدت حيويتها، وصرت أرى فيها مجرد رسوم كاريكاتيرية؛ والحدث نفسه الذي ظننت أنني أرى فيه انعكاساً دون ادعاء لرمزية سرية، صار يبدو الآن قليل البراعة ومقطّع بصورة مصطنعة. ووجدت نفسي في وضع محزن. أضف إلى ذلك أنه لم تكن لدي إمكانية

Twitter: @alqareah

مشاطرة أحد سرّي، لأن المسألة تهدد بأن تكون محبطة إلى حد فضّلت معه أن أتحمل وحدي عبء العودة إلى اليتم، والإغفال، وعدم قول الحقيقة لأصدقائي. بل إنني ضخمت في البعد تلك الرحلة المدريدية، واختلقتُ مقابلة مع مارثان يظهر فيها بالاث أشد حيوية وتسلطاً وأسطورية، ولم أطمئن إلا عندما ذهب الجميع، مع تقدم الصيف، إلى قراهم الأصلية، وظللتُ وحدي في المدينة. ظللت وحيداً في المدينة، بلا أصدقاء، لا يرافقني أحد سوى سوسانا. كنت أقضي معها اليوم كله تقريباً، وغالباً في المعانقات والمحادثات. وفي بعض الأحيان، كانت تضحك وهي تستمع إليّ. وكان مزاحها يحزنني، لأني كنت أريد أن أكون راشداً بالكامل، أن أُقارن بها، وما دام ذلك غير ممكن بالسن والخبرة، فعلى الأقل بنضج الحس.

وفي إحدى أمسيات الحب والحديث تلك، دخلت حياتي الشخصية الرئيسية في هذه القصة: مفاجأة. كيلا تقول إن ما أرويه لك ليس مسلياً. والآن سترى. عند غروب أحد الأيام، بينما أنا وسوسانا نستريح في فناء بيتها الخلفي، نسرح بصرنا، من خلال الباب الكبير المفتوح، في جبال أوبينياس الطويلة البعيدة، سمعنا قرعاً قوياً بمقرعة الباب الأمامي. كنا قد رجعنا منذ قليل من السباحة في النهر. وكان اليوم حاراً بصورة متميزة، وخلافاً للمألوف، لم يكن الجو قد برد بعد. وإن تكن تلك الحرارة مختلفة عن هذا الحرِّ هنا، فهي دون رطوبة، ودون هذا الضيق. إنني أتذكر ذلك أيضاً كما لو كان صورة فوتوغرافية: هذه الصورة تمثل لوحة عامة للفناء. في جانب منه أجلس أنا، مولياً ظهري، على مقعد صغير. وفي الجانب الآخر، تجلس سوسانا، جانبياً، على سلة كبيرة مقلوبة. وأمامها على بعد خطوات حامل لوحات صغير عليه قماشة لوحتها الأخيرة: رسم لمشهد العمق، مكوّن من الجدار، والباب الكبير، والسماء. وكانت اللوحة، وهي عبارة عن مستطيل موضوع أفقياً، ومقسومة إلى شريطين أفقيين متساويين: الأعلى هو السماء، والأدنى هو الجدار. ومن خلال الباب الكبير، تقدم اللوحة أيضاً، مثلما يحدث في الواقع، البروفيل البعيد للهضاب، وفي العمق تظهر قمم سلسلة الجبال الضاربة إلى الزرقة. تيك، تيك، كانت المقرعة تدّق. وكنت أنا من نهضت وتوجهت نحو الباب عبر الممرات المظلمة. كانت آخر الومضات التالية للغروب تنعكس على البيوت المقابلة. لم أتمكن، بفعل انعكاس النور، من رؤية الطارق بوضوح. رأيت فقط هيئة

Twitter: @alqareah

ذكورية، وعند قدميه حقيبة حمراء، وكيس اسطواني من قماش. كان رجلاً بديناً، شعر رأسه رمادي جداً، وشاربه أسود. ذكر اسمي سائلاً.

ـ إنني أنا ـ أجبت.

ـ أنا بيدرو بالاث ـ قال.

هل فهمتني؟ هذا ما قاله لي. مددت يدي وتصافحنا. كنت مضطرباً. لقد سمعت ذلك الاسم من فمه دون أن أعي ما يعنيه بالضبط، ربما لأني كنت مشوشاً بسبب الحر المفاجئ في الشارع، ولعجزي عن تحديد هويته فوراً بصورة دقيقة، دون أن أدرك أنه يشير إلى شخص آمنت به ذات مرة، قبل أن أعلم أنه مجرد كائن وهمي. وفي تلك اللحظة تقريباً فهمت الأمر. فهززت يده وأنا أهتف:

ـ بدرو بالاث؟

ضع نفسك مكاني. لا بد أنك كنت ستفاجأ أيضاً. كان الرجل يتكلم بثقة كبيرة.

ـ لم يكن هناك أحد في بيت أبوي، لكني وجدت ملاحظتك.

وأشار إلى الحقيبتين قائلاً:

ـ ساعدني في إدخال كل هذا، هيا. كيلا نتركه هنا.

عندئذ ظهرت سوسانا التي تلقت اسمه وحضوره دون أي استهجان. حملتُ أنا الحقيبة. كانت ثقيلة جداً.

ـ إني أحمل معي الكثير من الكتب على الدوام ـ قال متنهداً.

وصوب إليّ إصبعه كأنه يؤنبني. لكن كلماته ناقضت الحركه:

ـ أريد أن أقرأ كتابتك.

لم أستغرب ذلك. وبدا لي طبيعياً أن ينظر بالاث بتقدير إلى واقع أنني أكتب. لم أجب بشيء، وعندما صارت الحقيبتان داخل البيت، دخلنا الغرفة الكبرى، وقال بالاث إنه وصل لتوه، وإنه جاء إلينا مباشرة تقريباً، حتى إنه لم يترك أمتعته في البيت. كان يرتدي بنطالاً من المخمل وسترة، ولكن لم يبدُ عليه أنه يشعر بالحر. وكان ينتعل صندلاً. وحيث أن الوقت كان قد تأخر، فقد قالت سوسانا إننا سنتعشى معاً، وتقبل هو الدعوة مسروراً. وبينما راحت تريه لوحاتها ومحتويات حافظتي أوراقها الكبيرتين، هيأتُ منضدة في الفناء، ومددت إضاءة من الإسطبل، حيث كانت البغلة تنام بهدوء، وحضّرت سلطة خس وبصل وبندورة وتونا، وملأت الإبريق نبيذاً. نبيذ رائع، لم أعد إلى تذوق

Twitter: @alqareah

مثله منذ زمن بعيد. نبيذ خفيف، وليس هذا الكحول الذي يحرق سحايا أحدنا. وإن كنا نرجو ألا نفتقده أبداً. آمين. أدركتُ أن تصريحات مارثان حول بالاث كانت زائفة تماماً، وأن مارثان المذكور يمر دون شك بفترات استلاب ذهني، لكنه لا يتخلى عن امتلاك إحساس كبير بالوهم. وقد داهمني مجدداً فوق ذلك اضطراب التفكير بمؤلفاته، وغمّ لا مفر منه لأني شككت بوجودها، ولأني تخليت عن الإيمان بقيمتها وجمالها. كنت أشعر بخجل ورعب أنني روتيني وفظ مثل أولئك الكسالى المجهولين الذين كان مارثان يوجه ثرثرته إليهم. أبعدت عن ذهني كيفما استطعت كل تلك الاعتبارات التي بدت لي مُهينة. لكني لم أنتظر طويلاً كي أخبره، حين جلسنا لتناول العشاء، بقصة ابن عمته، متعللاً بفضول يمكن تسويغه.

ـ أنا لا وجود لي؟ أقال إنه لا وجود لي؟

ـ هذا ما قاله. أكد أن بدرو بالاث، في الواقع، شخصية متخيلة. إنه اختلاق. وأنه هو نفسه مؤلف الرواية والمقالات الحقيقي. وأن صديقاً يعمل في الصحيفة وله بعض النفوذ في عالم النشر، ساعده في المهزلة. مهزلة دامت زمناً طويلاً.

كان بدرو بالاث يأكل السلطة بشهية. وبدا أن أخباري لم تؤثر فيه كثيراً، ولكنه ظل مستغرقاً في التفكير.

ـ هل أصاب الجنون هذا الفتى؟

ـ ربما كانت مزحة.

ظل بالاث ساهماً. ثم قال أخيراً:

ـ ابن عمتي يفتقر إلى حس السخرية. فطبيعته... يمكن القول إنها مأساوية، قاسية.

أومأ بحركة توضيحية غامضة. كان درب التبانة يتلألأ فوقنا مخثراً بالنجوم. بدأت تهب برودة خفيفة، ويأتي من الجبال عبق الأحراش والمروج الزخم. كان غناء الجداجد والضفادع يتناغم في سكون الليل الصيفي.

ـ لقد بدا لي على الدوام أن فيه مساً ـ أضاف ـ. عندما كانت أمه حاملاً به أرعبها ذئب. كان الذئب يحمل خروفاً، وحاولت المرأة أن تمنعه. أمسكت الخروف من قائمتيه الخلفيتين. عندئذ أفلت الذئب فريسته، وكشر عن أنيابه وزمجر. لم يفعل سوى ذلك.

وواصل بالاث روايته بأن عمته ظلت، حتى ذلك الحين، وقد تقدمت كثيراً

Twitter: @alqareah

في السن، ترى في أحلامها ذينك الشدقين، وتسمع تلك الزمجرة. وكانت واثقة من أن الطفل، في أحشائها، قد أصيب بالذعر أيضاً. وأن ذلك أثر في شخصية ابن عمته. كان يتكلم ونظره شارد في الليل وكمن يردد من الذاكرة فقرة من قصة.

ـ إنه موهبة محبطة. رجل غريب الأطوار.

ـ قال إنه محام.

ـ ما هذا الكلام. بدأ تلك الدراسة في أوبييدو، لكن ميلاً دينياً داخَله، فتحول إلى راهب في واحدة من تلك الرهبانيات المتبقية التي ليس لديها سوى أربعة أو خمسة أديرة في العالم.

ـ قال إنه محام ويعيش من ريع عقارات.

ـ هذا صحيح. لقد خلّف له أبواه مزارع كثيرة. وقد داخلته ميول دينية، وميل إلى الموسيقى. وكان شعاره هو ما قاله فراي لويس عن الموسيقى التي تخترق الهواء حتى تصل إلى أسمى الأجواء:

أرى المعلم الأكبر
منكباً على تلك القيثارة الهائلة
وبحركة بارعة
يصوغ اللحن القدسي
ليقيم أود هذا المعبد الأبدي.

قطع بالاث الشعر.

ـ بعد تلك الموسيقى الصوفية، لم أعد أعرف شيئاً عنه لبضع سنوات. وأظن أنه نزع عنه في أحد الأيام مسوح الرهبنة. لم أقل لك إنه، منذ الطفولة، كان جمهورياً ومناهضاً للإكليروس. ويبدو أنه تنقل من مكان إلى آخر، كموسيقي جوال.

تنهد.

ـ أعلم أنه أراد بعد ذلك أن يكتب. والآن، يخرج بهذه البلاهات.

وسألني باندفاع:

ـ وأعمالي؟ هل كتبها أيضاً ابن عمتي هذا؟

ـ حسب رأيه، لا وجود تقريباً لأي من هذه الأعمال ـ أجبته ـ. لا بد أنها

Twitter: @alqareah

معلومات زائفة علمياً عن سيرة الشخص. مثلها مثل كتاب قصص ينسبه أيضاً إلى نفسه. ولا وجود إلا للرواية التي كتبها هو نفسه. وبضعة مقالات كتبها بيده أيضاً.

كنت ابتسم كمن يعتذر. ونهض بالاث، ودخل إلى البيت. رجع بعد قليل وهو يحمل بعض الكتب. كانت سوسانا تضع الثامبونيا على ركبتيها وتعزف لحناً يبدو كما لو أنه قلب الليل نفسه يتألم من حزن ما. قدم لي بيدرو بالاث الكتب.

ـ ها هي ـ هتف ـ. التاريخ العام. كتاب القصص. والكتاب الذي عن الثقافتين لم أجده، ولكنه في الحقيبة بالتأكيد.

انظر حضرتك، كان غلاف الكتاب قد فقد بريقه بالكامل، ولا شك أن السبب هو كثرة الأيدي التي تداولته. وتحول اللون السلموني الأصلي إلى رمادي تملؤه ندوب وردية كأنها جروح حقيقية على جلد حي. أما الكتاب الآخر فكان أصغر بكثير، له غلاف غريب ـ لطخة تشبه جمجمة تُذكّر بصورة مبهمة بتمثيل لكوكب يطفو في الفضاء، مع أنه يمكن للشكل أن يكون كذلك كوكباً أراد الرسام أن يضفي عليه مظهر مطموساً لجمجمة ـ ولم يكن العنوان بالقشتالية، لكن اسم المؤلف، على الكتابين، كان واضحاً جداً: ***بيدرو بالاث***.

ـ إنهما لك ـ أضاف ـ ما دمت أكتب، فأنا موجود.

قال ذلك، وبعد قهقهة قوية، راح يغمس قطعاً من الخبز في العصارة المتبقية في قعر زبدية السلطة. وكنتُ نادماً أشد الندم لأني صدقت تلك الأكذوبة، وتكاد الدموع تطفر من عيني. كنت ألمس الكتابين وأشعر في أطراف أصابعي بأن الأدب يتدفق منهما مثلما يتدفق الضوء والحرارة من الشمس. وأجد في ذلك الرأس النبيل ملمح تمثال قديم يعود إلى آلاف السنين، حتى تبدلت نبرات صوته نفسها وبدت لي جديرة بتقدير ورع. قدمت له الشكر متلعثماً. وأردت أن أبدأ معه حواراً حول الكتابين اللذين أهداهما إليّ، لكنه أسكتني بإيماءة، وأشار إلى سوسانا التي بدت مستغرقة تماماً في آلتها الموسيقية.

ـ هس ـ قال ـ فلنستمع.

كانت النجوم السيارة تجتاز الليل أيضاً. وكنت في حالة استثارة سعيدة. وواصلت سوسانا عزف تلك الألحان لوقت طويل.

Twitter: @alqareah

وعندما توقفت، أدركتُ أن صمتها يخرجني من غيبوبة كان يمكن لها أن تستمر قرناً، كما في تلك القصة عن الراهب الصغير والبلبل. كان بيدرو بالاث قد أغفى ورأسه مستند إلى الجدار. واستيقظ بينما نحن ننظر إليه: وفتح عينيه ببطء.

ـ لقد نمت. إنني مرهق ـ دمدم ـ البارحة فقط أنهيتُ محاضراتي.

نظر إلى الوقت في ساعة كبيرة سوداء ومربعة، وسألنا بدهشة:

ـ أتعرفان كم الساعة؟ كيف سأعود إلى البيت في هذا الوقت؟

كانت عيناه مثقلتين بالنعاس.

ـ أتركا لي ركناً أمد فيه كيس النوم. وغداً سيكون يوماً آخر.

رافقناه حتى الحجرة الكبيرة. وبجوارها مباشرة: كانت هناك غرفة صغيرة تحفظ فيها سوسانا أشياءها. وكانت مرتبة جيداً، بل فيها دكة لا بد أنها كانت ذات فائدة ما في ماضي البيت. فك كيس النوم وفرده على المصطبة.

ـ هنا سأنام مثل إله.

ظللتُ أتأمله بينما هو يخلع حذاءه، وقبل أن أنصرف، كان قد تعرى. اندس في الكيس، ونظر إلي:

ـ المعذرة. لكني لا أتذكر اسمك.

أخبرته به. فقال:

ـ آه! اعمل معروفاً بإطفاء الضوء، يا فتى. شكراً. طابت ليلتك.

سمعته يتقلب للحظة ويطلق زفرة كبيرة تحوّلت فوراً إلى تنفس قوي بإيقاع منتظم. هكذا تعرفت شخصياً على بيدرو بالاث.

❖ ❖ ❖

لم يذهب إلى بيته. انضم إلى استديو سوسانا كعنصر آخر من موجوداته. كانت مفتونة به، وأظن أن البغلة نفسها، حين تراه، كانت تفقد ذلك الغباء المحكم المعهود وتُبدي نوعاً من الابتهاج. وأظن أنني كنت سأشعر بالغيرة الشديدة منه لو لم أكن أقدره كثيراً. فالمحادثات الطويلة التي كانت سوسانا تستغرق فيها معه لساعات، انتهت إلى إبعادي عنهما وخلفتني في جمود ذهني كبير، مع إحساس بالاستبعاد، وبأنني نفاية بكماء طافية، يمكن تكون الأمواج قد أبعدتها جانباً بإلحاحها. وقد بدا لي أيضاً، منذ اليوم الثاني، أنني

Twitter: @alqareah

أحدس من خلال بعض النظرات، وبعض الصمت الذي يتوافق مع وصولي، أنهما يتقاسمان أسراراً لا يشاركانني بها. ومع ذلك، كنت أفكر في أنها مجرد تهيؤات، وأجد نفسي سعيداً جداً بواقع أن بالاث موجود حقاً، وأتقبل دون غم التضحية بساعات غرامي وحديثي مع سوسانا. أضف إلى ذلك أن معظم الأحاديث كانت عامة. يتكشف فيها بالاث عن أنه أرشيف حكايات. يبدو أنه قد عرف كثيراً من الأمكنة والأنحاء. لقد كان قارئاً لا يكل منذ الطفولة، ودكتوراً في موضوع وعر وغريب، ومترجماً، وأستاذ لغة وأدب في نهاية المطاف، ويُظهر أن لديه سجل مسيرة حيوية يمكن أن تضم نصف دزينة من الأشخاص. يقول إنه يعرف دروب «الغوانو»[1] بالتفصيل نفسه الذي يعرف به مزارع القهوة، ويعرف شركات التأمين الهولندية مثلما يعرف الأديرة الأرثوذكسية. ويزعم أنه يفهم في تربية وزراعة الفطر. ويعرف تخليل كل أنواع السمك وتدخينها، مثلما يعرف الخواص الطبية للأعشاب الجبلية وخضار الوديان. ويمكنه التحدث لساعات متواصلة عن مختلف أنواع السفن الشراعية أو أصناف الموز أو الورد. ولديه معرفة واسعة أيضاً بكل ما له علاقة بالأساطير والخرافات الشعبية. وتقدم حكاياته بناء هندسياً شديد المتانة والتماسك. ففضلاً عن الحدث، تُختزل فيها مظاهر المحيط الطبيعي والبشري: المناخ ـ سواء العام في البلد والمنطقة، أو المحدد بلحظة وقوع الأحداث ـ، والمشهد الطبيعي بنباتاته وحيواناته، ووسائل الاتصال والنقل، وأنواع الآلات والأدوات، سواء أكانت صناعية أم منزلية، وقيمة العملة، وأصناف الطعام والعادات المطبخية، وأشكال الثياب، والطريقة التي تتدرج بها العلاقات بين البشر، سواء أكانت علاقات عمل وتراتبية أم علاقات محبة وخصومة، وحتى المعنى الدقيق لبعض العبارات الاصطلاحية السائدة. وكانت هذه الزينات تبدو في أحيان كثيرة أهم ما في الحكاية. لكن تنوع مظاهر ما يرويه كان كبيراً جداً، حتى إنني كنت أستمع إليه فاغر الفم، مفتوناً ببراعته في القص. بل

---

[1] غوانو guano: سماد من فضلات الطيور يوجد بكميات ضخمة في بعض جزر المحيط الهادي وسواحل أميركا الجنوبية المطلة على المحيط نفسه، لاسيما في تشيلي والبيرو. وقد تصل سماكتها في بعض الأمكنة إلى عشرين متراً. وربما كان المقصود بها أيضاً أشجار النخيل، إذ تُطلق التسمية نفسها في بعض مناطق الكاريبي على أنواع متعددة من أشجار النخيل.

Twitter: @alqareah

رحت أؤجل، مرة بعد أخرى، تسليم روايتي له ـ وعلى الرغم من أن اختلاط الإحساسين: لهفتي لأن يقرأ الرواية، وخوفي من أن يجدها عادية، غير جديرة بأن يلقي رجل مثله مجرد نظرة إليها، كان يبقيني في حالة قلق رهيب ـ. كان يعرف أيضاً الكثير من الشخصيات المعاصرة المهمة. فكنت أهتم بالأدباء منهم، وأسمعه يقصّ عليّ تلك الحكايات بانتباه مفتون. وأقدر أنه في اليوم السابع من وجوده في بيت سوسانا، لأن زيارة بالاث استمرت أسبوعاً كاملاً على الأقل، حسمتُ أمري بتقديم روايتي إليه. كنت أحتفظ بها مرتبة بعناية في حافظة من الكرتون، مثبتة بشرائط مطاط سوداء. بعد الغداء ـ وقد تناولته في بيتي، لأن علاقاتي بسوسانا كانت تتضمن وجبات خفيفة محلية، وكنت أُفضّل الهدوء وأن أتجنب، قدر الإمكان، أن تجد الإشاعات لها مسوغاً بممارسات متباهية من جانبي ـ، حملت مخطوطتي وتوجهت إلى تروباخو ماشياً تحت الشمس الخانقة. كنت قد وضعت قبعة ذات واقية، وكنت أشعر بالشمس فوقي، فوق الشوارع المقفرة، تضغط الظلال والصمت إلى الأرض بكمال تزيد القسوة من لذته. وجودي تحت الشمس ووقع خطاي كانا الشاهد الحي الوحيد في عالم مستغرق في ذاته. عندما وصلت، وجدتهما في الفناء. كانا يغنيان معاً بصوت عذب، وكانت سوسانا ترافق الغناء بالعزف على الثامبونيا. كان الكمال هنا في الظل، تحت أوراق شجرة التين الكبيرة، وفي البرودة الملتجئة من الشمس الساطعة بين جدران السور والواجهة الخلفية. جلست إلى جانبهما واستمعت إليهما باستمتاع، سعيداً بكوني إلى جانبهما. وعندما انتهيا، قدمت حافظة أوراقي إلى بيدرو بالاث.

ـ هذه هي روايتي ـ قلت بصعوبة، لأن الصوت علق في الحنجرة.

ـ برافو! ـ هتف.

نظر إليّ بإمعان كأنه يريد قول شيء، لكنه أفلت أشرطة المطاط، وأبعد طيات المحفظة الكبيرة الثلاث، وقرأ العنوان بصوت مهيب. وكان بودي عندئذ أن أخبره بما يلخصه هذا العنوان: بأية طريقة، إذا كان للكلمات قوة الأفكار نفسها، ستكون قراءة العنوان، أو هذه الجملة وحدها، كافية للامساك بمضمون الرواية. ليس روايتي فقط، بل أي رواية، أي كتاب. وأن أخبره كيف أن كتابتها كانت، على الرغم من كل شيء، تقدماً في ضياع الفكرة الأصلية وتشوهها، تلك الفكرة التي كانت توقظني في منتصف

Twitter: @alqareah

الليل مدركاً أن البلبلة الكبرى في حدس ما يقلقني ـ البلبلة المتناهية نفسها التي تضطرني إلى محاولة صياغته كتابة وقوله للآخرين من خلال شيء متعارف عليه كالرواية ـ هي الحقيقة الوحيدة في المسألة كلها، هي الشعور الوحيد، شعور يبدو قادراً على الانفجار في داخلي ودَكّ الآخرين جميعهم، مالئاً كياني بدوار طاغٍ. وددتُ أن أقول له إنه في الصراع ضد الكلمات، تتردى معارفي الحدسية وتتشابك في الليل. وإن نهاية الرواية، وهي لم تكتمل بصورة ناجزة بعد، تُتوج بطريقة ما عملية انعدام الهوية هذه، والضياع المطرد الذي يتطلبه نقل الأفكار من الحدس إلى الورق. وددتُ أن أقول له كم أنا بحاجة إلى مساعدته كي أتوصل إلى أن لا تظل النهاية مقتصرة على حل آلي للحبكة، وإنما أن تحافظ، بعيداً عن القصة بحد ذاتها، على نبض حدسي الغريب والخفي نفسه. لكني لم أقل له شيئاً. أخرج النظارة من تلك العلبة المتطاولة وبدأ تصفح الأوراق ببطء. وبعد قليل، أعاد وضع رزمة الأوراق فوق المنضدة، واسترخى، ثم تناول الورقة الأولى وبدأ يقرأ باهتمام. رأيته يقرأ هذه الصفحة والتالية، ثم واحدة أخرى. كنت أتابع عينيه، تمتمات شفتيه الخافتة، حركات يديه، وأدركت أنه لا يمكن لي الاستمرار على تلك الحال، أنظر إليه وهو يقرأ روايتي. نهضت وقلت إنه عليّ إنجاز بعض الأمور في المدينة.

لم يسمعني، لكن سوسانا التي كانت تخلط أصباغاً في علب صغيرة، التفتت بشيء من المفاجأة.

ـ هل ستذهب الآن؟

ـ نعم ـ قلت ـ عليّ القيام ببعض الأعمال.

ـ ومتى ستعود؟

نظرتُ إلى بالاث الذي رفع عينيه ونظر إليّ بدوره. شعرت بالعصبية.

ـ غداً ـ قلت ـ غداً مساء.

وضعت القبعة ذات الواقية، ومضيت مرة أخرى تحت الشمس. مشيت بخطى سريعة حتى الكروثيرو، ثم سرت ببطء حتى وصلت إلى الجسر، وتأملت ماء النهر الأخضر القاتم والصيفي الضحل. وفي البعيد، جهة الشمال، كانت الجبال لا تزال تبدي صورتها الجانبية الثابتة والغريبة. وكان ماء النهر يتلمل في مجراه بعيداً، كما لو أنه يفقد مهابته، وسط مشهد البيوت والأنقاض، ويذرع البرك الصغيرة التي يبحث فيها الصبية عن شراغيف ضفادع

Twitter: @alqareah

وأسماك. ذرعت الجسر ببطء، وجلست أخيراً على مقعد. كنت أتخيل بيدرو بالاث يقرأ روايتي، بذلك البروز الخفيف في ذقنه الذي يتيح له جعل توجه عينيه عمودياً مع عدستي النظارة ومخطوطتي. وفي لحظات جولتي المتتالية، كنت أتخيل المواقع التي يجوبها قارئي العظيم. كنت أنظر إلى الساعة، مقدراً تطور القراءة، إلى أن داهمني إحساس واضح بانعدام التوافق، وانعدام التناسق، انعدام المواءمة، وشعرت بالعجز عن تقدير المرحلة التي بلغها في الرواية. انطلقت سائراً من جديد إلى أن تجاوزت جوسق باباالاغيندا. وابتداء من الجسر الآخر، كانت تتوالى برك الماء القاتمة والصبية الذين يلعبون. صعدت باتجاه المدينة، وتسكعت دون راحة. التقيت بعض معارفي، لكني أبعدتهم جميعاً معتذراً. كانت صورة بالاث وحدها تلح عل ذهني، وهو يقرأ أوراقي في الظل الهادئ في فناء سوسانا، بينما الحمائم تهدل في برجها القريب. مررت أمام الكاتدرائية، ومضيت نزولاً في شارع سان بيدرو، حتى وصلت الحرج، قبالة لاكانداميا، في المشهد نفسه الذي يريد جانب من تخييلي الروائي أن يتذكره. هذا النهر ينحدر أكثر امتلاء، لكنه متسخ أيضاً بطحالب البرك الراكدة. وعندما أردت التنبه، كان الغروب يحل هناك، وراء الكاتدرائية. عندئذ أدركت أنني قد دخلت منذ ساعات في حالة خاصة من التجريد، في حالة غريبة من السير نائماً جعلتني أنسى الوقت، وحتى سبب جولتي الطويلة. ربما يكون بالاث قد أنهى روايتي. ولكن من المحتمل جداً أن تكون استراحة قد قطعت القراءة - دون أن يعني ذلك، بالضرورة، أنها لم تعجبه - وبينما كان البريق الضارب إلى الحمرة آخذاً بالانطفاء في ما وراء المدينة، قررت العودة إلى البيت. تصور حضرتك: أمضيت تلك الليلة في اضطراب عصبي شديد. ومع ساعات الفجر الأولى، انهمر ماء سحابة صغيرة، ووسط وميض البرق ودوي الرعد، هويتُ في حلم زخم أعادني إلى جلسة ما بعد الطعام في بيت سوسانا، بينما هي تعزف على الثامبونيا ألحاناً صاخبة، تبعث عل الصمم، وبيدرو بالاث ينظر إليّ بإمعان. ومن خلال زجاجتي نظارته - وهما ضخمتان مثل عدستي تكبير -، كانت عيناه قد استبدلتا بشرغوفين صغيرين يُحتضران بضربات بطيئة من ذيليهما. وعلى الرغم من امتلائي بالجزع، أجبرت نفسي على الانتظار إلى ما بعد انقضاء الصباح. وبعد تناول الغداء، انطلقت ماشياً تحت شمس لا ترحم - ربما ستعود سحابة اليوم الفائت لتتكرر، لأن الأفق كله، في

Twitter: @alqareah

الشمال، كان يتزين بحاشية سوداء مطرزة وهائلة ـ. وكنت لا أزال أفكر في مساعدة بالاث المفترضة لي، وأفاجأ بأفكاري في مساء اليوم الفائت نفسها، وهي تبدو الآن ثمرة ضربة شمس سخيفة. ما كنت أحتاج إليه هو قاض خبير في مادة الأدب ـ وهكذا هو بالاث دون ريب ـ يساعدني على إعداد نهاية أفضل لروايتي، والحسم في ما إذا كان أبطالي يعانون نوعاً من التحول الجسدي الذي يتوجب تقديمه بصورة أوضح ـ كيف ستكون ملابسهم، على سبيل المثال، هل ستكون ثياباً كل ثوب منها موضوع بصورة صحيحة داخل الآخر، مثبتة جيداً ومتداخلة، لكنها فضفاضة، خالية من الحجم الحقيقي لشاغلها الذي فقد فجأة كتلته المعهودة، فبدت كما لو أنها تبخّرت بصورة مباغتة، ربما تحوّلت إلى مادة الهواء غير الملموسة نفسها ـ أو إذا ما كان يكفي الإبقاء عليهم مثلما هم، والإيحاء فقط ـ مع كل ما في ذلك من غموض ـ بأن التحول لم يكن جسدياً بقدر ما هو روحي. وكنت أحتاج أيضاً من بالاث، وهو الخبير الكبير بالأمكنة والبيئات المختلفة والمتناقضة، أن يحكم إذا ما كان بنائي جيداً، من وجهة النظر الأدبية، للعالم الذي شيدته بمزيج من ذكرياتي ومعلومات كتابية من دليل قديم جداً، ومن بطاقات بريدية عن منطقة غريبة ومجهولة. وهكذا، كما لو أنني أستعيد بهذه الصورة بالاث الأمس وأمحو صورة كابوسي المبهمة، أجبرت نفسي على تذكره مثلما تركته في اليوم السابق، مستغرقاً باهتمام ملحوظ في قراءة مخطوطتي. صعدت عبر الطريق العام المقفر ووصلت أخيراً إلى الباب. لكني فوجئت بأن الباب لم يكن مغلقاً وحسب، وإنما هو مقفل بالمفتاح أيضاً. عندئذ رفعت المقرعة ـ وهي حلقة حديدية كبيرة ـ وقرعت بها الباب، إلا أن أحداً لم يأتِ لفتحه، وكان عليّ أن انتظر قليلاً، حتى بعد أن كررت القرع، كي أتأكد من أن شيئاً غريباً يحدث. لم يكن هناك شيء يتحرك تحت الشمس في الشارع المقفر. عندئذ قررتُ الالتفاف إلى الباب الآخر للبيت، وسرت حتى الزقاق الضيق الذي يقود إلى الأفنية والزرائب الخلفية. كانت البوابة الكبيرة مغلقة، ونظرت من خلال ثقب القفل: ظهر الفناء خاوياً وهادئاً. قرعت خشب البوابة ودوت ضرباتي بضعف تحت الوهج الحار. ولكن تبين لي أنهما لم يُقفلا الباب بالمتراس من الداخل، وعندما دفعته، استجابت ألواح الباب بالعادة الوديعة.

ـ سوسانا ـ ناديت، متعجباً من الصمت.

Twitter: @alqareah

لم يكن هناك أحد. وبعد وقت قصير فقط، بعد أن جبت الممر والحجرات عدة مرات بقلق يشبه قلق طفل تُرك وحيداً لوقت طويل، أدركت أن البيت خاوٍ، وأن الاختفاء منه لم يقتصر على سوسانا وبيدرو بالاث، وإنما طال كل الأشياء: محافظ الرسوم، وتيجان الأعمدة، وأكياس النوم، والصناديق، وحامل اللوحات، والمدفأة، وأدوات المطبخ. بل إن الحجرة الأخيرة التي شكلت خلال تلك الشهور كلها إسطبلاً للبغلة، كانت خالية من التبن، والمجلى القديم فقد مظهر المعلف الذي ميزه طوال شهور. وحتى مصابيح الإنارة نفسها اختفت. كان يمكن الظن أن ذلك البيت مهجور منذ زمن طويل، مع أنني كنت أعرف أنه في اليوم السابق، في مثل هذه الساعة، كان مسكناً مأهولاً. لقد اختفى كل شيء، ما عدا كتابيّ بيدرو بالاث وحافظة روايتي، وقد وجدتها موضوعة بعناية على رف الفرن القديم.

❖ ❖ ❖

ظللتُ حائراً عدة أيام. لم أفهم في البدء حقيقة ما حدث. عدت مرتين أخريين إلى البيت المهجور، ووصلت إلى التفكير في أن كل شيء كان حلماً، وأن سوسانا لم تكن هنا قط، ولا لوحاتها، ولا قربة الجلد المعلقة بحبل إلى جانب الفرن، ولا الحصيرة في أحد الأركان. كتابا بيدرو بالاث وحدهما يثبتان واقعية الأحداث. وبعد ذلك، راحت حيرتي تتحول إلى شعور بالمهانة والغضب. فعلى الرغم من أن سوسانا كانت قد نبهتني في عدة مناسبات إلى أن علاقتنا ليست خاضعة لأي شرط، وأن كلاً منا حرّ كالريح وفي أي يوم يريد أي منا الانفصال، يمكنه عمل ذلك دون تقديم أي تفسير، إلا أن الظروف التي جرت فيها الواقعة بدت لي غير لائقة بسلوكي معها. لقد تعرضت علاقتنا الحميمة كلها لخيانة فظة بذلك الرحيل دون أسباب ودون إشعار. إن رسالة قصيرة منها كانت سترضيني. وكان ذلك الصمت كفعل احتقار صلب ومفاجئ. أما بشأن بيدرو بالاث، فقد بدت لي طريقته في ترك الرواية، دون أن يترك معها أية ملاحظة نقدية، دليلاً واضحاً على قلة الإعجاب الذي قرأها به، إن كان قد قرأها، وإشارة جلية إلى الازدراء. وأخيراً بدأت أرتاب في أني هدف لحظ غير مفهوم. كنت أتذكر مارثان تلك الليلة المدريدية، وهو ينفي بدرامية وجود بالاث والطريقة التي أقنعني بها بذلك، وتذكرت بعد ذلك بالاث وهو

Twitter: @alqareah

ينكر على ابن عمته أدنى ميل إلى الفكاهة. ومع ذلك، بدا لي أن مفتاح السخرية يكمن في ذلك التناقض، على الرغم من عدم إمساكي بأسبابه. هكذا انتقلتُ من الحيرة والغضب إلى الشك بوجود مؤامرة ساخرة، تسلطت على عقلي فكرة معرفة الأسباب، وضرورة كشفها، حتى صارت في داخلي أقوى كثيراً من مشاعر الحب المُحبط أو الكبرياء الجريحة. حصلت على نقود وإذن من عمي. وقد منحني الإذن على مضض، كمقدمة للتأنيب في المستقبل دون ريب. خرجت ليلاً، في قطار البريد، ولم أحمل أية أمتعة سوى الكتابين اللذين تركهما لي بدرو بالاث. كان الخريف قد بدأ، غير أن أجواء صيفية كانت لا تزال تطغى على المشهد الطبيعي. وكان القطار نصف فارغ، فنمت طيلة الليل تقريباً. واستيقظت فجأة، عندما كان الفجر يبزغ على الهضبة التي يلفها حرُّ الجفاف القاسي الطويل. وسرعان ما وصلنا مدريد، ولم يكن يتحرك في المدينة سوى قليل من المارة الذين يبدو عليهم النعاس. توجهت سيراً نحو بيت مارثان. كانت مصابيح شارعه لا تزال مضاءة، وكانت نافذة الطابق الأول، حيث المكتبة الكبيرة، مفتوحة ومضاءة وتخرج منها أنغام بيانو لا يمكن الخطأ فيها. وبدل أن أضغط الجرس، طرقت عدة مرات بمقرعة الباب التي لها شكل يد تمسك بكرة. توقفت الموسيقى وأطل مارثان نفسه من النافذة وخرج إلى الشرفة.

ـ من الطارق؟ ماذا تريد؟

ابتعدتُ عن واجهة البناء ونظرت إليه من الشارع دون أن أقول شيئاً. يبدو أنه تأخر لحظات في التعرف عليّ. وهتف أخيراً بضع كلمات كان لها رنة المفاجأة، بالرغم من أنني لم أستطع فهمها. فتح مارثان نفسه الباب الخارجي. وفي الدهليز المظلم، كانت الأشياء الحساسة تلمع كأنها نذور دينية. صعدنا إلى الطابق العلوي ودخلنا المكتبة. وأمام المقاعد، على المنضدة الصغيرة، كانت هناك أطباق فيها طعام، وكأنها بقايا العشاء. وفي المنافض تتكوم أعقاب سجائر وسيجار، ويطفو في جو الحجرة كلها ذلك الهواء الكثيف والزنخ قليلاً الذي يلي سهرة طويلة. أشار مارثان إلى تلك الفوضى:

ـ كان عندي بعض الأصدقاء. استغرقنا في الحديث. ورأينا بزوغ الفجر. لم أقل شيئاً.

ـ كنت ذاهباً إلى النوم ـ قال مارثان.

Twitter: @alqareah

أدركت أنه عليّ أن أحول دون ذلك. كان لا بد لي من أن أوقفه فوراً. فذلك الاستقبال الهادئ لا يمكنه أن يغطي كل شي، كما لو أنه لم يحدث شيء غير طبيعي أو غريب.

ـ انتظر ـ هتفت ـ لقد وصلت للتو بالقطار. وقد جئت للتحدث إليك فقط.

كان مارثان ينظر إليّ بعينين مغمضتين من النعاس. شرب بضع رشفات ماء من كأس كبيرة. أجبرته على الجلوس من جديد وأنا أجذبه من ذراعه بقوة.

ـ أريد أن نتحدث عن بيدرو بالاث.

فرقع مارثان لسانه بانزعاج.

ـ مرة أخرى؟

نظرت إليه بغضب.

ـ سوسانا رحلت مع بيدرو بالاث. لقد أقام بالاث عندها سبعة أيام.

ـ سوسانا؟

ـ إنها صديقة لي. رحلت مع بالاث دون أن تقول شيئاً، وحتى دون داع.

ـ مع بالاث؟

ـ مع بيدرو بالاث. وهو رجل أصغر منك سناً، له شعر رمادي وشارب شديد السواد.

بدت عليه الحيرة.

ـ هذا مستحيل.

كان يرفع نبرة صوته قليلاً، كأنه يؤنبني. لكن تردداً واضحاً بدا في حركاته وفي صوته.

ـ بالاث لا وجود له. أنا من اختلقته.

عندئذ أريته الكتابين.

ـ وهذا؟

نظر أولاً إلى الغلافين. فأشرت إلى اسم المؤلف بإصبعي. قرأه واصطبغ وجهه بالحمرة.

ـ هما الكتابان اللذان أعطاني إياهما بيدرو بالاث.

والحقيقة أن وجه مارثان الذي استرد لونه الرمادي المألوف، بدأت تتعاظم عليه تكشيرة اضطراب. ظل يقلّب الكتابين بعض الوقت. وأخيراً، نهض بحركة حاسمة. كان يمسك الكتابين بكلتا يديه بقوة، كأنه يسيطر

Twitter: @alqareah

فيهما على قوة طبيعية لا يمكن تصورها، لكنها فعالة.

ـ إنني مشوش الذهن. لا بد لي من رؤية الأمر بترو.

ظل صامتاً للحظات، ينظر إليّ بخوف غير محدد، كأنه يخشى ألا أسمح له بالذهاب. وتبدت في صوته بحة السهر الطويل.

ـ سأنام في إغفاءة قصيرة. هل تريد أنت أيضاً أن تنام قليلاً؟

نفيتُ برأسي. فحيّاني برأسه ومضى متيبساً وهو يشدّ الكتابين إلى صدره. أحسست فجأة بجوع شديد، فرحت ألتقط قطع الجامبون، واللحم المدخّن المتبقية في الأطباق. كان النبيذ ساخناً ولزجاً. بعد تناولي الفطور، تأملت تلك القاعة بانتباه مدقق. باغتني الآن إحساس قوي بعدم الواقعية، تقبله إنهاكي باسترخاء عذب. كان الدخان المستقر في الأركان يطمس منظور الأشياء، كما لو أن بعض جوانبها قد اختفت أو أن بعض الأثاث قد صار أطيافاً، مانحة الحجرة هيئة ديكور أُعد بتسرع، مع أماكن غير منجزة نهائياً. وفي الصباح، كانت القاعة أيضاً توحي بأنها أكثر ضيقاً: بدا كما لو أن الجدران والسقوف قد صارت أقصر فجأة في مواجهة الضوء المنحرف الذي يخترق الستائر. وفجأة، أظلم البيت بشدة، وراحت بعض الحمائم تهدل كأنها توشوش. وفكرتُ أن هناك في الشارع أشكالاً مجهولة تتربص بي. بدا كما لو أن كل شيء معادٍ لي، وأحسست بأنه من الضروري أن أذهب فوراً. نمت وقد غلبني النعاس. أيقظني مارثان. كانت الحجرة مرتبة، وكنت مستلقياً على الصوفا يغطي جسمي دثار خفيف. وفي النافذة المغمورة بالشمس، كانت تلمع أوراق نباتات الأصص وأزهارها.

ـ حان وقت الغداء ـ قال.

كانت غرفة الطعام فسيحة أيضاً، وكان ضوء الظهيرة يضفي على الأثاث هيئة المشهد المسرحي نفسها. بدا مارثان جدياً جداً، وعلى شيء من القنوط. جلسنا إلى المائدة، وراحت امرأة شاحبة الوجه، ترتدي زياً رسمياً صارماً، تقدم لنا سلسلة من الأطعمة اللذيذة. لم يكد مارثان يتذوق شيئاً من أطباقه. كان ينظر إليّ ساهماً وهو يمر بالإصبع الوسطى من يمناه على حافة كأسه.

ـ كيف هو؟ ـ سألني.

ـ لقد أخبرتك. ذكرني بذلك الرسم: شعر قصير نصف أشهب، أنف

Twitter: @alqareah

كبير، شارب أسود، والحاجبان أيضاً، ورقبة ثخينة.

ـ والجسد؟

ـ ضخم. لكنه ليس طويلاً جداً. بدا أضخم مما هو عليه بسبب الثياب التي يرتديها. بنطال من المخمل وسترة. وينتعل صندلاً.

اكتسب وجهه هيئة درامية.

ـ إنه بالاثيّ الذي اختلقته ـ تمتم ـ. هكذا تصورته. وماذا عن صوته؟

ـ خشن. يتكلم ببطء. ويستمع جيداً. ـ أجبت.

لم يقل شيئاً آخر. وبعد الانتهاء من تناول الطعام، جلس على كرسي هزاز، قبالة الشرفة، ولم يشرب القهوة. كان يدخن سيجاراً إثر سيجار دون أن ينظر إليّ، وهو غارق كما يبدو في تأملات عميقة. بدا ذلك الخمود الذي يعانيه مارثان صادقاً بصورة لا تقبل الشك، وراح قلقي يتهاوى بلطف، سامحاً ببروز مشاعر أخرى أكثر رهبة. لم أجرؤ على الإلحاح في أسئلتي، وحين تلاقت نظراتنا، قام بحركة كأنها إيماءة انقباض، إيماءة ذعر، فيها حذر عميق، قلق معكر. وفكرتُ للحظة أنه سيفضي إليّ بسر.

ـ وماذا قال عني؟

حاولتُ ألا أحرجه.

ـ إنك لستَ محباً للمزاح. وإنه لا يمكن لك أن تقول مازحاً، ما قلته عن أنه لا وجود له. وقد استغرب الأمر كثيراً.

نهض واقفاً. كان خرج من ذهوله، غير أن تكشيرة قلق كبير بدت على وجهه.

ـ الجو يبرد ـ قال ذلك فقط.

ـ أنا ذاهب ـ هتفت ـ سأعود إلى بيتي هذه الليلة.

لم يجب. كان قد سحق عقب السيجار في المنفضة وأشعل سيجاراً آخر راح يمصه بقوة، محيطاً رأسه بسحب من الدخان. وكان بريق محموم يشع من تينك العينين الباسمتين ظاهرياً. خرجت من القاعة، نزلت السلّم وسرت في الشارع. كان الغروب يضفي لوناً ذهبياً على الطوابق العليا، ومن الإسفلت يتدفق ضياء لطيف ضارب إلى الزرقة.

رأيت أحد السكارى يتشبث بعمود نور ويشكو. أخبرني موظف ذو بشرة رمادية، وبين أسنانه فجوات كبيرة، بأن هناك قطاراً ينطلق في العاشرة

Twitter: @alqareah

والنصف. اشتريت بطاقتي ومشيت متردداً على الأرصفة، ثم قررت بعد ذلك أن أجلس لحظة في إحدى القاعات. أخرجني من إغفاءتي تبدلٌ في الضوء أو تعديل خاص في هواء الصالة ذاته. تلك المرأة الطيبة المتكورة التي تلبس السواد وتمسك بيديها المعروقتين قارورة ملفوفة بورق جريدة، ربما تكون عيّنة من أجل تحليل طبي قد يكشف عن أمراض مرعبة لا شفاء منها، وذلك الرجل المنهوك برأسه ذي الشعر المتفرق المكلل بقبعة بيريه صغيرة وباهتة منطبقة على قمة جمجمته كأنها غطاء، نقلا إليّ باطراد عدوى وضعهما الواهن نفسه. ظللتُ في القاعة المظلمة كما لو أنني في مكان مخصص للتأمل، وعندما اختفت المرأة الطيبة حاملة الزجاجة والرجل خائر القوى، بقيتُ وحيداً تماماً، الرؤية الملحة للمقاعد الطويلة، وضجة حركة القطارات، والرسائل الصوتية التي تبثها مكبرات الصوت ذات الخنين وغير المفهومة، والصفير، أحاطت بي كلها بقوة ورأيت رؤيا فريدة لما يحيط بي: بدا لي أن كل شيء يشف وسط ذلك الضوء الشاحب بحيث يوحي بجو غامض شبحي. وهكذا، حيال ذلك الحدس، تتحد كل المشاعر التي راحت تجتاحني على امتداد الأيام الأخيرة، الدهشة والتشنج، وأحسست بأسى كبير وخامرتني شكوك فظيعة بالمستقبل.

قطع الربان قصته من جديد.

ـ سانتا مرغريتا ـ قال ملتفتاً برأسه.

كانت الشمس منخفضة جداً، وخفّتت ظلال ضفاف القناة حدة التلونات الداكنة والفاتحة. وبينما هو يشعر بشيء من البلبلة من تلك القصة، رأى كيف أن الرجل الملتحي الذي كان يتبادل الحديث مع زوجته منذ لحظات، ينهض ويُخرج أمتعته من تحت المقعد. كانت أحزمة تثبيت الأكورديون محلولة، فرنّ فجأة رنّة تشبه أنّة بشرية.

كان رصيف المرسى مصطبة ضيقة من ألواح خشبية تستند إلى جذوع نخرة. والمنحدر الذي يليه يُصعد عليه بمشقة، بالاستناد إلى حفر، لها شكل درج بدائي، تبدو كأنها قروح قديمة في الأرض القاتمة. وإلى يمين المرسى، حاجز من الخشب يحدد قبالة النهر فسحة شبه دائرية يرتع فيها عدد من الخنازير السوداء. وفي الجانب الآخر، جماعة من الصبية شبه العراة يلعبون

Twitter: @alqareah

بصخب في الماء. ساعد أولئك الصبية في جرّ المركب ليرسو. نزل الرجل الملتحي إلى الرصيف، وناوله الربان حزم الأمتعة، ثم صعد أيضاً. وأخذ يربط الحبال بعناية.

ـ هل سنتوقف هنا؟

نظر إليه الربان بعينيه اللتين صارتا شديدتي الحمرة.

ـ دقيقة واحدة فقط. عليّ أن آخذ بعض الغرينغيين. لقد جاؤوا لصيد أسماك السابالو والروبالو. الطائرة الصغيرة تنقلهم إلى هنا ويتابعون بقية الرحلة معنا. إنهم يأتون مرتين في السنة.

وهكذا ظل هو وزوجته وحيدين في المركب الذي كان يتأرجح بنعومة. كان صدى ضجة المحرك لا يزال يتردد في رأسه، ولكنه كان يسترد الصمت، مع ذلك، من خلال أكثر الأصوات مباشرة: قُباع الخنازير، وأصوات الصبية، وارتطام الماء الخفيف بالضفة.

ـ إنك تستمتع على أحسن وجه ـ قالت له باسمة.

أومأ هو بحركة استسلام.

ـ إنه محب للكلام. يحكي ويحكي ويحكي.

بحثت هي في حقيبتها، وقدمت له أخيراً سندويتشاً ملفوفاً بورقة.

ـ لا بد لك من أكل شيء.

فك اللفافة وقضم الخبز الذي صار يابساً.

ـ لا بد أن السيد الملتحي كاهن ـ علقت الزوجة.

تأكد الآن من أن الصبية كانوا يصطادون. وأنهم يتناوبون في استخدام نظارة غطس تالفة جداً، استُبدل حزامها المطاطي بحبل. كانوا يغطسون ويعودون في النهاية إلى السطح ممسكين سرطانات كبيرة قاتمة، شديدة الزرقة، وكلاباتها الأمامية طويلة بصورة غريبة. وفكر مجدداً في أن رطوبة هذا التوقف اللزجة، بعد النسيم الدافئ خلال إبحار المركب، وكمية الكحول المفرطة التي تناولها، تثير فيه دون ريب صور هذيانات غائمة. مثل جوزة الهند التي بدت له رأساً بشرياً من قبل، أو الركاب الذين تحولوا فجأة إلى جثث. وبالطريقة نفسها، كان لتلك السرطانات هيئة حيوانات ممسوخة، مستحيلة سواء بألوانها أم بضخامة أطرافها. وفكر في أن الفتيان ليسوا من يصطادونها، وإنما هي من تجر أجساد الصبية خارج الماء.

Twitter: @alqareah

ـ كاهن؟

ـ إنه ذاهب لزيارة إرسالية سانتا مرغريتا، وهو قادم من دير سانتو كريستو دي إسكيبولاس. وقد حدثني عن معابد في أمكنة كثيرة. يعرفها جميعها.

مدت يدها. ولمعت في راحتها ميدالية معدنية صغيرة.

ـ لقد قدم إليّ هدية.

ـ بقليل من الثرثرة الإضافية، كان يمكن لك الاستحواذ على رجل الدين.

أطلقت ضحكة وألقت الميدالية في حضنه. فضم ساقيه غريزياً والتقط الميدالية.

ـ إنها تحمل صورة سانتياغو دي غالي ـ قالت.

أما هو، فبدت له، فجأة، تلك الصورة المركبة غريبة إلى حدّ الاشمئزاز، مثلما بدت له غريبة ومجهولة هذه المرأة الجالسة إلى جانبه. عبر دوارٌ قصير تفكيره، وأعاد إليها ذلك الشيء الصغير دون أن يقول شيئاً. فقبّلته المرأة وخبأته في محفظتها بين مناديل ورقية وقوارير كولونيا صغيرة ودبابيس شعر. وكان «هو» ينظر بافتتان إلى ذلك الترتيب الدقيق الذي يبدو أن تعويذة مضادة لسحر اللاواقع والأحلام والكوابيس تتطور فيه.

ـ هل تعجبك الرحلة حقاً؟

التفتت إليه بوجهها وداعبت خده لحظة بيدها.

ـ ألستِ متعبة؟

ـ المكان باهر الجمال. النباتات كلها، وهذه الأزهار.. والعصافير.

لم يكن جائعاً. ألقى إلى الماء ببقية السندويتش. فانفتح عند سطح الماء الموحل فم ضخم، كأنه كان ينتظر، والتهم بقايا الخبز بقضمة مبقبقة. واختفت مرة أخرى، في تيار الماء القاتم، شفتا ذلك الفم اللتان ما كادتا تظهران.

ـ كل شيء بديع، أجل ـ أجاب ـ لكنها رحلة طويلة. بطيئة. ولا أدري في أي ساعة سنصل.

لفّ الصبية السرطانات الكبيرة في شبكة وانصرفوا مخلّفين على وحل الضفة آثار أقدامهم الحافية، وقد تحولت إلى برك ماء صغيرة تلمع على ضوء الغسق. تعالت أخيراً ضجة أصوات في أعلى المنحدر، ونزلت جماعة رجال حتى

Twitter: @alqareah

المركب. إنهم الأمريكيون الشماليون دون شك، أربعة رجال ضخام، شقر الوجوه، يحملون قصبات وأدوات صيد السمك. ويحمل أمتعتهم صبيةٌ آخرون، يشبهون أولئك الذي كانوا يستحمون ويصطادون. صعد الرجال إلى المركب، فجعلوه يتأرجح بقوة. حياهما أحدهم بإسبانية سيئة النطق. واجتمع الرجال الأربعة بعد ذلك عند مقدمة المركب وهم يتمازحون ويصيحون. كانوا يعتمرون واقيات شمسية كبيرة، ويمضون مكشوفي السيقان. أعطى الرجل الذي يتكلم الإسبانية بعض القطع النقدية للصبيان الذين غادروا المركب.

ـ إيه، أين صاحب المركب، ماذا حدث؟ ـ سأل الأمريكي.

توقف الصبية عند منتصف المنحدر. وبدا عليهم الارتباك حيال تلك الأسئلة، كما لو أنه يؤنبهم على ذنب اقترفوه. تبادلوا النظرات في ما بينهم، ثم اندفعوا راكضين واختفوا.

ـ عليكم اللعنة ـ هتف الرجل.

أطلق قهقهة مدوية ثم علّق بشيء ما مع رفاقه الذين جاروه في ضحكه. وأخيراً جلسوا على المقعدين الجانبيين اثنين منهم في مواجهة زميليهما.

ازدادت زرقة الظل، وكانت أصوات الغابة تتعالى من بعيد. ومرّ بعض الوقت قبل أن يعود الربان. سمعوا وقع خطواته في أعلى المنحدر، ورأوه يتوقف ساكناً، وحافظة الثلج البلاستيكية الكبيرة معلقة بذراعه.

ـ إيه! ـ صاح به الأمريكي ـ لا تتباطأ، يا معلم. لقد تأخر الوقت كثيراً.

صعد الربان إلى المركب دون أن يتكلم. كان فيه الآن شيء من الخدر، وكان ينظر بعيني شخص نفور ومشاكس. فك الحبال وحرّك المركب مبتعداً عن الوحل. وعبروا، بصورة غير متوقعة، منطقة خالية من الظلال، مضيئة كما لو أن شعاع شمس متوحد يضيئها.

جلس الربان في موقعه، وراح يقود المركب دون أن يدير رأسه. بدا كما لو أن ذلك يشير، من جهة، إلى أن تلك المحادثة الطويلة قد انتهت، وإن يكن بصورة مفاجئة، وأنه «هو» قد استرد الحرية والصمت. غير أن موقف الربان كان ينطوي، في الوقت نفسه، على تعاسة واضحة أقلقته. ظل يرقبه لمسافة طويلة. وأخيراً نهض واقترب منه. فنظر إليه الربان بطرف عينه.

ـ لقد كان مارثان ـ قال.

ولم يفهم ما يعنيه.

Twitter: @alqareah

ـ إنه مارثان ـ كرر الربان ـ الرجل الملتحي هو مارثان.

وفكر هو: «وماذا يعنيني ذلك». كان يحاول الآن العودة إلى مقعده، والهرب من تلك الورطة الغريبة. لكن الربان استرد حيويته وصار ينظر إليه بعينين محمومتين.

ـ كان يسير أمامي وتوقف فجأة، نزع نظارته. إنه متبدل الهيئة كثيراً بسبب الشعر الكثيف، ولكنه مارثان دون ريب. ناديته: «مارثان!»، فالتفت فوراً مستجيباً للنداء.

«عليك أن تبتعد عنه» فكر. «ابتعد عنه، عد إلى مقعدك.» لكنه ظل دون حراك.

ـ وصلتُ إلى جانبه وكررت اسمه. أعاد عندئذ وضع النظارة من جديد وسألني إن كنت أريد شيئاً. فقلت بإلحاح: «هل أنت مارثان». أجاب: «المعذرة، إنك تخطئ بيني وبين شخص آخر».

ـ أولم تكن مخطئاً؟

ـ لا. إنه هو، متخفٍ جداً، لكنه هو. مارثان.

كانت امرأته قد اقتربت منهما باسمة، لكنها حين سمعت صوت الربان المتشنج بدت جدّية، مرتبكة.

ـ هل حدث لك شيء؟

نظر إليها الربان. وتكلم أخيراً بتكشيرة ابتسامة غامضة.

ـ أحضرتُ مرطبات للسيدة.

ـ لماذا أزعجت نفسك ـ هتفت هي.

ـ مرطبات للسيدة، ووقود لبقية الطاقم ـ أضاف الآخر. وكان يغمز بعينه. وقد بدت واضحة جهوده للسيطرة على نفسه. وكان يمسح العرق الغزير بمنديله الكبير.

ـ الحرارة في سانتا مرغريتا هي حرارة الجحيم نفسها ـ أضاف.

كان «هو» وإيليثيا قد جلسا بجانب كابينة الربان. فتحت هي علبة مرطبات وشربت منها بحذر، رافعة رأسها وواضعة يدها تحت ذقنها. أما هو، فكان لسانه منتفخاً، وحلقه يؤلمه من شدة الجفاف. ولم يكن يرغب في تناول المزيد من الكحول.

ـ لا ـ قال باندفاع ـ أنا لن أشرب أكثر.

Twitter: @alqareah

ـ لا تقل لي إنك ستتشق عني الآن ـ هتف الربان.

كان قد وضع قطع ثلج في كأس بلاستيكية وراح يسكب فوقها جرعة كبيرة.

ـ لا أريد أن أرى رؤى.

كان على وشك ألا يقول ذلك، لكنه أحس أنه مرغم على وضع العقل بصرامة في مواجهة أي شطط، مهما بدا واقعياً ومحتملاً. هزّ الربان رأسه كما في بدايات ردّ فعل عنيف، ولكنه تنهد بعد ذلك، وزم شفتيه وابتسم.

ـ إنه يُخلط بالمرطب ليصبح أكثر خفة.

لم يجبه «هو». كان يمسك علبة المرطب في يده بقوة، ويحس برودتها كإشعاع حارق في راحته. رفع الحلقة، ونزع صفيحة السدادة، وشرب دفعة واحدة، بجرعات عميقة ومتلهفة، وأخيراً تنهد.

ـ لا أريد أي خلط. كنت عطشان.

أشعره الشراب البارد بأنه على ما يرام. وعلى الرغم من أن أنفاس القنوات، من جهة أخرى، مازالت رطبة وساخنة، إلا أن غياب الشمس الكامل أتاح هبوب برودة غير محددة من بين الأشجار، تزوبع أحياناً متقاطعة مع اتجاه المركب. خرجت أليثيا من كابينة الربان، مثبتة نفسها ببراعة، وجلست أمام نافذة كبيرة، عند المقدمة بالضبط، وأسندت قدميها إلى الحافة. أطل «هو» من فتحة الباب.

ـ أأنت بخير؟

ـ رائع ـ أجابت ـ هنا لا يُسمع صوت المحرك. تعال.

ـ سآتي فوراً ـ أجاب.

لكنه لم يفعل. كان الربان قد أمسك بذراعه، وأسرَّ إليه.

ـ ربما لم يكن مارثان. كانت الشمس منخفضة جداً وبهرت بصري.

وكيف يمكن أن يكون هو. وما الذي أتى يفعله هنا.

وكرر الربان الفكرة.

ـ طبعاً، ما الذي أتى يفعله هنا.

تأهب «هو» للخروج من الكابينة.

ـ لا تذهب ـ قال له الربان ـ كدت أنهي الحكاية. لم يبق سوى القليل. سأحدثك عن نونيا. وكيف انتهى الأمر.

Twitter: @alqareah

تـردد «هـو». وأوشـك أن يقـول إنـه يريـد الـذهاب إلى امرأتـه، لكنـه ظـل صامتاً. ومع ذلك، بقي يقف وظهره مستند إلى إطار الباب الصغير. أشار الربان فجأة إلى نقطة حيث يقطع الغابة تيار ينحدر عمودياً على القناة، ويصب ماءه فيها.

ـ أترى هذا النهر؟ فـي قرية أجدادي يلتقي نهران. والتقاؤهما يتطابق مع هـذه الحالـة. وهنـاك توجـد نباتـات كثيفـة أيضاً: أشـجار حور أسـود، وبتـولا، وصفصاف، وتوت بري، وسوجر. وفـي بعض الأحيان، عند مروري من هنا، أظن نفسي في القرية مرة أخرى، في يوم صيفي، ربما وأنا طفل.

ظل صامتاً للحظة.

ـ كما في تلك الرواية.

عندئذ أطل «هو» من الباب ونادى زوجه التي أدارت رأسها. كان النسيم قد وردّ خديها، لكن شعرها كان مرتباً تماماً.

ـ سآتي حالاً ـ قال لها ـ. فور انتهائنا من الحديث. الآن بالذات.

نظرت هي مرة أخرى إلى الأمام ورنت ضحكتها كصدى طائر بين أشـجار الضفاف التي خلفوها وراءهم ببطء، حيث السلاحف الساكنة برؤوسها المرفوعة فوق أعناقها الأفقية، تبدو أنها تنتظر، وهي ذاهلة أيضاً، حدوث شيء ما.

Twitter: @alqareah

VI. عند نهاية المساء

سأحدثك عن نونيا. كنت أعرفها منذ الطفولة، بحكم الجوار. وكانت آنذاك طفلة شعرها أسود سبط، أطرافها نحيلة، يزيد شحوبها من حدّة زرقة زيها المدرسي القاتمة. ذلك الشحوب ونحولها كانا يميّزانها ويمنحانها هيئة يمكن الظن أنها مَرَضِيّة، لكنها أثيرية أيضاً، كأنها منعدمة الوزن. أظن أن علاقتي الحقيقية بها بدأت قبل عام من ظهور سوسانا. ومن اللقاءات الجماعية مع أصدقاء آخرين من الطلاب، تحولنا إلى ثنائي متهرب وسري يتواعد على لقاءات اضطرارية في دور السينما، أو القيام بجولات مسير طويلة في بابالاغيندا والشوارع المنعزلة. كنت أحس نحو نونيا بحب يملؤه حنين غامض وأكتب لها قصائد كثيرة، وأُذهل بسذاجة وأنا أجد في أشعاري أصداء مؤكدة لأشعار أخرى مشهورة تتغنى بالمشاعر نفسها. كان حبي عفيفاً، وعنيفاً في القلب فقط، دون ذرّة واحدة من أي لهفة أخرى سوى أن أكون إلى جانبها، استنشق بعمق حضورها الصامت والوديع الذي يفيض بكثير من الأمان. أجل، كان عندئذ، وقد صرت بلا سوسانا، عند عودتي من زيارتي الثانية لمارثان، أن أحسست بوضوح بالملمس الجليدي لألم حزين يتسرب دون مقاومة في أعمق الأركان. كان الفجر يبزغ في السهل، وكانت خطوط ضباب أفقية، ضاربة إلى البياض، آخذة بالتحلل ببطء فوق الأرض البنفسجية والرمادية، بينما السماء تصطبغ ببريق ضارب إلى الحمرة: كتلة قطن ضخمة موضوعة فوق جرح هائل، في عزلة قاتلة، استباقاً لفرغرينا غير متناهية. في ذلك البُعد الشاحب، وبدا لي أني أجد انعكاساً لحالتي. عندئذ فكرت في أن كل ما جرى لي طوال تلك الشهور، وإن كان حقيقياً، له مظهر وهمي وغير معقول، وقوام أشبه بقوام الأحلام. كنت أشعر بأني ضائع، مبعد، مهجور، بفعل أسباب تبدو استجابة لمتطلبات حبكة محظور عليّ بالكامل معرفتها. وفي مساء اليوم نفسه الذي وصلت فيه، من جهة أخرى، كلمني عمّي بصرامة بالغة. فقد كانت نتيجة الفصل الدراسي كارثة، وكان مصمماً على أن أعمل إلى جانب الدراسة، بمساعدته في المساء، خلال

Twitter: @alqareah

الفصل الدراسي الجديد. ومع أنني كنت أحب التصوير الضوئي كثيراً، ومع أن قرار عمي كان حاسماً في الحقيقة في تحديد ما ستكون مهنتي الأولى في ما بعد، إلا أن فكرة فقدان الحرية اليومية، ورؤية نفسي مضطراً إلى التخلي عن جلسات الحديث مع الأصدقاء، وعن جولاتي في الحيّ الرطب، جعلتني أشعر بأن الفصل الجديد أشبه بعقوبة جزائية. وانبعث حبي لنونيا فجأة بكل قوته. كانت ذكرى الأشهر الماضية قد انطفأت بسرعة انطفاء نار الهشيم، وبدأت الجمرة القديمة بالتأجج من جديد. أدركت أن سوسانا كانت تجربة، وهي تجربة مهمة في حياتي، إلا أن لها مع ذلك تلك الخاصية العابرة التي تميز الأمور مكتملة الانجاز. مشاعري الغرامية الحقيقية كانت عند نونيا، وإليها عدت بندم زاد من احتدام حبي لها. حاولت الاتصال بها ولم أتلق جواباً. فقررت عندئذ الاقتراب منها ذات مساء، لدى خروجها من معهد الموسيقى. لكن نونيا كانت باردة معي، وحتى عدائية. ظننتُ أنه مجرد غضب عابر، وأن ندمي واهتمامي سيتوصلان أخيراً من استعادتي ينبوع عاطفتها الهادئ. لكن تبين لي أن نفورها وابتعادها نهائيين، ولم تستطع رسائلي الكثيرة، ولا إلحاحي في ملاحقتها، أن تبدل من ازدرائها لي. وهكذا بدأ ذلك الفصل الدراسي الأخير، بحب متجدد لا يجد له صدى، وبواجب مزدوج في الدراسة والعمل مع عمي. وقد فتح ازدراء حبي تمزقات أسى في وعيي لم أعرفها من قبل، لأن الحنين إلى جسد سوسانا جعلني أعي جسد نونيا، فكنت أشتهيها بعدم ارتواء مؤلم.

أما العمل مع عمي، فكان في الحقيقة طويلاً ومتنوعاً جداً: العناية بتوجيه الضوء بصورة جيدة، وتهيئة الشرائح، وتظهيرها وفق أوقات محددة وبمواد وسوائل تمزج بدقة وباهتمام بالغ. وبدأت كذلك بلمسات الرتوش، فكنت أقضي ساعات طويلة وأنا أظلل شفاهاً جافة لتبدو ريانة، ولمنح بريق حيوية لبعض العيون، وتنعيم خدود، وإخفاء شعر ما بين الحواجب. وكانت الوجوه الأنثوية تذكرني، بألم لا مفر منه، بوجه نونيا. وفي يوم قاتم، عند عودتي إلى البيت ليلاً، قيل إن لدي رسالة هاتفية. كانت الرسالة ببساطة رقم هاتف، واسم مارثان، وعبارة حثٍ مستعجلة. وعندما اتصلت، سمعتُ صوت مارثان الأجش، وكانت العصبية واضحة فيه، يستجوبني من الجانب الآخر للخط.

Twitter: @alqareah

ـ أهذا أنت؟ ـ سأل.

ـ طبعاً أنا ـ أجبت.

ـ يجب أن أراك فوراً. تعال في أول قطار، أو الحافلة، غداً في الساعة الثامنة.

عندئذ أدركت أنه، من أجل راحتي، لا بد من اختفاء مارثان من حياتي، بالطريقة نفسها التي تقبلت بها رحيل سوسانا، على الرغم من حزني، كحدث يحرّرني من قلق متعاظم.

ـ انظر حضرتك، ـ قلت ـ أنا مشغول. لا يمكنني السفر بهذه البساطة.

كنت جافاً. أقرب إلى الوقاحة، تكلمت بفظاظة. وتخيلتُ تينك العينين الزائغتين والمحاطتين بمئات التجعدات. لابد أن فمه كان ملتصقاً بالجهاز، لأني سمعت لهاثه.

ـ عليك أن تأتي. الأمر في غاية الخطورة. وهو يعنينا كلينا.

ـ لا أستطيع حقاً ـ أجبت ـ كما أنني لا أملك نقوداً.

ـ سأرسل إليك حوالة الآن.

كان في صوت مارثان رنة كدر، وما يشبه الذعر، إضافة إلى أنه يوحي بوجود مستجدات مقلقة.

ـ عليك أن تجيء، دون إبطاء.

ـ لا أدري إن كنت أستطيع.

عندما وصلتني الحوالة، تقبل عمي على مضض ذرائعي للسفر. لكني كنت قد عملت خلال تلك الشهور، ولن تبعدني الرحلة عن البيت سوى يومين يتوسّطهما يوم أحد، وكنت مصمماً على لقاء مارثان آخر مرة، كي أنهي علاقتي به إلى الأبد، وأغلق هذا الفصل شديد العبثية من حياتي، حيث كان له هو نفسه، مع سوسانا وبيدرو بالاث، أرجحية كبيرة. وحين وصلت إلى بيته، وسط الشوارع المقفرة والهادئة، استقبلتني امرأة مختلفة عن الخادمة المعهودة. لم تكن تلبس زياً، وكانت مبالغة في المجاملة.

ـ أنا أخته ـ أوضحت لي ـ المسكين ليس على ما يرام. وقد اضطررتُ للمجيء من أجل العناية به.

ـ أهو مريض؟

Twitter: @alqareah

ـ إنها أعصابه ـ قالت لي المرأة بما يشبه المناجاة ـ لقد كان مرهف الأعصاب على الدوام.. منذ طفولته.

كان مارثان في مكتبته. وبدت في الحجرة الكبيرة علامات تشير إلى أنها تستخدم بصورة متواصلة: آثار تزييت أصابع فوق السطوح الملساء. وقصاصات ورق وفتات خبز متناثر على السجادة. وفجوات في الرفوف، بين الكتب التي أزيحت دون ريب لوضع غرض محتمل. وآثار تراكم بعضها فوق البعض تضفي مزيداً من المعقولية على مظهر ديكور غامض غير منته بالكامل. وكان وضع الأثاث قد تبدل أيضاً: فالمقاعد تستند الآن إلى الجدار، وهناك في المنتصف فراغ كبير مغطى بكتب وأوراق. كان مارثان جالساً على الأرض، فوق بعض الوسائد، يرتدي ثوباً بيتياً أصفر من الدمقس، وذقنه غير حليقة، وشعره منفوش وشاربه كثيف جداً. لا بد أن إهمال مظهره قد أثّر أيضاً في بعض عاداته السابقة، لأني رأيت في شعره، وكان يخلو من الشيب حين عرفته، شريطاً ضيقاً باهتاً في السالفين والقذال.

ـ أخيراً ـ هتف حين رآني.

لم يدعُني إلى الجلوس. كان يحمل بكلتا يديه كتب بالاث، كأنه يقدّم أدلة إدانة بجرم رهيب.

ـ مرعب ـ قال.

ولا بد أن مظهري المتعب دفعه إلى التفكير. كنتُ قد قمت برحلة مريعة، مع ساعات من التأخير، في قطار مزدحم. وكنت أشعر بأني متسخ بالعرق، وتُنهكني شدة النعاس.

ـ أرغب في الاغتسال ـ قلت.

أنزل الكتب ببطء. أشار إلى أخته بإيماءة من رأسه، وجلس مجدداً على الوسائد بفظاظة، مستسلماً للسقوط. قاطع ساقيه، وظل دون حراك، مثل رسم كاريكاتيري لفقير هندي. عندما رجعت، نهض وأمسكني بقوة من ذراعي.

ـ اجلس ـ قال لي.

توجه إلى إحدى الخزائن وبحث في الأدراج السفلى. وعاد بثلاث محافظ كبيرة ممتلئة بأوراق، وألقى بها على الصوفا بجانبي.

ـ أنظر هذا ـ هتف بلهجة آمرة وهو يقدم لي إحداها.

فتحتُ المحفظة مشوشاً. كانت مترعة بمخطوطات ممتلئة بالشطب

Twitter: @alqareah

والتصحيح. وبدأ هو بتقليب الأوراق باندفاع متنامٍ، وكان يتلفظ في الوقت نفسه جملاً قصيرة، غير مترابطة، تبينتُ فيها أخيراً عناوين مقالات بالاث. انتزع مني بعد ذلك المحفظة، وأزاحها جانباً بقوة، ثم تناول المحفظة الأضخم وألقى بها إليّ.

ـ هاهي الرواية السعيدة. والصورة التي تحاكي رسماً لبيكاسو!

جثا على ركبتيه أمامي، وبطنه مشدود إلى ركبتيّ، مثلما يفعل العشاق أمام سيداتهم في بعض الأيقونات الرومانسية. لكنه لم يمسك يديّ. بل أرخى يديه على جانبي جسمه في هيئة من توسل.

ـ أنا من اخترعت بالاث! أنا كتبت مقالات بالاث ورواية بالاث. وليس في ذلك أية سخرية.

أربكني وضعه ذاك. حاولت أن أبتعد، لكن جسده كان يثبت جسدي بقوة. ظل على تلك الحال للحظات أخرى، مدركاً أن ذلك يزيد من سلطته. ثم نهض بعد ذلك برشاقة، التقط الكتابين عن الأرض، وجلس إلى جانبي.

ـ هل قرأت هذين الكتابين؟

الحقيقة أنني لم أكن قد تصفحتهما. فأكبرهما بدا لي واحداً من تلك الكتب العلمية الصارمة التي يتطلب الاقتراب منها استعداداً خاصاً كحماسة من يواجه مرجعاً أكاديمياً يتوجب عليه التعمق فيه وحفظه؛ أما الكتاب الآخر فكان بلغة إنكليزية صعبة جداً. أضف إلى ذلك أن اختفاء بالاث المفاجئ برَّد تماماً حماستي السابقة لأعماله.

ـ لم يُتح لي الوقت ـ قلت.

ـ أولم تلق عليهما مجرد نظرة؟ ـ هتف مطلقاً زفرة نفاد صبر.

لكنه استعاد على الفور هيئة الصبور المسيطر على نفسه التي ظهر بها عند وصولي. أراني المخطوطة الضخمة وراح يقلب أوراقها. كانت تتخللها قصاصات صغيرة موضوعة كعلامات، وكان كثير منها مطوياً، من الجانب العلوي أو السفلي. وكانت هناك، في بعض الصفحات، خطوط حمراء تحت السطور. قرّب الكتاب مني، ورأيت أن الخطوط الحمراء تشير إلى بعض أسماء العَلَم.

ـ أنظر! ـ قال صارخاً.

وهناك كان اسمانا: اسمه واسمي. قرأت النص المرافق لاسمي بسرعة،

Twitter: @alqareah

لكنه كان مرتباً بطريقة غامضة على نحو خاص، ويصعب فهم معناه بالكامل. وكان إلى جانب اسم مارثان بعض الجمل المفهومة ـ لعلها عناوين كتبه ـ ونص غامض أيضاً إلى حدّ يخلو معه من المعنى. قلّبتُ الصفحات ووجدت أسماء عديدة، كثيرة منها مألوف لدي من خلال موضوعات اهتمامي وهواياتي، وكلها لها صلة بشؤون الأدب.

ـ إنها كلمات، أسماء ـ قال مارثان ـ لا رأس لها ولا أساس. لا وجود لقصة، ولا تسلسل زمني، ولا نقد، لأنه لا وجود فيها لأي سياق مترابط. إنها مجرد أسماء وعناوين مختلطة بكلمات. ألا تتخيل أحياناً، وأنت بين النوم واليقظة، قصيدةً أو قصة، وترى بافتتان أنها الكمال المطلق، كما لو أنها حصيلة وحي خاص من ربّات الإلهام؟ ألم تكتشف فور يقظتك، إن كنت قادراً على التذكر، أن إلهامك الإلهي في الليل ليس إلا تراكم مفردات غبي لا معنى لها؟

على الرغم من تفخيمه في الكلام، لم يتخلَّ مارثان عن إبداء شيء من حدة الذكاء. أومأت برأسي موافقاً. كان حديثه يتحول من التفخيم إلى الرصانة.

ـ يبدو أن فكرة سرنمة تتحدد في هذا الكتاب. ترسيخ حلم يقظة مسائي غامض. شيء خاص من أضغاث أحلام نوم- يقظة ثقيلة.

تناول الكتاب الآخر وقربه من عيني أيضاً. لا شك في أن صورة الغلاف تُذكّر بجمجمة.

ـ إنه بالإنكليزية. ومضمونه يُقدم بالطريقة الفوضوية نفسها. مجرد مفاهيم مصطفة بعضها إلى جانب البعض، دون تماسك أو قوام. أسماء أعلام وتواريخ متداخلة في هراء غير مفهوم. والعنوان نفسه يخلو من أي معنى، وإن يربط اسم الرب بكلمة جمجمة.

ظلّ ممسكاً بالكتاب قريباً جداً من وجهي، وقرّب وجهه كثيراً، بحيث لم يعد الغلاف الخلفي يتيح غير إطلالة عينيه. أظهر الكثير من الحذر في صوته.

ـ هذا سخف. هذا مستحيل.

أبعد الكتاب فجأة، مثلما يزيح المشعوذ المنديل الذي يخفي المفاجأة الحيّة.

Twitter: @alqareah

ـ هما شبحا كتابين فقط: غلافان وصفحات لا تتضمن إلا مفاهيم مبعثرة. العناصر الخاملة لنصٍ مازالت فكرته غير متخيلة.

بعد ذلك، وبصورة مفاجئة، بدأ يتصفح الصفحات باندفاع مجنون، كان في هذه المرة أشبه بهياج محتدم، حتى وصل إلى النهاية، حيث تظهر مجموعة خطوط تشديد بالأحمر تحت السطور. وكانت مختلف مقاطع الكتاب تبدأ في صفحات فرديّة، وتعلوها جمل عناوين مكتوبة بحروف كبيرة الحجم. إنها إشارات مارثان وملاحظاته في المقطع الأخير. وهي تشير، بين ذلك الكلام المبهم الذي يمكن فهم ترابطه، إلى عدة كلمات يمكن فهمها فوراً: اسم مارثان، وبيدرو بالاث، وسوسانا، وحتى اسم نونيا.

ـ واسمك موجود أيضاً ـ قال ـ هنا، وهنا.

كان يشير إلى الفقرات. وأشار أخيراً إلى الكلمات الأخيرة في ذلك النص الغريب.

ـ وهنا. في نهاية كل شيء. اسمانا غارقان في كتلة لغة بلا قوام، وسط أشد المفاهيم اختلاطاً، مثل هذه الأشياء المنزلية التي تبدي بصيصاً من هويتها وسط ركام الأنقاض.

وإلى هيئة مارثان الغريبة، المتبدلة كثيراً بفعل الفكرة المتسلطة على عقله، انضمّت الآن رعشة خاصة. لاحظت أنه لم يعد يدخن. يمكن أن يكون هذا هو السبب في جانب كبير من عصبيته. لكن مطالبته بالانتباه كانت تجبرني بصرامة على متابعة كلماته حتى بدأت أشعر بألم في رأسي. لم أشتق قط مثلما اشتقت حينذاك إلى مدينتي وأصدقائي، وحتى إلى ملاذي المتواضع في البيت، تلك السقيفة التي لعبت وقرأت فيها لسنوات طويلة، تحت الضوء الفضي الذي ينسكب من كوة السقف. أردت الانصراف. أن أقول له وداعاً إلى الأبد، وأذهب إلى المحطة لأستقل أول قطار. أمسك بي مارثان من كتفي وهز جسدي هزات خفيفة، لكنها متحمسة.

ـ المسألة ليست في الانصراف يا فتى ـ قال ـ ربما لم يعد ثمة وجود لذلك القطار، ولا للمدينة التي تريد العودة إليها. وربما لا وجود حتى للشارع الذي كان هنا في الخارج. وحياتنا نفسها، من جهة أخرى، ألا تبدو في بعض المناسبات كما لو أنها تُروى لنا أكثر مما نعيشها؟

Twitter: @alqareah

بدأ مارثان يخيفني. كان في صوته قناعة طاغية، قادرة على تشويش عقلانيتي.

ـ حاول أن تتذكر كل شيء.

ـ كل شيء؟ ـ سألته.

وفجأة، بينما كنت أسأله عرفت ـ وهذه المعرفة أيقظت فيّ فكرة أني ربما كنت أنا نفسي أخفي بعض الحقائق الرهيبة ـ ما الذي يعنيه. وبدأت أتكلم. ردَّدت الذكرى الحية التي رويتها لك من قبل.

ـ ما حدث قبل ذلك اليوم اجتمع في ذاكرتي ككومة مختلطة ـ قلت ـ أتذكر بوضوح بار كاستريّو، والرفوف الممتلئة بالزجاجات، بينما كانوا يناولونني قصاصات الصحف تلك.

ـ مقالات بيدرو بالاث ـ تمتم ـ وماذا بعد ذلك؟

ـ لم أعد أعرف إذا ما كان في اليوم نفسه. لا أظن ذلك. التقيت بسوسانا. وكانت عربتها قد علقت في بركة وحل. عربة تجرها بغلة، في هذه الأزمنة.

ولأن الخريف كان قد تقدّم كثيراً، فقد انطفأ المساء سريعاً. فاجأتني الظلمة وأشرت إشارة غير محددة إلى المصباح. نادى أخته، وانتصبت هيئتها فجأة في أحد أطراف القاعة، ودون أن تنطق بكلمة واحدة، أشعلت الضوء وأغلقت النافذة قبل أن تنصرف.

ـ تابع، يا فتى، تابع ـ شجعني مارثان.

استبعدتُ كل ما كنت قد رويته له، كل ما حدث منذ أن تلقيت مقالات بالاث حتى ذلك اليوم. وعلاقتي بسوسانا، والرحلة الأولى إلى مدريد، ولقائي الأول به حين خيب آمالي ببالاث، والعودة إلى البيت ومجيء بالاث نفسه ومعه كتبه؛ واختفاء بالاث وسوسانا، والرحلة الثانية إلى مدريد؛ والعودة الثانية، والرجوع إلى نونيا قاسية ومخاصمة. ومشاكلي في بيت العم واتصال مارثان الهاتفي الذي جاء بي للمرة الثالثة.

ـ وكيف كانت حياتك من قبل؟ أتتذكّرها بهذا الوضوح؟

هززت كتفي ولم أقل شيئاً. وبالفعل، كان عليَّ أن أبذل جهداً كي أتذكّر بعض الأحداث، في هبّات قصيرة مباغتة. كان كل شيء بعيداً، قاتماً، مشوشاً.

Twitter: @alqareah

ـ ألا تكون حياتك السابقة لم تحدث قط، وإن ما وجد فقط هو هذا الذي تظن أنك عشته في السنة الأخيرة؟

لم أفهم، في البدء، ما قاله. وبعد ذلك، نفيت بحركة قوية من رأسي: فقد تواردت للتوّ إلى ذهني، في توالٍ سريع، سلسلة من صور الطفولة التي لا علاقة لها بالرجل الذي صرتُ إليه: صور أمسيات البحث عن الأعشاش، والاستماع إلى الكبار يتحدثون في المطبخ، واللعب مع الأطفال الآخرين في الشارع. تذكرتُ بحيوية نونيا الطفلة، أمام الكاتدرائية، مرتدية ثوب منشدة في الكورال، وراقصة مع الأخريات تلك الرقصة الغبية. لكنه كان يكلمني بذلك الوقار الذي يتوجب على الأنبياء والعرّافات أن يضفوه على كلامهم.

ـ قد تكون ذكرياتك هي الأخرى تخييلاً تتصوّره أنت نفسك الآن ـ قال مخمناً مرة أخرى ما كنت أفكر فيه.

كان ضوء المصباح يضفي بريقاً على جبهته.

ـ لقد راجعتُ حياتينا، يا فتى. أو تحولات حياتينا بكلمة أدق. الحقيقة أن لها طابعاً روائياً. إنها لا تبدو حقيقية.

وكان أن أدركتُ عندئذ أن مارثان مجنون تماماً.

واصل الكلام بينما الارتعاش يهز يديه أكثر فأكثر. وإلى هيئته كعرّاف مذعور، أضيف مظهر الراوي الذي يتصنع المواقف، بتكشيرات وإيماءات ملائمة، في قصّة مخيفة. وكنت أستمع إليه دون أن أنبس ببنت شفة.

ـ مجرد تحولات، حصيلة هذيان لعوب، وربما هي محكومة بمصادفة نهاية متقلبة أيضاً.

دخلت أخته الحجرة، اقتربت منه وهمست: «إنه هنا مرة أخرى». وأجاب هو ببضع عبارات لم أسمعها جيداً أيضاً، لكنه كان يحاول، دون ريب، نزع الأهمية عن شيء ما. « لا تأبهي به». لكنها عادت تستعجله بكلمات وإيماءات. « لا تسمحي له بالدخول.» وخرجت هي مجدداً بكثير من جلبة الثياب، وظلّ مارثان دون حراك لبعض الوقت، مشتّت الأفكار، قبل أن يواصل ذلك المونولوج. كانت يداه ترتجفان بصورة متعاظمة، كما لو أنه تعرض لصدمة، لكن صوته كان ثابتاً ولم يُلمح أدنى قدر من عدم التماسك في سياق القصة.

Twitter: @alqareah

ـ بدأ تحولي المفاجئ منذ ثلاثة أعوام، في اليوم الذي أتصوره مزحة أدبية: التلميح من خلال إحالات قصيرة عامة إلى السيرة الزائفة لإسباني تائه، نسيه المتخصصون. كان ذلك هنا بالذات، عشية أحد الأعياد. وكانت تُسمع من بعيد فرقعة الألعاب النارية. كان الوقت ليلاً. وهذه الذكرى محفورة بدقة في دماغي. كان الهرّ ينظر إليّ كما لو أنه يدرك مشروعي. وفي تلك الليلة بالذات أخبرت ذلك كله بالهاتف لصديق صحفي، وقد تلقّى الفكرة بابتهاج. كانت البداية ببعض الأخبار المقتضبة المتفرقة، تشير إلى جوائز مزعومة، وحضوره مؤتمرات مهمة، وتصريحات له حول أحداث ثقافية. ورحت أتحمس بعد ذلك للفكرة. صرت أضع نفسي مكان الشخصية التي اختلقتها، وصارت تخطر لي أفكار ما كانت لتخطر لبالي من قبل. وهكذا بدأت المقالات تخرج، واحداً بعد آخر، وأسبوعاً بعد أسبوع. ولم أكن أنا مؤلفها، وإنما تلك الشخصية المتخيلة التي حلّت فيَّ فجأة. ينتقد، يتغطرس، يفيض بالتسلط والحكمة. وبطريقة المقالات نفسها، كتبتُ الرواية في كنف نوع من أدب الأحلام، متذكّراً حكاية سمعتها وأنا طفل عن مهاجر أخفق في مشاريع الإثراء، ولم يجرؤ على العودة إلى قريته.

كان فمه جافاً، وتلمظ عدة مرات مفرقعاً بلسانه قبل أن ينادي أخته ويطلب منها أن تأتي بزجاجة نبيذ.

ـ وبعد ذلك ظهرتَ أنت. وأنت تعرف ما تبقى كله. تسألني عن بالاث، لكني أخدعك. إلى أن قلت لي في أحد الأيام إن شخصاً تتفق ملامحه كلها مع ملامح بالاثي الذي اختلقته بنفسي، قد ظهر ككائن حيّ يسمي نفسه بالاث.

مما لا شك فيه أن جنونه يستند إلى قناعات راسخة، لأنه كان يتكلم بثقة كاملة.

ـ أقسم لك إنه لا وجود له. أقسم لك. عندما سألتني عنه قلت لك الحقيقة. ولم أستسلم لإغراء منح الأسطورة مزيداً من القوة. إضافة إلى أنني كنتُ أشعر بفتور الهمة.

وكما في تلك المرات السابقة، كان الليل قد خيم بصمت على المدينة، وكان بالإمكان الإحساس بأنفاس بطنه غير المتناهي. وكان مارثان جامداً تماماً لا يحرك سوى شفتيه، مما كان يوشي حديثه بتخمينات وقورة.

Twitter: @alqareah

ـ عندئذ بلغت عقدة قصتي ذروتها: ظهور الشخصية التي اختلقتُها.

دخلت المرأة حاملة زجاجة وكأسين، ووضعت كل ذلك أمامنا على الأرض. وقدمت إلى مارثان فتّاحة زجاجات، فقدمها إلي.

ـ هيا، افتحها ـ قال.

عندما سحبت سدادة الزجاجة، فاح النبيذ، وهو نبيذ فاخر دون ريب، برائحة منعشة صارت أشد زخماً وإلحاحاً عند ملء الكأسين. شربنا ونحن نتبادل النظر دون أن نرمش. لقد كان في ذلك المجنون شيئان على الأقل يستحقان التقدير: براعة في حبك خدعه، ومستودع نبيذ جيد التنوع. لقد خمّن أفكاري مرة أخرى بذلك الحدس الخاص لدى بعض المرضى العصبيين.

ـ أقول لك إني لست مجنوناً، يا فتى. لقد جئتَ أنت بهذين الكتابين. ويبدو أن بالاث الذي اختلقته قد اكتسب حياة خاصة. لا يمكنني فهم ذلك.

أخذ ينحني ببطء حتى ترك الكأس على السجادة، ثم استقام بالطريقة نفسها.

ـ أدرس الكتابين وأتحقق من شذوذهما ـ لأني لا أجرؤ على وصفهما بالخداع ـ. لكن اسمينا موجودان هنا.

لمس جبهته بإصبعين، كما لو أنه يوصل مقبساً كهربائياً فريداً.

ـ وأفكر. أستغرق في التفكير. وبعد ذلك أخبرك متى بدأت أشعر بالخوف. في البدء كنتُ قلقاً. يهزني خوف غامض في بعض اللحظات، لكني أنكر الخوف، وانتظر أن يكون هناك تفسير ما لكل شيء. أقارب المسألة من خلال تحليل منطقي خالص، وأبدأ بتقدير السوابق التي تعززها الأحداث. حتى أدركت أنني أمام لغز شروطه متناقضة: إما أنني أنا، آنستاسيو مارثان لوباتو، من أبدع شخصيّة تُسمى بيدرو بالاث، وصورته، وسيرته، وأعماله، بل إنني وضعت في المطبعة مجموعة مقالات منسوبة إليه ورواية، وإما أن بيدرو بالاث موجود حقاً وله أعمال لا أعرفها، بعض نماذجها تتبدى في هذين الكتابين. فإذا كانت الفرضية الأولى هي الحقيقية، فإن الثانية لا يمكن مجرد طرحها. وإذا كانت الفرضية الحقيقية هي الثانية، ألا يكون الأكثر ملاءمة لي هو وضع الكاتب المختلق؟ ولا يمكن للفرضيتين، منطقياً، أن تكونا حقيقيتين. حيال مثل

Twitter: @alqareah

هذا الخيار ليس هناك متسع إلا بالإجابة بأنه إما أن هناك تزويراً، أو أن هناك خطأ.

المرأة التي ظلّت واقفة قرب النافذة، مستغرقة في مشهد من الشارع، سألت إن كنا نريد أن تأتي بشيء للأكل. وافق مارثان بهمة.

ـ نعم، يا امرأة، هاتي، هاتي شيئاً. فالطعام، على الأقل، لا ينقصنا.

رطب فمه برشفتي نبيذ، وتابع التكلم ببطء متزايد، حتى بلغ حداً بدا معه أنه ينطق الكلمات مقطعاً مقطعاً.

ـ إلا إذا كان ذلك كله ينتمي إلى واقع مختلف، إلى واقع وهمي من نسج الخيال فقط، حيث للمنطق أبعاد أخرى وقوانين مختلفة. لكن هذه الفكرة جعلت الخوف الذي كنت أحاول إبعاده ينقض عليّ بارداً. فإذا كان الأمر كذلك، إذا كان تفكيري صائباً، فلا بد لنهاية كل قصة من قصصنا أن تفترض نهاية شخصياتها، مع عواطفنا وتقلباتنا ومغامراتنا. فنهاية الحدث هي نهاية كل شيء.

ـ من المعروف أننا جميعاً سنموت ـ قلتُ.

ـ هذا يصح على الأحياء ـ أجاب ـ وهي ليست حالتنا. فنحن لسنا أحياء. نحن لا وجود لنا.

لم أشأ معارضته. لا شك أنه بلغ نقطة عدم توازن خطيرة جداً. أفلت الكأس وأحاطني بأحد ذراعيه من الخلف.

ـ ألا تعرف تلك الوحدات في المسرح الكلاسيكي؟

جاءت أخت مارثان بصينية مترعة، واكتشفتُ عندئذ أنه لا شهية لدي تقريباً. فقد كانت اهتمامات ذلك الرجل المرضية تسمّم مخيلتي. كانت المكتبة تبدو، بوضوح متزايد، كشبح ديكور قديم مُخَزّن في قبو مظلم بالمظهر الذي ربما ستكون عليه ذات يوم، بعد أن يكون الزمن والموت قد مرّا علينا جميعاً، وبعد أن تكون تلك الكتب قد عرفت تحولات حركة بيع متعاقبة تنتهي بها إلى التراكم، مهملة، في الحجرة الخلفية لمكتبي يتاجر بنصوص قديمة.

ـ إنها عرضٌ وعقدةٌ وحل ـ قال مارثان ـ وإذا كنتُ على صواب، فإن حلّ قصتينا صار وشيكاً.

Twitter: @alqareah

بذلت جهداً لأتمرد، لأنهي ذلك المونولوج الجنوني الطويل. نظرت إليه متحدياً.

- ما هي قصة بالاث إذن؟ أين الوحدات الثلاث فيها؟

كان شعره منتصباً، لكنه يلمع من العرق مع ذلك. بدا لي أني أرى في عينيه شرارة سخرية. ولا ريب في أنه كان قد طرح على نفسه ذلك السؤال بالذات. وكان لديه جواب عن كل شيء.

- بالاث هو *deus ex machina*[1] لكل التشابك، وإن كان لا يظهر ليهيئ حلولاً سعيدة - إذا ما كنتُ على صواب، فإن الحل يعني الفناء، الاضمحلال، النهاية - وإنما ليركّب مختلف الأحداث، مختلف العقد المتنوعة. وقصة بالاث، إذا كان كائناً حياً حقاً، فإنها ستكون بطريقة ما أقل القصص روائية: يعود لعدة أيام إلى بلده الأصلي، يتعرّف إلى أناس، وفي النهاية يرحل مرة أخرى ليواصل محاضراته وفصوله الدراسية في مدن بعيدة وراء البحار.

نهضتُ واقفاً. وحين تحركت، بدا لي الجزء الأقصى من المكتبة التي في مواجهتي قد استبدل بطبقة جدار دائري من الآجر، لكني لم أشأ النظر إليه بإمعان. كنت أحاول التكلم بأقصى ما يمكن من الهدوء، كي أتجنب استثارته.

- انظر، سأذهب إلى الفراش. وغداً، في الصباح الباكر، سأعود إلى بيتي. وأنت يجب أن تذهب للنوم أيضاً. وجهك يبدو في حال سيئة.

غاصت التكشيرة المتشنجة في تجاعيد عينيه، وانبسط في شفتيه ذلك التقطيب الذي حافظ عليه لساعات. وأخيراً تنهد بتقبل غريب.

- اذهب للنوم، يا فتى. لم يعد بإمكاني إخبارك بالمزيد. أما أنا فما زال عليّ أن أضبط بعض الخيوط المفلتة.

وفجأة، خارت قواه. أحنى رأسه، وغطى وجهه بيديه وانخرط في البكاء.

- كيف يمكن لي أن أكون موجوداً؟ - راح يقول -. أنا لا وجود لي حتى في هذه الساعة، لستُ سوى ظل يتجرجر وسط هذيان الظلال.

---

[1] *deus ex machina*: تعبير لاتيني يعني حرفياً: «إله يجري إنزاله بواسطة آلة». ويستخدم هذا التعبير في المسرح للإشارة إلى إنزال شخصية خارقة إلى المنصة بواسطة آلة. أما المعنى المجازي للتعبير فهو التدخل السعيد وغير المنتظر لشخصية تحلّ موقفاً مأساوياً.

Twitter: @alqareah

قادتني أخت مارثان إلى غرفة نومي، وتأخرت في تهيئة السرير. ومن خلال تلك الغشاوة التي تتملكني، بدا لي أنني أرى فيها حركات داعرة، كما لو أنها راغبة في أن توجه إلي رسالة جسدية. لكني بعد سفر الليلة السابقة، وتأخر القطار الكبير، وساعات السهر الطويلة بعد ذلك، لم أكن قادراً على أي شيء سوى النوم. وعندما انصرفت المرأة، خلعت ملابسي، واندسست في الفراش وغرقت فوراً في النوم كأنني أغرق في سائل كثيف، لا يسمح لي تعبي بالخروج منه. ومن تلك الأعماق، بدا لي أنني ألمح أحداثاً غير متوقعة تجري على السطح، وأن هناك من يرفع الصوت منادياً مارثان، وأن خطوات تصعد إلى الطابق العلوي وتتجه نحو المكتبة. كان قاع حلمي ممتلئاً بشرائط كبيرة ذات لون بنفسجي تمتد عمودياً، وتتلوى كطحالب في دوامات الموج؛ وكنت أرقد بين تلك التفرعات كما في مرج بعيد ذي طوبوغرافيا غامضة؛ لكني كنت أسمع هناك في الأعلى، بعيداً جداً، الخطوات التي تدخل إلى المكتبة، وصوت مارثان يطلق صيحة، يئن بجملة طويلة تحمل معنى الرفض، عدم التصديق. لا أدري إن كانت أصوات عنف، أصوات تكسر خزف أو بعثرة أغراض. كانت الشرائط الطويلة تتلوى والمرج البنفسجي كله يحيط بي كأنه فراش وثير. أكان هناك بعد ذلك صوت جرجرة، وضربات على السلّم؟ أم إنها حركة النسيم تهز أغصاناً غير مرئية ويصطدم بعضها ببعض؟ ظللت نائماً لساعات عديدة بين ذراعي الليل البارد. أيقظني الإحساس بهزة قوية، كما لو أن الأرض قد اهتزت. وإلى الظلمة الكثيفة كانت تصل ضجة ضربات، وهمهمة عميقة تتردد أصداؤها. وفجأة، دوت صرخة مهولة من امرأة، صرخة طويلة كأنها ولولة. نهضتُ قافزاً وتوجهت إلى حجرة المكتبة. كانت خزائن الكتب الكبيرة مقلوبة، وفوضى غريبة تسود أرض الحجرة المضاءة، على نحو غريب، بتأرجح مصباح السقف الذي أصابه، دون شك، سقوط خزانة الكتب، وبضوء الفجر الضارب إلى البياض. لا بد أن من تسبب بذلك التخريب هو مارثان، ولكنه لم يكن هناك. وكان صوت أخته يأتي من السلّم. اندفعتُ راكضاً نحو بسطة السلّم المظلمة. كانت المرأة تشير إلى أعلى. وبعينين محتقنتين، ووجه شاحب إلى حدّ صار معه داكناً، كان مارثان معلقاً من عنقه بحبل مربوط إلى الدرابزين، في الأعلى، حيث ينتهي السلم عند باب البرج. كان يخبط

Twitter: @alqareah

برجليه، ويطلق غرغرة غامضة، ويرفع يديه إلى حلقه وكأنه يريد التخلص من الأنشوطة المحكمة.

ـ سكين ـ صرختُ أحث المرأة ـ أحضري سكيناً أو شيئاً يقطع.

لم تتأخر سيارة الإسعاف في المجيء. كانت عربة رمادية كبيرة، تحتل عرض الشارع كله تقريباً. وضع شابان قويان جسد مارثان على محفة قماشية وأدخلاه إلى السيارة. وصعدت المرأة أيضاً إلى العربة، وظللتُ وحيداً في منتصف الشارع، وسط ذلك الفجر الجليدي. بدأ الجيران الذين استيقظوا على الضجة إغلاق نوافذهم، وبعد لحظات قليلة كان الفجر قد هيمن على كل شيء من جديد، وراح الحيز ما بين الجدران وأعمدة النور يستعيد هدوءه، وكأن الواقعة التي جرت للتو لم تحدث قط. عُدتُ إلى المكتبة. وفي وسطها، في منطقة خالية من الكتب الممزقة والكؤوس المحطمة، وجدت عدة أوراق فيها ملاحظات بخط كبير، غير متناسق وغير مفهوم. وقرب الورقة، كانت المفاجأة بوجود وعاء لسوسانا كان يوقظ في الاهتمام دائماً: نوع من قِدرٍ صغيرة من فخار سميك وثقيل جداً، لها شكل يذكر على نحو غامض برأس قرد شبيه بالإنسان. وبينما أنا أتأمله، لاحظت أنه لزج الملمس فأَفلتُّه بقرف. ورأيت على يدي لطخات دم.

كانت الأشياء المبعثرة، وقد خلّفت الفوضى في الغرفة صدى مديداً كأنه ذبذبة خفيفة. جلستُ على صوفا المكتبة، وسط فوضى فتات، وشظايا كؤوس، وكتب ممزقة، وقطع خبز، وشرائح سجق، وفكّرت في ذلك الركام من الحوادث ونوبة الهياج التي توّجت عدم توازن مارثان. ومع ذلك، كانت تزحف تحت تأملاتي العقلانية شكوك عديدة لم أستطع تهدئتها إلا بجهود يتضاءل تماسكها أكثر فأكثر. ففي الصمت الصباحي الذي لم يكن يكسره سوى وقع خطوات أحد المبكرين، أو مواء القطط المتفرق، أو تشغيل سيارات بعيدة، كنت أشعر على نحو متزايد بعدائية ذلك، وأحن إلى عالمي المعهود. وهكذا تأهبت للذهاب إلى المحطة لأستقل أول قطار. وبينما كنت أجتاز الممر، اكتشفت أن أنوار غرف أخرى كانت مضاءة. ومن خلال شق أحد الأبواب، بدا لي أنني ألمح حزمة معروفة. فتحت الباب تماماً، وبمحاذاة الجدار رأيت حقيبة موضوعة بعناية، لونها ضارب إلى الحمرة، وكيس نوم، مطابقين تماماً لأمتعة بيدرو بالاث التي ساعدتُه في ذلك اليوم

Twitter: @alqareah

الصيفي في حملها إلى ستوديو سوسانا. كانت الحجرة تعبق بعطر أخت مارثان الكثيف. وفي العمق، على السرير غير المرتب، كان لا يزال هناك قميص نوم نسائي، وكانت أبواب الخزانة المواربة تسمح برؤية ثياب نسائية أخرى. وعلى صفحة المرآة، انعكست صورة أفزعتني رؤيتها لأول وهلة. ولكنها كانت صورتي بالذات. اقتربت بخوف: كان لنظرتي البريق الزائغ والمخيف نفسه الذي لنظرة المجنون مارثان، وكان شعري مجعداً فوق رأسي. ومظهري كله مضطرب، وبدا التشنج الواضح الذي سيطر عليّ وقد أحاطني بهالة برودة. خرجت من الحجرة. وعلى ضوء الفجر الشاحب، رأيت كتلة صغيرة قائمة ملقاة في أقصى الممر، عند بسطة السلّم بالضبط، على حافة الدرج الخشبي المؤدي إلى دهليز المدخل والفناء. ظننت أنه حيوان، لكن شكله الغريب شدّ انتباهي، وعندما صرت بجانبه، استطعت التأكد من أنه صندل. كان رباطاه الطويلان المتدليان من الدرج، وأثلام نعله تشبه قرني استشعار ودرع حيوان قشري. ذلك الصندل استدعى إلى ذهني بحيوية صورة بيدرو بالاث. جاءت رؤية متاعه والصندل الملقى ليزيدا من تشوشي ويضيفا معطيات تنبؤية. نزلت على الدرج الخشبي الذي تطقطق مفاصله ووصلت إلى بداية الدهليز. كان بياض ضوء الشارع قد بدأ يغزو البوابة. وإلى اليسار، قبالة الدرج، كان الدّهليز يفضي إلى فناء كبير محاط بأصص. وكانت عصافير الدوري تصخب في الأعلى، بين القرميد، مكللة الضوء الخفيف الضارب إلى الزرقة بزقزقتها القوية. وإلى جانب أحد الأصص، كانت ملقاة فردة الصندل الأخرى. ووراء الأصص، على امتداد جدار الفناء، كان هناك جسد بشري ممدد على الأرض. اقتربت منه دون تردد، وسط عطالة ذهولي. بنطال المخمل السميك والسترة التي فيها شبه بعيد بالزي العسكري، ذكّراني بثياب معروفة لدي. وهناك كان يرقد بيدرو بالاث، بجرح كبير في رأسه يصبغ بالأحمر شعره الأشهب. وخلال لحظات قصيرة، خرج الفناء من العتمة، وأضاءت الشمس الإفريز، في أعلى أحد الجدران. خرجتُ إلى الشارع وتوجهت دون تردد نحو المحطة. كانت جهودي المضطربة في اليوم الأخير قد أدخلتني في خدرٍ ذهنيّ ملأ بالظلمة ذاكرتي. وهكذا لم أكن أذكر أي يوم من الأسبوع هو ذلك اليوم. لكن إقفار الشوارع والساحات الغريب ذاك، حيث الحضور البشري يكاد لا يلمح إلا بالمرور المثقل لأحد

Twitter: @alqareah

المشاة، جعلني أعرف أننا في يوم أحد. كان الضياء آخذاً بالانتشار فوق المدينة ببطء. وكانت المحطة مقفرة أيضاً والأرض متسخة جداً بأوراق وأعقاب سجائر وقشور فاكهة. ظللت هناك، كمن ينتظر بعجزٍ وقوع كارثة. كان انعكاس ضوء الشمس آخذ في المرور على زجاج مظلة المدخل الضخمة، وراحت الأضواء والظلال تتبادل أماكنها. ظلت أرصفة المحطة مقفرة، وكان وصول القطارات المتفرق، أو حركة مناوراتها، أو مرور مسافر يلبس ثياباً غريبة، تزيد من الإحساس بأن ذلك كله ليس سوى منصة مسرح معدة من أجل مشهد سري. وأخيراً اتخذ قطاري مكانه على خطه الحديدي. وفي الضوء، كانت ضخامته الرمادية تقدم مظهر واقع صلب. اتجهتُ نحوه راكضاً، كما لو أنه وسيلة نجاة من غرقٍ أشعر أنني محكوم به مع مرور كل لحظة. لكن الإحساس المُقلِق تجدد بقوة حين دخلته: الوحدة نفسها، لكنها مضخمة هنا بصمت فريد يخيم على المقصورات. ولو لم تكن القاطرة، في الطرف البعيد، تلهث مطلقة دفقات من الدخان، لغلب الظن بأن القطار سيبقى جامداً هناك إلى الأبد. وكان للعامل الذي يذرع قافلة العربات متفحصاً محاورها بطرقات مفتاح إنكليزي تشبه النقر الإيقاعي للحن بطيء، بعزف غريب، مظهر شبحي أضاف حضوره يقيناً إلى مخاوفي بدل طمأنتي. جلست بجانب نافذة صغيرة، ورحت أنظر إلى الرصيف. كنت المسافر الوحيد في العربة التي كانت تحتفظ بتلك الرائحة الحادة، خلاصة نشاطات لا حصر لها، وكنت أرى في الساعة الكبيرة، ثانية فثانية، انقضاء الزمن المتبقي للانطلاق.

❖ ❖ ❖

عدت إلى البيت مرغماً نفسي على نسيان تلك القصص غير المعقولة، بجهد له طبيعة مماثلة لجهد من يُرغَم على فعل كل ما هو معاكس. وتقبّلتُ بالطريقة نفسها ابتعاد نونيا، وأضفت إرادةُ النسيان الحازمة بهجةً على الدراسة وعلى انكبابي على تعلّم التصوير الضوئي. ابتعدتُ عن الأدب، وبدأت التعاون على امتداد تلك السنة مع صحيفة في المدينة متولياً إعداد ريبورتاجات مصورة عن مباريات كرة القدم. أنهيتُ العام الدراسي دون مصاعب، وحيث أن ميلي إلى التصوير الفوتوغرافي صار حاسماً، فقد أوصى بي عمي لدى صديق كان

Twitter: @alqareah

صحفياً في المدينة ويشغل وظيفة مهمة في وكالة أنباء في مدريد، حيث بدأت العمل. وهكذا أُزيحت جانباً بالكامل هواجس فتوتي في ممارسة الأدب، ووجدت أصدقاء جدداً وحياة مختلفة جداً عن حياتي في مقاطعتي الهادئة. ومع مرور الزمن، امحت من ذاكرتي شخصيات تلك الأحداث كلها، واستعدتُ الثقة بالواقع بقوة، حين أدركت أن الحماقات غير المعقولة التي كانت أحاطت بي لم تكن، على الرغم من كل شيء، سوى نماذج من إرثه المتنوع. لقد كنت أنتمي إلى الواقع دون أدنى ريب، بل إن أحلامي نفسها كانت خاضعة لسطوته. وهكذا نسيتُ المجنون مارثان، وبالاث الطريف، وسوسانا الغامضة. وكانت صورة نونيا وحدها التي تتحرك أحياناً في قلبي، فكانت تصيبني، في الفترة الأولى، بقشعريرة مرارة. لكن صورة نونيا انطفأت أيضاً مع مرور السنوات. ولا بد لك إذاً من أن تتفهم دهشتي حيال وجهي ذينك الرجلين. وبينما أنا أجلس على الصوفا مباعداً بين ساقي، ودون أن أخلع السترة أو أرفع عن كتفي آلة التصوير والحقيبة، كنت أتأمل الأسماك الصغيرة التي تتحرك وسط بريق الحوض العنبري، حول عمود الفقاعات الصغير، كأنها انعكاس لأفكاري وهي تدور مرة بعد أخرى، بخفقات ضئيلة، حول النقطة نفسها. كان تصاعد الفقاعات الصغيرة التي تنتظم في سبحةٍ متواصلة راقصة، وتوالي نقر تلك الآلة الكاتبة المتعالي في الفناء، كما هي العادة كل مساء، يشكلان لحناً دقيقاً، يقترن بمرافقة ضجة الشارع البعيدة ليجاري تأملاتي. وكانت عطالة جسدي تشجع أكثر فأكثر الهجمات المخاتلة لأفكار متمردة. من جديد، ذلك المسار الذي أبقاني على وعي بالواقع، يهدد بفقدان ثباته وبالتلاشي متلوياً بين ظلال عبثية. تذكرت على نحو حيٍّ أحجيات مارثان، وكانت تكشيرات وجهه في الأيام الأخيرة تنبعث في ذهني كأقنعة كرنفال سرّي. ويعود إليّ شبح الكتابين المستحيلين المكتوبين بأكوام لا على التعيين من مفاهيم تُجمع إلى بعضها دون أي نظام. وبدا لي مرة أخرى أنني أسمعه بينما هو يعرض، بصوت أجش، مخطوطتيّ ذلك المؤلف الذي هو من اختلاقه والذي جاءني ذات يوم، مع ذلك، بلحمه وعظمه. أو بينما هو يهمس بأنه ربما لا وجود للقطار الذي سيعيدني إلى مكاني، ولا للمدينة، ولا للشارع نفسه الذي يمتد أمام البيت. كنت أرى جسد كليهما، الأول معلقاً على حدائد درابزين السلّم التي يعلوها مسند للأيدي قاتم ولامع، والآخر مطروحاً بين أزهار

Twitter: @alqareah

الجيرانيوم، وكاشفاً عن قدميه المغطاتين بجوربين سميكين لهما ألوان زاهية، كأنهما يدحضان حالة الموت المشؤومة تلك. عدت إلى البيت مباشرة، حتى دون المرور بالوكالة، وتهاويت كيفما اتفق، ورحت أنتظر مجيء نونيا بلهفة مخيفة. كان الوقت ينمو أيضاً مثل فقاعة أخرى ضخمة آخذة بالانتفاخ في الغرفة وسحقي في تضخمها البطيء إلى حدّ منع الهواء عني. وتوصل رنين جرس الباب أخيراً إلى إخراجي من ذلك الضنك الثقيل. لقد جاءت نونيا. كان الوقت قد تجاوز العاشرة كثيراً. تصور امرأة ممشوقة القوام، معطرة. ترتدي ثوباً قاتماً يناسبها تماماً. وهي تدخن الآن، وقد وافقت بتلقائية على تناول كأس خمر، لكني اكتشفتُ على الفور أن في حركاتها ملامح تيبس، وشيئاً من العصبية في يديها، ومن القلق في نظرتها. محوت كل ذلك من إدراكي، لأنني أردتُ استعادة زمن متماسك كانت فيه الأشياء أكثر صراحة، وأحادية معنى، ونزاهة. فهي من كانت بوابة فتوتي، وكانت تتيح لي في الوقت نفسه أن أطل على طفولتي. وبدا لي واضحاً أنها الوجهة الوحيدة التي يمكن لها أن تقودني إلى ما هو أبعد من بار كاستريّو، ومن ذلك المساء الذي قُدمت لي فيه مقالات بالاث، ومن صباح اليوم الذي رأيت فيه امرأة تلبس بطريقة غريبة وتدفع بغلة لتُخرج عربة رمادية من الوحل. وأنها هي الدليل الوحيد للعثور على الدروب والممرات الالتفافية وسط أكوام غير متناسقة تتراكم أمام مداخل أنفاق ذاكرتي وخرائبها المهجورة. أطلقت هي زفرة. كانت تتأملني ببساطة لقائنا ذاتها، وكأنه لم يمض زمن طويل لم نلتق فيه، وكما لو أنها ستخبرني، دون أية مقدمات، بحدث مدرسي جرى في اليوم السابق.

ـ الطقس بارد ـ قالت.

أغلقتُ نافذة الفناء، فأصاب البكم فجأة التكتكة الثابتة والمتواصلة لطابع الآلة الكاتبة المجهول.

ـ ما أخبارك ـ قلت بعد ذلك ـ ماذا تفعلين؟

ـ مازلت هناك ـ أجابت.

وبدا لي أنه من ظرف المكان ذاك، ينبثق استحضار كامل للمدينة: وقد رأيتها كلها، بدءاً من الأسوار حتى أشجار حور النهر، ومن حجارة الكاتدرائية البيضاء حتى سقوف محطة القطار المسودة. ورأيتها مرة أخرى بين النهرين، ثابتة في مواجهة الجبال التي تحدد الأفق الشرقي، ورأيتها في الوقت نفسه من الزوايا

Twitter: @alqareah

الأخرى، وسط ديكور جبال زرقاء وسهول متموّجة حمراء التربة، مثل حيوان هرّيّ هائل يريض ساكناً. تنهّدت وحركت أصابع يديها بعذوبة.

- في المعهد الموسيقي.

ورأيت نفسي مرة أخرى تحت أشجار كستناء بلاد الهند، في حديقة سان فرانسيسكو، بينما الظلام آخذ بإرخاء سدوله؛ وتحولت فقاعات حوض السمك إلى غرغرة النافورة، حيث يظل العجوز نبتون، سنة بعد سنة، ممسكاً رمحه ثلاثي الحراب. كنت أنتظر نونيا تمر تلك الأمسيات كلها، آنية ودقيقة، في ذاكرتي، منذ الدقائق السابقة لوصولها، حيث كنت أدخن سيجارة، حتى اللحظات الأخيرة من موعدنا. وقد استقر في تلك الذكريات، بفعل تبلور غامض، ترسب دقيق ولامع، ذو ملمس ناعم: فيه كان جوهرنا نحن الاثنين مختلطاً بجوهر المدينة نفسها، مشكلين عنصراً وحيداً مع الشوارع المتلئة بآثار أناس مثلنا، عبروا منذ مئات السنين تلك الأمكنة وتحركوا فيها. وكانت عيناها أيضاً تبدوان أكثر قتامة. أدارت بصرها، نهضت واقتربت من حوض الأسماك. ربما كانت حركة الأسماك الصغيرة، وسلسلة فقاعات الهواء في انعكاس الماء البلوري، قد استثار فيها الصورة الرمزية للأفكار المشوشة. وفجأة، نظرت إليّ بملامح غريبة الجدية، كأنها ستخبرني بشيء بالغ الأهمية، ولكنها لم تقل في النهاية سوى:

- جئت في طلب كتاب.

كان ضوء المصباح يحدد بوضوح نضج وجهها، وعلمت أنني لن أسترد أبداً الزمن المتماسك الذي كنا فيه فتيين، يمسك أحدنا بيدي الآخر في عتمة سينما «ماري»، والعالم يحيط بنا مثل بناء مجهول وغير مرئي، لكنه مؤكد وفريد. ولن نغرق أبداً مرة أخرى في الخفقات نفسها وخدانا متلاصقان، بينما تتوالى أمامنا أشباح الفيلم بالأسود والأبيض مثل منظر يُلمح في طيران دواري. وعلمت أن عصبيتها تنتمي إلى لهفة لا مكان ولا دور لي فيها.

- إنني قلقة جداً.

كنت على وشك أن أروي لها القصة القديمة التي تنتهي بظهور تلك الأشباح الحديثة جداً، وكأنه يمكن لاعترافي، وأنا أعرف أنها سمعتها من قبل، أن يحررني. لكني كبحت نفسي حين سمعتها. ابتعدت نونيا عن الحوض، واقتربت مرة أخرى من الصوفا، وبينما هي تجلس بجانبي، تكلمت بشيء من الحدّة:

Twitter: @alqareah

ـ لم أجد ما أبحث عنه. أحسست هذا المساء بقلق كبير، وكنت أتمشى. وقد مررت عرضاً من هنا.

كنتُ أنظر إلى انحناءة خديها الناعمة، إلى فكها العريض قليلاً، والذي يُدوّر وجهها، ويحافظ بصورة غامضة، في تلك الملامح الناضجة بحسم، على إشارات طفولية.

ـ اسمعيني، يا نونيا ـ قلت عندئذ، وأمسكتُ بإحدى يديها ـ. ذاك الذي حدث كان غريباً جداً، كأنه أضغاث أحلام. لقد كنتُ أحبّك. أحبك أنت، ولكنها كانت فتاة أكبر سناً، وكانت تأخذني إلى بيتها، وما أدراني أنا. بدا ذلك كما لو أني دخلت المستقبل متجاوزاً الزمن والسنّ.

هي لم تُبدِ أية حركة، وأبقت يدها تحت يدي، ولكن بجمود لا يمكن معه، بأي حالٍ، التفكير في أنها تشاطرني تقربي.

ـ أولم تعد لرؤيتها؟ ـ سألتني.

ـ لا، أبداً ـ أجبت ـ لم أعد لرؤيتها قط.

آوه، أجل، الحديث عن تلك القصة الماضية كان يوقظ في نفسي الأمل بخلاص ما.

ـ لقد حدث لي شيء غريب جداً معها. وبعد ذلك، عندما رحلت، ظللتُ ألتقيها في الأحلام طوال هذه السنوات كلها. أحسب أنني أراها في الواقع، لكنه يكون حلماً وحسب.

كانت تتكلم بصوت خافت، كأنها تتجنب أن يتمكن أحد آخر من سماع كلماتها.

ـ ألتقي بها كما في مصادفة. هذا هو الحلم. تتغير الأمكنة، ولكن ليس الحبكة. مرات كثيرة، مئات المرات حلمت بها على ما أظن.

عندئذ أُجهضت نهائياً كل محاولة لاستحضار الذكرى. ولم أدرك فقط أن نونيا تلك تنتمي إلى محيط لا مكان لي فيه، بل إنه عليّ أيضاً ألا أستحضر أبداً ذلك الماضي المزعوم الذي كنت أحسب أنني شاطرتها إياه؛ إذ ربما لا يكون ذلك الماضي قد حدث فعلاً وأن نزهاتنا وأحاديثنا في حديقة سان فرنثيسكو، وأن ذلك الحدس المتوافق والمألوف بأننا نتفسنا معاً أنفاس المدينة، كان مجرد أحلام مستحيلة اخترعتها أنا نفسي. تذكرتُ تأكيد مارثان بأن بالاث لم يكن سوى الرابطة لتشابكاتنا المعقدة كلها. وبدا لي أنني اكتشفت أن ذلك هو دوري

Twitter: @alqareah

بالضبط. لقد أخطأ مارثان. فأنا كنت الرابطة الحقيقية، أدنى الشخوص أهمية، من لا يفيد إلا في الربط بينهم: بين بالاث وسوسانا، موفراً لقاء وهرباً لن أفهم مغزاه أبداً؛ وبين مارثان مختلق شخصية تخيلية، وبين اليقين بأن شخصيته موجودة حقاً، دون أن يتاح لي معرفة نتيجة ذلك الاكتشاف؛ وأخيراً لأربط بين نونيا وبين من يدري أي نوع من الأحداث الغامضة.

ـ حلمت بها على الدوام في أمكنة مختلفة جداً. وبلغ بي الأمر الشك بأن هناك أماكن وبلداناً زرتها كي أحلم في ما بعد بأني التقيتُ بها فيها. أما اليوم بالذات، فبدا لي أنني أراها هنا، بين الناس، وحقيقية.

تمكنتُ من السيطرة على تشوشي، مدركاً أنه لا ينبغي لي أن أنتظر إيضاحات ولا رسائل خاصة، وتكلمتُ دون تردد. أؤكد لكَ أن إدراكي بأن مصيري هو في ذلك النشاط الثانوي، الاتصالي المحض، وتقبله غمراني بموجة من الطمأنينة.

ـ إنها تعيش هنا ـ قلت ـ لقد رأيتُها بعد بضعة شوارع نزولاً، بينما كنت أتأهب لاجتياز المعبر. إنها مثلما كانت آنذاك.

سحبت يدها مفلتة نفسها مني، وبحثت عن سيجارة وأشعلتها بحركات متعثرة وبطيئة. سحبت الدخان بشراهة ثم أطلقته في نفثة قوية. كانت تتكلم وفمها مازال ممتلئاً بالدخان، ناظرة إليّ بعينين مفتوحتين على اتساعهما.

ـ ورأيته هو أيضاً، بوضوح تام. كما لو أنني كنت أحلم به، ولكن تصور. بعد ذلك، لم أجدهما قط. أشعر بأني قلقة جداً.

ظللنا صامتين. لا شك في أن الماضي قد اختفى دون رجعة، هذا إن كان قد وُجد ذات مرة. وكانت تلك نونيا أخرى، ولم يبق أي صدى من الفتى الذي حسبتُ أني كنتُه. كنا نجلس في الوضع نفسه، وعيوننا ملتفتة، ينظر أحدنا إلى الآخر. وعلى الرغم من النافذة المغلقة، كانت تكتكة الآلة الكاتبة في الفناء قد اكتسبت صوتاً أكبر، كما لو أن الطابع الدؤوب قد زاد من قوة نقره على الملامس.

ـ أرأيته هو؟ ـ سألتُها ـ من تعنين؟

عندئذ روت لي نونيا كل شيء.

❖ ❖ ❖

Twitter: @alqareah

صار النبات كتلة واحدة سوداء تتكرر صورتها مقلوبة، متطابقة تماماً في لونها وأبعادها، على امتداد سطح القناة، وعلى كلا الضفتين، وعلى المرآة الرمادية المفضضة، اللامعة والساكنة، مرآة السماء المنعكسة في الماء. كانت النباتات وانعكاسها يشبهان، على جانبي المركب، رؤوس سهام طويلة ومتناظرة، تضيع أطرافها الأمامية في البعيد. وكانت بقية المشهد، المرآة قاتمة الزرقة، تمتد فوق وتحت، كأن الماء غير موجود وكل شيء مكون من فضاء وحيد بدأت أول النجوم فيه تفور.

ـ إنها أفضل لحظة في اليوم ـ قال الربان بعد صمت طويل ـ. لحظة قصيرة جداً، لكنها جميلة جداً. إنها لحظة هذا الضوء الذي يلف كل شيء دون أن يُعرف إذا ما كان ينبعث من السماء أم من الماء. وهناك هذا الانعكاس الدقيق، المتناظر، انعكاس الغابة المظلمة. الضوء ليس أقل التباساً من الفراغ. والماء هو ضوء أيضاً. والشيء الصلب الوحيد هو هذه الظلال السود المبهمة التي تحفّ بنا من الجانبين. إنني أفكر أحياناً في أن هذه اللحظة هي اللحظة الوحيدة الحقيقية، وأن كل ما سوى ذلك ليس إلا حلم ينقضي، مجرد وهم. وفي هذه اللحظات أظن أني أدرك أنني لا أبحر في القنوات، وإنما النهر هو الفضاء المرصع بالنجوم نفسه، بين الكواكب والشموس، أجتازه في رحلة نسيت مبدأها وأجهل وجهتها كذلك.

كان «هو» قد دخل في بهاء ذلك الغسق وهو شبه منوّم بسبب رتابة المونولوج. هز كتفيه ولم يجب بشيء على تعليقات الربان. وكان في الوقت نفسه يفكر، على الرغم من تبدل مظهر المنظر الطبيعي، في أن الضوء الذي يغمر كل شيء، وذلك الظل المناظر والمزدوج، ليسا جديدين أيضاً، وأنهما قد يعنيان، مثل كل واحد من أحداث اليوم الصغيرة، مجرد تكرار لصور أخرى مشابهة. وتخيلات الربان تلك التي تشير إلى رحلة مجهولة ومشوشة عبر وجهة كونية، تتجسد في ذهنه بتخيل جولة محددة، حقيقية، لكنها مكررة بصورة لا نهائية؛ بلا بداية وليس لها إمكانية الانتهاء؛ وتعود للحضور كما في مرة أولى كانت هي نفسها على الدوام، في كل واحد من المناظر الطبيعية والظلال القاتمة وبريق وقتامة السماء والماء.

ـ جميل جداً ـ قال أخيراً.

Twitter: @alqareah

كان طول انعدام الحركة وقسوة المقعد قد أصاباه بالخدر. نهض، وتذكّر أن زوجه تنتظر في الخارج. أطل برأسه من فراغ المدخل: كانت لا تزال جالسة على الأرض، تمد ساقيها لتسندهما إلى حافة المركب العلوية، وكانت تقاطع ذراعيها على حضنها، ورأسها متكئ على حزمة أمتعة كبيرة. خرجَ بمشقة، واقترب منها متمسكاً بقوة بسقف المقصورة.

وهناك في الخارج، وقد خف دوي المحرك، كان بالإمكان سماع لغط الطيور والحيوانات في الغابة. نادى امرأته بصوت خافت، لكنها لم تجب. انحنى واستطاع التأكد من أنها تغمض عينيها: لقد أغفت. جلس حينئذ إلى جانبها واستغرق في تأمل انعكاس النبات على جانبي المرآة الزرقاء المفضضة والاستماع إلى أصوات الغابة. ووراءهما، كما في ضجة بعيدة، كان المحرك يدوي مترجرجاً بإيقاع مونولوج طويل، كترتيل مبهم للقصة التي لا تنتهي. ولكن، سرعان ما تحولت السماء وانعكاسها إلى الظلمة، واختفى الإحساس بالفراغ البراق، وتحول الماء من جديد، وإن كان غير مرئي، إلى سائل يطفون فوقه، وصار الليل سواداً بعيداً تخفي نجومه الوليدة كتل السحب الكبيرة القاتمة.

ضربت قطرة ماء كبيرة جفنها. وبعد ذلك صفعت زخة مطر مباغتة سطح المركب مبللة رأسها وثيابها. استيقظت مطلقة صرخة صغيرة.

ـ لا تخافي ـ قال لها وهو يطوق كتفها بذراعه.

ـ ما الذي يحدث.

ـ لقد حل الليل ـ قال لها ـ وهي تمطر.

كانت تتنفس باضطراب.

ـ رأيت حلماً. نمت ورأيت حلماً.

ـ إنكِ مُتعبة.

ـ أمازال أمامنا الكثير؟

ـ لا أدري. أعتقد أن لا.

ـ إيه ـ نادى الربان مطلاً من الباب الصغير ـ تعالوا إلى الداخل. ستبلون بالماء.

نهضا وعادا إلى المقصورة. هطل المطر غزيراً، وكان يسيل على زجاج واجهة المقصورة في خيوط ثخينة. كان الربان يمسك مصباحاً بيده. أوقف المحرك وأمسك به من ذراعه.

ـ ألا تسمع؟ ـ قال بذعر.

Twitter: @alqareah

أنصت «هو» باهتمام. كانت همهمات الغابة قد استُبدلت بارتطام ماء المطر بأوراق الشجر وسطح النهر. ارتطامات حادة، رجراجة، ترن بقوة فوق مظلة المقصورة الصغيرة. وتحول اندفاع المركب الخامد إلى اهتزاز مفاجئ.

ـ لا أسمع سوى المطر ـ قال.

ـ كأنه ضجة معدنية ـ هتف الربان ـ كنقر على آلة كاتبة.

ـ لا ـ أصر هو ـ إنه الماء فقط.

كان الأمريكيون ينظرون برصانة إلى الربان. فأعاد تشغيل المحرك وجلس. كان قد أشعل المصباح، وراح يديره ببطء ماسحاً الغابة بضوئه. وكانت حزمة الضوء المرتعشة تكاد لا تضيء، في ما وراء وابل المطر، سوى غصن هنا أو هناك يبرز في الظلام، أو كتلة نبات الضفة المطموسة.

ـ بدا لي للحظة أنه صوت مختلف عن المطر. أنه قرع متتالٍ.

كان قد خفف سرعة المحرك، وراح يبحث بالمصباح عن بعض العلامات التي لا يمكن لأحد سواه أن يميزها، وتسمح له بمتابعة الإبحار. كان يلمع في السماء وميض بروق صامتة. أطلق الربان زفرة قوية. وأشار بغموض إلى البروق.

ـ هذا هو الحر ـ قال ـ. هناك في الأعلى. لا علاقة له بهذا المطر.

كان قد أفلت ستائر من بلاستيك شفاف ومتسخ، تحول دون تبلل المسافرين، لكنها زادت من الحرارة فوراً بمنعها حركة الهواء داخل المركب. واكتسب المكان المضاء بمصابيح شاحبة مظهراً كئيباً ووسخاً. كان الغرينغيون قد فتحوا بعض الزجاجات، وبدؤوا في مجلسهم في الخلف يلعبون الورق على منضدة نقالة.

تهاوت المرأة على جانب من مقعد الربان. كانت شاحبة، مزرقة الملامح، وعيناها حزينتين.

ـ ألست بخير؟

ـ بلى! ـ قالت ـ لقد غفوت.

ـ لا بد أنك متعبة ـ قال الربان ـ لدي هنا أسبرين.

لكنها لم تشأ تناول أي شيء. وفي النهاية، شربت علبة مرطبات أخرى.

ـ لم يبق إلا القليل يا سيدتي ـ قال الربان ـ. إننا قريبون جداً. إذا ما توقف المطر، فسوف تكونين في الثامنة جالسة إلى مائدة عشاء بديع. فالآن، مع حلول الظلام، هي المرحلة الأقسى.

Twitter: @alqareah

جلس «هو» أيضاً في مكان مواجه لها. لاذ الربان بالصمت، وكان مستغرقاً كما يبدو في ذلك التحري للشاطئ بالاستعانة بالمصباح الصغير المضيء الذي يمسك بمقبضه بإحدى يديه، بينما يقود المركب باليد الأخرى.

ـ هذه الشرارات سببها الحر ـ كرر ـ إنها بعيدة جداً، عالية جداً.

والتفت بعد ذلك إلى المرأة.

ـ قد تقولين إني سرقت منك زوجك.

وقامت هي بحركة خرقاء، فيها قليل من الارتباك.

ـ لا... لا تقلق.

ـ كنت أقص عليه قصة. كي نتسلى.

تركت علبة المرطب في صندوق القمامة، وأخرجت منديلاً من حقيبتها، بللته بماء الكولونيا ومسحت به خديها ويديها.

ـ من أجل التسليه ـ كرر ـ. إنها رحلة طويلة. وكنت سأحدثه الآن عن خطيبة لي.

ـ لا تقطع حديثك بسببي ـ قالت ـ تابع حديثك.

ـ ألا يزعجك ذلك؟

ـ لا، أرجوك.

ـ سأروي ما روته هي لي ذات يوم، بعد مرور سنوات طويلة، حين التقيت بها مصادفة، ولاحظي حضرتك، التقيت بها مع شخصين بُعثا حيين.

ـ بُعثا حيين؟

أفلت الربان الدفة وقام بحركة استياء، ضاغطاً قبضته لحظة.

ـ شخصان بُعثا حيين، وامرأة أخرى كنت قد أحببتها. أتتصورين ذلك؟ جميعهم معاً، توافق اللقاء بهم، لا أدري عبر أية دروب.

كانت المرأة تنظر إلى الربان بفضول.

ـ كانت قد انقضت سنون طويلة: وقد جرت الأمور بطريقة اضطررت معها إلى الانصراف. لقد هربت. أتفهمينني؟

الحرارة المتراكمة داخل المركب جعلته يتعرق بغزارة.

ـ كان عليّ أن أهرب. مبعوثان إلى الحياة. وهما الاثنتان. والمدينة المبتلعة بعصارات ضاربة إلى الصفرة، كما لو أن معدة هائلة بدأت تهضمها.

Twitter: @alqareah

نهض واقفاً، وأفلت الدفة مرة أخرى. لف ستائر البلاستيك التي تغطي فتحات المقصورة.

ـ أتريان، لقد توقف المطر. إنها عشر دقائق بالضبط في مثل هذه الأوقات، وفي هذا المكان من الطريق بالضبط.

ومجاراة لحركته، قام الأمريكيون أيضاً بلف الستائر الطويلة، وعاد النسيم يهب على المقصورة. ظل الريان دون حراك للحظات، كأنه ينتظر سماع شيء في الظلام.

ـ خطيبتي حين كنتُ فتياً ـ قال بعد أن جلس ـ ما روته لي، بعد سنوات طويلة من ذلك.

وكانا يصغيان إليه بانتباه.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

VII. قصة نونيا

قصة نونيا تنتهي بالبحث عن أسطورة. وتكتشف هي الأسطورة من خلال إشارة غامضة، قبل أسابيع من ذلك اللقاء معه. إنه مساء ماطر. ونونيا متكئة بكسل، ونظرها يشرد بكثرة إلى صور التلفزيون، لكنها غير مهتمة بالموضوع، بينما هي تتصفح، دون اهتمام أيضاً، صفحات الجريدة. انتهى البرنامج واستعدت للنهوض وإطفاء الجهاز، عندما شدت انتباهها بعض الصور العابرة: فبإيجاز متسارع، ومن زوايا معهودة، ويمكن معرفتها فوراً، راحت تتوالى على الشاشة أقواس أروقة دير قديمة، وواجهات مداخل من أحجار قاتمة، وجسر طويل مذهب فوق النهر الذي يمتد أمام أشجار الحور الأسود الضخمة، والصليب الحديدي الصغير مغروس فوق كومة حجارة، وبيوت ذات أفاريز كبيرة، وأطلال مهدمة.

فضول رؤيتها ظهور بعض المناظر المألوفة أوقفها عن إطفاء الجهاز. ظلت جامدة تتأمل تلك الصور. كان لصوت المذيع إيقاع غير منتظم، صوت قارئ متوسط الجودة، يفخم الكلام بطريقة تبدو فظة معها سلسلة الأمجاد القديمة، وكأنه يسعى إلى إدهاش المشاهدين. ولكن، على خلفية الصوت، راحت تظهر الأبنية والمعابر بين وديان متموجة، وغابات قاتمة، وطرقات متعرجة كأنها دروب. وكان بهاء المناظر يطغى على تفخيم الكلمات، بل كان يسوغه: فالأروقة القديمة ذات الأقواس المتناظرة تشبه نوافذ مشرعة على مناظر لا يمكن إلا لبعض العيون أن تفهمها؛ والواجهات القاتمة تتكشف عن عتبات يمكن لها أن تعني، بالتأكيد، المدخل إلى العقاب أو المخرج إلى الغفران من مصائر خفية. والجسور كأنها حدود دافع عنها أحدهم بتدبير عظيم، وكأن اجتيازها يتيح الدخول إلى أراضٍ فريدة. وتبدو الصلبان فوق كومة الأحجار الجرداء، كأنها تشير إلى علامة احتضار، كواجهات البيوت في الشوارع الضيقة، بأبوابها التي تشبه، تحت شرفتين متناظرتين، وجوهاً ضخمة ذاهلة، شوهها انتظار بلا أمل، أو كخرائب مقوضة في العراء بدقة يمكن القول إنها ثمرة إرادة صريحة بالكمال.

Twitter: @alqareah

كان الصوت يصف بعض نقاط طريق الحج القديم الذي يبدأ من أراضٍ شمالية بعيدة، مجتازاً مضايق جبلية وسط هاويات دوارية ورؤوس جبال حادة ذات ثلوج دائمة، ويأخذ بالهبوط إلى وديان الأنهار الكبيرة عبر تفرعات مختلفة، بعضها يذرع سهولاً خضراء ناعمة، وغيرها يجتاز أراضي حمراء بين أشجار سرو وغار وتين، أو يتوقف أمام واجهات الكاتدرائيات الضخمة لتلتقي أسفل جبال الفضة وتتوغل أخيراً في شبه الجزيرة الإيبيرية. كان الصوت يصف دروباً جبلية ضيقة ذات شهرة أسطورية، ويشير إلى مقاطع من الطريق وتفرعات تنفصل أحياناً عن الفرع الرئيسي، ويؤكد أخيراً أنه في ما وراء الضريح، يتوقف الطريق نهائياً عند دير يسوع المقدس ذي اللحية الشقراء، في أراضي أقصى الطرف الغربي.

إنه وصف مسهب، تركته نونيا يمضي دون كبير اهتمام، ولكن بإحساس فريد بالمعايشة، كما لو أن كل تلك الأماكن، ليس القريبة والمعروفة منها فقط، مألوفة لها منذ القدم ولا تحتاج إلى تركيز انتباهها كثيراً لتعرفها كلها، المقوضة منها والمتبقية، على حافة طريق يكفي السير فيه للعثور عليها دوماً.

وأخيراً، أخذ الصوت يتوقف عند الإشارة إلى نصوص قديمة حول الطريق. أحد الكتب التي أُشير إليها بتركيز خاص هو، كما يبدو، دليل أُعدّ برعاية أحد باباوات العصور الوسطى، وقد توصل إلى تحقيق شهرة شعبية لدرب الحج المقدس ذاك في عصور الظلام تلك. كان المذيع يقول إن الكتاب مؤلف من نصوص متنوعة تتحدث في بعض أجزائها، إلى جانب وصف دروب الحج والصلوات، عن حالات وأمثلة مرتبطة بالحج: معجزات مختلفة لسيدتنا العذراء، حيث يلعب الحواري سانتياغو أيضاً دور الوسيط. وأمثلة عن مشعوذين مجدفين، وأبناء ضالين، وعبيد غير أوفياء، وأصدقاء حاسدين، ورهبان شهوانيين نالوا جميعهم المغفرة عن ذنوبهم بفضل تدخل العذراء الأمومي أو مساعدة الحواري الأخوية، لأنهم كانوا مؤمنين ورعين بهما.

وخارج البيت، كان المطر ينقر الزجاج، وكانت تُسمع كذلك ولولة الريح الخفيفة في الأفنية. أما هي فكانت مستغرقة في الصور، ولا تكاد تولي سوى اهتمام ملتبس إلى كلمات المذيع. وفجأة، في اللحظات الأخيرة من القصة، انتابها فضول خاص نحو إحدى المعجزات، وحاولت بتلهف الإحاطة

Twitter: @alqareah

بموضوعها من خلال نهايتها، وهو الشيء الوحيد الذي سمعته حقاً. أيقظت تلك النهاية في نفسها رغبة كبيرة في معرفة المسألة، وانتظرت دون طائل أن يعود المذيع للإشارة إليها. لكن اقتباساته من الكتاب كانت قد انتهت. وكانت البوابات البديعة، والأضرحة والصلبان، وأبراج النواقيس المنتصبة في الوديان، تزين نهاية البث. عندئذ تنهض نونيا، وتطفئ التلفزيون، وتجلس مجدداً وتظل مستغرقة لوقت طويل.

بدا لها أن المعجزة التي استثارت اهتمامها بعد فواتها تتعلق بغرام دنس بين حاجّين؛ وتظن أنها سمعت كذلك أنه حُكم عليهما، بسبب خطيئتهما، بأن يظلا هائمين على وجهيهما على طريق الحج دون أن يلتقيا حتى نهاية الأزمان، حين تختفي الدروب كلها إلى الأبد. ومع ذلك، لم تفهم طبيعة تلك العلاقة الخاطئة، ولم تعرف إذا ما كانت تلك النبوءة الأبوكالبسية، حسب المعجزة، مشروطة بأن يلتقي الحاجان، أم أن لقاءهما سيكون نذير الشؤم بوقوع الكارثة الأخيرة، حين يختفي من السماء إلى الأبد الدرب المرصع بالنجوم الذي يدل على طريق الحج، ويختفي كذلك درب الحجيج المعفر الذي يمضي بين المدن والغابات، وباختفائهما يختفي الكون كله.

ظلت ساهمة. فالاحتمالان كلاهما، مع ذلك، هما الاحتمال نفسه، ولا يمكن إلا لظل خفيف أن يميز بينهما. وكانت تفكر في نهاية الأزمان باعتبارها حدثاً عابراً أيضاً لا يلبث أن ينقضي مثل أي حديث بعد الطعام، فمرور كل دقيقة ما هو إلا إنذار بتلك النهاية المحتمة. وتعود بعد ذلك إلى المعجزة التي لم تكد تسمعها، مثلما لم تفهم مضمون الحكاية، وتشعر كذلك بأنها لا تستطيع حدس تلك النهاية النموذجية حيث الخطايا الخطيرة تواصل تماديها إلى أن تستثير الغضب الإلهي، ثم تُغتفر بفعل عاطفة ورع تقيّة.

وفي الوقت نفسه، بهرتها فكرة غير معقولة. فوصف تلك المعجزة المشوشة جسّد في ذاكرتها، بوضوح لا لبس فيه، صورة حاجّين عرفتهما في مراهقتها، كانا قد دخلا على نحو خاص نطاق حياتها اليومية من خلال حلم تكرر لسنوات. ظلت نونيا ساهمة، ومخيلتها معلقة بتلك الذكرى. توقف المطر عن النقر. وفقدت هي عندئذ جمودها، فاقتربت من النافذة وأزاحت الستائر.

لقد انقطع المطر. وعلى الإسفلت الذي مازال مبللاً، كان ينعكس ضوء الشمس الذي هيمن أخيراً، وإن يكن متأخراً، على الغيوم. كان على نونيا أن

Twitter: @alqareah

تخرج لإنجاز عدة أمور. ومع ذلك، ظلت تفكر باحثة عن عمل يبقيها في البيت، فيرغمها على تأجيل أعمالها الصغيرة في الخارج، ويتيح لها البقاء في وحدتها الصامتة مستسلمة تماماً للرغبة في مواصلة اجترار ذلك التشابه غير المعقول.

تجلس من جديد. الستائر ظلت متباعدة، فلامس شعاعٌ هاونَ خزانة الأطباق مشعلاً انعكاساً أشبه بمنارة صغيرة، تشير إلى الخط الحقيقي لساحل غير مرئي. يحيط البريق الخفيف والمذهب بقية الأشياء الموضوعة فوق الخزانة الهرمة بهالة مهيبة. وبانعكاس تلك الأسطورة المشوشة، تبدو ذكرياتها محاطة أيضاً بهالة بريق ترفع من شأنها. وهكذا، تجد أن ذلك الحلم المتكرر على امتداد أعوام، والذي يتصادف فيه التقاءها بحاجين في أماكن مختلفة، يكتسب فجأة معاني غامضة، وتتشكك للحظة في أن حلمها لم يكن عرضياً، وإن كان مكروراً في طبيعته، وإنما هو دائم مثله مثل الحزم المألوفة التي تظل في ظلمة الحجرة. ومع أنها غير قادرة على تذكره إلا في بعض الأحيان، فإنه حلم الليالي كلها نفسه، ربما يتكرر هو نفسه على امتداد كل ليلة، في متوالية غير معقولة من مشاهد وأوضاع: في مناظر ضبابية وتحت شموس صيف متلألئة، وسط أمطار وفوق ثلوج، أمام صوامع صغيرة وكاتدرائيات ضخمة.

وهكذا، تفكر نونيا في الأسطورة التي لم تكد تسمعها، وفي الشخصيات المستشفة من الأسطورة، وفي ظلال تلك الأحلام، بنشوة هادئة تتحكم مع ذلك باهتماماتها الأخرى. تشعر بفضول كبير نحو ذلك الكتاب الذي تُروى فيه، كما يبدو، القصة القديمة. الطابع الأسطوري، ومظهر الإيمان الساذج، وقوة النموذج الإعجازي الناعمة، تضفي كلها أيضاً مظهراً غير عرضي على جميع الأحلام.

الاستحضار جلب إليها ذكرى بعض روائح الطفولة. ذكرى غائمة لأزهار موزعة في زهريات زجاجية تكاد فوهاتها لا تتسع لوفرة سيقان الزهور، ولهيب شموع مرتعشة تلقي على وجه التمثال ظلالاً مقتضبة متتالية، توحي بأنها إيماءات خاصة من تقاطيع وجه تلك الطاهرة المنحوتة من الجبس. كان ذلك هو شهر مريم، شهر الأزهار، وتأتي تلك الخلوات في الكنيسة الصغيرة كفترات طمأنينة روحية مطلقة في سياق العام الدراسي، منبئة دون ريب بطمأنينة السماء البهيجة، وكانت مثل حضن دافئ ووثير، كأنه بطن هرّ ضخم مسالم ومتكور في أشد زوايا الأبدية راحة.

Twitter: @alqareah

وفي الكنيسة الصغيرة المظلمة، كان الكاهن يرتل بصوت متأثر مدائح لسيدتنا العذراء. وهي تتذكر كيف كان آنذاك: كان ضئيلاً، أصلع، بجمجمة كبيرة مكورة يلمع عليها، كما على مرمر مصقول، ضوء الشموع المرتعش. تلك التراتيل، والأناشيد والصلوات، والعهود، وبعد ذلك الموكب الديني في الفناء الكبير، في المساء الربيعي الذي يطول مضوعاً بعطور نباتية، تعود إليها كلها كطقس احتفالي لا متسع فيه لأي عنف.

تفكر في الكاهن القديم وتدرك أنه يعرف، دون شك، ذلك الكتاب وأساطيره. وتعرف من أبيها أن الرجل، وقد صار عجوزاً جداً، يعاني من هشاشة صحية هي مقدمة لنهاية محتومة. ويجد فضولها عندئذ الذرائع الضرورية، وتقرر أخيراً مغادرة البيت، ليس لانجاز التزاماتها المنزلية الصغيرة، وإنما لزيارة الكاهن العجوز وتبادل الحديث معه: استعادة ذكريات أماسي أيار في أيام طفولتها الضائعة، والتحدث عن الكتاب القديم الذي كُتبت فيه تلك المعجزات الأسطورية.

❖ ❖ ❖

قصة الزيارة تكاد تكون غير ضرورية، لكنها تتيح إبراز اهتمام نونيا بالأسطورة التي لم تكد تدركها. ولا حاجة لوصفها بينما هي تقترب، عبر الأزقة المتعرجة، من بيت الكاهن العجوز الذي بلغ مرتبة كاهن قانوني وصار متقاعداً. كانت رطوبة النهار تبلل حجارة الجدران وبلاط الشارع، وتقبع راكدة في محيط القناطر المعتمة. كان مدخل البيت واحداً من تلك القناطر المظلمة والعابقة بالراوائح. وكان مصباح نور شاحب يضيء بسطة السلّم. تقرع نونيا الباب بالمقرعة عدة مرات وتنتظر بصبر التوالي الطويل لوقع خطوات تصل متجرجرة بصدى متعب. ويسأل صوت مرتعش عمن تكون، من الجانب الآخر لكوة الباب الواسعة. إنها مدبرة البيت، وهي كتلة سوداء، تقف ساكنة وذراعاها متهدلتان على جانبي الجسد، وبريق طحيني في الوجه المجعد، تتأملها من وراء الكوة كما لو أنها في الجانب الآخر من عتبة أبدية.

ـ يا يسوع ـ تهتف أخيراً ـ. لم أعرفك، كان الصوت مألوفاً لي، لكني لم أعرفك.

ـ أجل، إنني أنا ـ تقول نونيا.

Twitter: @alqareah

ـ ادخلي، يا بنتي، ادخلي. سيفرح بك كثيراً.

تذرع مدبرة البيت العجوز تلك الممرات المظلمة بثقة عادة سنوات طويلة. عتمة الأركان تزداد كثافة في طيات الستائر الرمادية المغبرة، وقطع الأثاث الكبيرة التي تضم أمكنة مظلمة أيضاً بين أسطح أخشابها الثقيلة.

لقد صار الكاهن القانوني عجوزاً جداً. وربما تأخر لحظات أيضاً للتعرف إليها، لكنه لم يقل ذلك. نهض قليلاً، وإن لم يُخرج ساقيه من السرير الضيق، وأبدى سعادة ساذجة. لا شك أن نظره قد ساء، لكنه مازال يتمتع بسمع مرهف، ويسعى جاهداً للسيطرة، بصوته الحذر والبطيء، على ضعف أنفاسه.

ـ لا حاجة لأن تتحرك ـ تقول نونيا.

يتهاوى دون آغابيتو من جديد متدثراً بالغطاء. وعلى المنضدة الصغيرة النقالة، هناك حفنة من الفاصولياء الخضراء مبعثرة على صفحة من جريدة **دياريو** تشير إلى نشاط مدبرة البيت التي تجمع ذلك كله بيد مرتعشة وتتصرف إلى المطبخ.

ـ حسن ـ قالت نونيا متنهدة ـ. لم أكن أريد الإزعاج.

وبعد وقت قصير، ترجع المرأة الطيبة حاملة صينية معكرونة وكأس نبيذ أحمر.

ـ أراكَ بحالة جيدة ـ تقول نونيا ـ مظهرك جيد.

على المنضدة الصغيرة مازال المصباح القديم ذو البكرة الذي طالما استرعى اهتمامها وهي طفلة، بمظهره العتيق، ومحيطه النحيل، وثقالته الكبيرة المذهبة. كان الضوء مركزاً عليهما، بينما يخيم على بقية الحجرة ظلام متزايد.

ـ ياه ـ هتف الكاهن.

ـ منذ زمن طويل لم أجئ إلى هنا. لابد أن تعذرني.

ـ لا تقلقي. لديك ما تفعلينه أكثر من تحمّل عجوز مثلي.

ـ لا تقل هذا.

كان للخمر مذاق حلو، وطعم زنخ يتناسب دون غرابة مع روائح البيت ومع الظل والضوء فيه.

ـ ثم إن أباكِ لا يفوّت أسبوعاً دون أن يجيء.

يداه مجعدتان جداً، تغطي ظاهرهما بقع كبيرة بنية اللون. وضعهما فوق الغطاء، إحداهما إلى جانب الأخرى، بتناظر تام. وبينما هو يتكلم، يجعلهما تنزلقان، مباعداً بينهما ومعيداً جمعهما من جديد وفق إيقاع بطيء وصامت.

Twitter: @alqareah

ـ دون آغابيتو ـ تقول له ـ، لقد تذكرتُ اليوم أشهر مريم تلك. تذكرت مذبح الكنيسة المترع بأزهار وشموع مشعلة، بينما أنت تروي قصص معجزات.

ـ كانت تلك هي الأساليب آنذاك، يا بنتي.

ـ إنها ذكرى جميلة جداً، أشبه بحلم تملؤه سكينة.. طمأنينة لم أعد إلى الشعور بها تقريباً في حياتي.

ـ إنها تقنيات تلك الأزمنة. من أجل التأثير فيكم، يا حلوة.

ـ فكرتُ في الأمر بسبب شيء شاهدته في التلفزيون. كان ريبورتاجاً عن طريق الحج.

ـ التلفزيون عندنا معطل. وقد ظهر البرنامج بصورة رديئة جداً.

ـ تكلموا عن كتاب قديم، من العصور الوسطى. كتبه أحد الباباوات. وهو أشبه بدليل، وفيه معجزات. وقد تذكرتك، وتذكرت شهور الأزهار تلك.

ـ أنا أعرف ما تشيرين إليه.

ـ هناك معجزة لم أستطع فهمها. تتحدث عن حاجين خاطئين، وعن عقابهما. وقيل إنهما منذ ذلك الحين يهيمان على وجهيهما في الدنيا دون أن يلتقيا.

احتفظ الكاهن بالصمت للحظات.

ـ كان نصاً معروفاً على نطاق واسع في القرن الثاني عشر. وتوجد نسخ منه في أماكن كثيرة.

ـ وهل تتذكر المعجزة التي حدثتك عنها؟

دفع الكاهن رأسه إلى الخلف وتكلم ببطء، كمن يتذكر:

ـ كان الكتاب يرمي إلى التعريف بطريق الحج. وقد حظيت تلك الطريق بأهمية كبيرة، يا بنتي. أما المعجزات، فهناك ما تشائين منها. لقد كانت أزمنة أخرى.

أعاد إليه الجهد والمحادثة شيئاً من حيويةٍ تبدت بصعوبة، متغلبة بصورة متقطعة وعابرة على الاختناق الذي يبدو قريباً وحاسماً.

ـ كان الناس يؤمنون بهذه الأشياء.

ـ أتتذكرها؟

أشار بإيماءة غامضة بيديه البيضاوين والهرمتين، كما لو أنه يجرد تلك المعجزة من الأهمية، ويركز على تقويم ذلك العصر، وطريقة التفكير والإحساس التي جرى فيها ذلك.

Twitter: @alqareah

ـ بشأن التذكر، أتذكر الكثير. لقد كانت وسيلة فعالة، تقديم أمثولة وعبرة، كما في أشهر الأزهار تلك: تعالوا ولنمض معاً، والتنافس بالأزهار.

كان رأس الكاهن، ببؤبؤي عينيه الأبيضين، والجبهة الممتلئة بالأخاديد، والأذنين المفتوحتين على جانبي الجمجمة لبنية اللون، والمغطاة كذلك بنمش قاتم، يبدو أشبه برأس صورة باهتة الألوان، وضائعة وسط أغراض مستودع كنيسة منعزل.

ـ أتعرف أين يمكنني العثور على الكتاب؟

استغرق الرجل فجأة في الغمغمة بتلك الأغنية الدينية. وانتهى إلى الدندنة بها هامساً، ثم أخرج منديلاً وتمخّط بصخب. كانت نونيا على وشك أن تكرر سؤالها، عندما أجابها:

ـ انظري في أبرشية المقاطعة. ربما لديهم شيء هناك.

عادت مدبرة البيت إلى دخول الحجرة وهي تمسح يديها بالمريلة.

ـ منذ زمن طويل لم نركِ هنا.

تبتسم هي لمدبرة البيت، لكنّ دون آغابيتو يدير وجهه قليلاً ويأمرها أن تصمت بإشارة منه.

ـ هل يهمك هذا الكتاب كثيراً؟

ـ حسن ـ تقول هي ـ لقد استثار فضولي. والحقيقة أنني راغبة في رؤيته.

ـ هناك نسخة أصلية منه محفوظة في سانتياغو ـ يقول دون آغابيتو.

يضمّ إحدى يديه ويضرب على الغطاء بالقبضة العظمية.

ـ مازال لي أصدقاء في تلك الأبرشية ـ يؤكد ـ وسوف تصلين إلى الكتاب إن شئت.

تدرك نونيا عندئذ أن الاطلاع على الكتاب قد يكون مسألة عويصة. ومع ذلك، تشعر أن فضولها قد هدأ قليلاً بعد تلك المحادثة القصيرة، كما لو أنها وجدت في وجه دون آغابيتو، في العينين اللبنيّتين، في الذقن البرّاقة بسبب قليل من الريالة، إشارة هادئة، لم توضح لها شيئاً، ولكنها استبدلت مع ذلك بمسوغات اهتمامها الغامضة بحقائق يقينية أخرى لا تحتاج إلى نبش وتمحيص. نهضت واقفة.

ـ سأترك الأمر إذاً حتى الصيف. فأنا أفكر في قضاء بضعة أيام هناك هذا الصيف. وسأخبرك قبل ذهابي لتزوّدني برسالة توصية.

Twitter: @alqareah

ـ لا تتباطئي كثيراً ـ يقول مقطباً ـ في الصيف، بمشيئة الله، ستكون أعشاب الخباز قد نبتت على قبري.

ـ ما الذي تقوله. أنا أجدك بصحة رائعة.

وفي وقوفها، بينما هي تنحني لتقبل الخدين الباردين والخشنين، وجهت إليه السؤال الأخير:

ـ ألا تتذكر تلك الحاجة الفرنسية؟

ردّ العجوز بإيماءة جهل كامل.

ـ تلك التي أعطتني دروساً بالفرنسية والعزف على البيانو.

تنهد دون آغابيتو:

ـ آه، يا بنتي، لم تعد لدي ذاكرة لأي شيء.

❖ ❖ ❖

كانت الحاجَّةُ قد ظهرت ذات يوم في عربة ممتلئة بأوان وأغراض وتجرّها بغلة. ويبدو أنها كانت مريضة. وقد تولى مجلس الأبرشية أمر رعايتها لبعض الوقت. وبعد شفائها، ظلت في المدينة تعطي دروساً باللغة الفرنسية والعزف على البيانو. وقد أوصى دون آغابيتو أبا نونيا بها، باعتبارها امرأة تقيّة جداً على الرغم من جنسيتها، وهكذا بدأت إعطائها الدروس. دروس اللغة الفرنسية في أيام الاثنين والأربعاء، ودروس البيانو الثلاثاء والخميس.

كانت دقيقة في مواعيدها. تحيي بطريقة احتفالية، وكانتا ترتلان صلاة «يا قديسة مريم» ثلاث مرات وتبدأان الدرس. وكانت أمها، في أول الأمر، تحضر معهما كل الدروس، جالسة تخيط على أريكة، لتتأكد من فائدة تلك الدروس. ومع مرور الوقت، وقد أضجرتها روتينية التمارين من جهة، ولقناعتها من جهة أخرى باجتهاد المعلمة والطالبة، قررت العودة إلى عاداتها السابقة، وصارت تبقى في الحجرة الصغيرة، جالسة قرب مجمر التدفئة تستمع من المذياع إلى أحاديث راهب فرنسيسكاني كابويشي مشهور.

غير أنه لم تكن ثمة ضرورة إلى أية مراقبة. فالآنسة سيسان جدّية جداً؛ أما نونيا فكانت تعلم أن تلك الدروس والبيانو تعني جهداً عائلياً تحقق بمزيد من ساعات العمل الإضافية في المصرف، وحسابات جديدة، وبعض التضحيات في الراحة المنزلية. فكانت تتكب على الدروس بحماسة عالية. هذا الانكباب على

Twitter: @alqareah

الدراسة، سواء في المعهد الموسيقي أم في الدروس الخاصة، كان أحد أسباب مسرات أبيها القليلة، وهو رجل صموت في العادة، مع ملمح حزن عميق جاءه من الحرب، على حد قول أمها، عندما كان عليه أن يتنقل بين جبهات قتال عديدة، وإنهاء خدمته في سجن أندلسي، حيث كان يجري، في كل يوم، إعدام مئات المهزومين رمياً بالرصاص. ويبدو أن انكباب ابنته على الدراسة، وممارستها واجباتها الدينية دون خلل، كانا حافزي ذلك الرجل الرئيسيين على الحياة.

روتين الدروس الطويل الذي تواصل طوال ذلك العام الدراسي، راح يخلق بينهما عادة من الثقة. وقد توافق ذلك أيضاً مع وقت نأت فيه نونيا كثيراً عن أصدقائها المعهودين، حتى إن ذلك الفتى الذي كان يرافقها بلهفة من قبل، ابتعد عنها فجأة، لأسباب لم تفهم قط حقيقتها جيداً.

وهكذا راحت تتعزز علاقتها الحميمة بالآنسة سيسان. فكانتا تتبادلان الكتب، والهدايا الصغيرة، والأسرار. ومع مرور الوقت، صارتا تلتقيان خارج البيت أحياناً، في أيام الجمعة أو السبت لزيارة الضريح المقدس وتناول وجبة خفيفة عند العصر. وهكذا راحت سيسان الطقوسية والنائية تكشف عن طبع أكثر انفتاحاً، وكشفت هي نفسها أيضاً أنها أكثر ميلاً لتبادل الحديث مع تلك المرأة ذات الشعر الأشقر الذي تظهر فيه بعض شعرات شائبة، ويحمل وجهها بدايات تجاعيد كعلامة على مرارة خفية. في بعض الأحيان، خلال دروس اللغة الفرنسية، كانت الآنسة سيسان تنشد قصيدة بديعة، أو تقرأ بانفعال صفحات ذات جمال خاص لكُتَّابها المفضّلين. وفي أيام أخرى، بعد الدرس، تعزف على البيانو بعض المقطوعات. وكان هناك لحن خاص تعزفه الآنسة سيسان بإحساس مميز. كان لتلك الموسيقى وقع قديم، وإيقاع رتيب، وإحالة مبهة إلى ذكرى دينية عذبة. يبدو كما لو أنها تختزل، في همس غير مفهوم، قصة محزنة. سألت نونيا الآنسة سيسان عن هوية ذلك اللحن. وبعينين طافحتين بالدموع، قالت لها الآنسة إنها موسيقى قديمة، ألّفها شخص أحبّته. وظلت هكذا، ملتفتة بنصف وجهها، كأنها تصغي إلى الصدى البعيد للنغمات التي تعزفها والدموع تملأ عينيها.

وفي مساء أحد الأيام، أهدت إليها الآنسة سيسان علبة فضية صغيرة، لها مظهر عتيق جداً. كانتا تجلسان معاً في كافيتريا، وراحت هي تقلّب العلبة بين يديها، متلمسة نعومة تلك الزخارف المصقولة. عندئذ، بصوت خافت جداً،

Twitter: @alqareah

خالطة اللغتين في سردها مع بعض الكلمات غير المفهومة، بدأت الآنسة سيسان تروي لها قصة حياتها، بمعطيات مضطربة راحت تنضبط تدريجياً، ليس في تسلسلها الزمني، وإنما في مضمون أحداثها.

في بدايات القصة، كان ينتصب البيت الذي وُلدت فيه ملفوفاً بالضباب. وكانت تستحضر الهدوء الريفي بمذاق الخلود الذي يميزه، والسنوات اللانهائية في تلك الوحدة المنزلية الصاخبة التي تذكرها بها كثيراً هذه المدينة.

كانت السليل الوحيد لبطل مات في الحرب. ومنذ طفولتها كانت تجتهد في العزف على البيانو يوماً بعد يوم لتُدخل الفرح على حزن أمها، وهي امرأة صموت ومعتلة الصحة.

وذات يوم، وكانت قد أكملت الخامسة والعشرين من عمرها، بينما لا تزال حياتها تتمدد بعذوبة في الصدى الخالد لإيقاع الطفولة والصبا نفسه، قامت برحلة مع بعض الصديقات لزيارة دير قديم. وفي عتمة الكنيسة، كانت تتردد موسيقى أرغنّ كحسرة مكرورة، فأحسّت فجأة بأن في ذلك اللحن تعبيراً موضوعياً وغيرياً عن الحزن الطويل الذي ضمخ حياتها الهادئة لسنوات طويلة.

صعدت إلى منصة جوقة المرتلين دون أن ترى الأرض التي تطأها، شاعرة بأن كل درجة هي تأكيد لطريق يترسخ فجأة في الظلام من أجلها وحدها. وأمام أرغنّ كبير، في منتصف منصة جوقة الترتيل، كان يجلس راهب شاب يحرك يديه بحماسة على طول ملامس الجهاز، أو يتحكم بمفاتيح تغيير طبقات الصوت. وكان المصباح الأصفر الذي يضيء نوتة الألحان يضفي بريقاً على عينيه.

هناك فوق،كانت موسيقى الأرغن تكتسب زخماً مؤثراً. راحت تقترب ببطء حتى صارت بجانب الملامس. بدا كما لو أن موجات الصوت لا تنبعث من أدوات الجهاز المخفية، وإنما من جسد الراهب نفسه، عبر يديه الضخمتين. ظلت جامدة دون حراك للحظات؛ لكنها بعد ذلك، وكما لو اجتذبتها دوامة يشارك الصوت نفسه في قوتها، قرّبت كامل جسدها من الأرغن حتى أسندت إليه بطنها وفخذيها. كان اهتزاز الآلة يصفع سطح لحمها، ثم يتغلغل فيها دون خلاص. عندئذ نظر الراهب إليها، وبالطريقة نفسها التي أمسكت بها الاهتزازات بجسدها، سيطرت تينك العينان على إرادتها.

كانا متحدين عبر الأرغن والموسيقى والنظرة المتبادلة. أخذ الراهب يزيد

Twitter: @alqareah

من حدّة اللحن، وظلا يتبادلان النظر بثبات لوقت طويل، بينما كل منهما يشعر باختناقٍ يُسرع من إيقاع تنفسه وخفقان قلبه.

قطع وصول صديقاتها ذلك الافتتان الغريب. اقترين منها وأنّبنها مازحات على اختفائها المفاجئ. توقف الراهب الشاب عن العزف وواصل تأملها بهيئة مرتبكة. وقبل أن تنزل، أعادت النظر إليه وتأكدت من أنه ظل ثابتاً، وأنه ينظر إليها أيضاً بعينين ثابتتين وشرهتين.

وخلال الأسابيع التالية، ظلت تلك الأحاسيس مشتعلة في داخلها. بدا لها أنها لا تزال تشعر بذلك الأرغن الكبير كجسد حي ونابض يشكل امتداداً لجسد ذلك الرجل المجهول ولجسدها هي نفسها، إلى حدّ إجبارهما على ذلك الاتصال الخفي، ذلك التماس الفريد. وبدل أن تهدأ تلك الذكرى، راحت تتحول بازدياد إلى انجذاب طاغ. وأخيراً، عادت تكرر الزيارة، وحدها هذه المرة، إلى الدير البعيد. ووصلت في أول ساعات مساء خريفي. وعلى المذبح الأكبر كانت بعض الأضواء الضعيفة ترتعش في مواجهة الظلمة الآخذة بالتماسك.

كان الأرغن يصدح كما في المرة السابقة. صعدت الدرجات، وعندما صارت فوق، تأملت الراهب نفسه تحيط به هالة من بريق المصباح. تقدمت بعد ذلك، غير أن حياء غريباً منعها من إلصاق جسدها بالأرغن، مثلما فعلت المرة السابقة. توقف الراهب عن العزف، نهض واقفاً واقترب منها وهو يمد يديه المرتعشتين. كان معصما قميصه يلمعان على معصميه، وإلى ما فوق ذلك، كان مسوحه آخذ في الذوبان في ظلمة منصة الكورال نفسها، بحيث لم يكن يظهر سوى اليدين والعينين فقط في الفضاء الكثيف، كيدي ووجه كائن أكثر من بشري، هائل، مادّته هي الكنيسة كلها، وصدى الموسيقى الذي مازال نابضاً، وتذبذب ضوء الشموع البعيدة.

وصل إليها، واحتضنها. كان الجزع يحرقه مثل جرح. قادها الراهب بحزم إلى الظلمة في العمق، حيث تنفتح حجرة صغيرة ممتلئة بأمتعة معفرة بالغبار، تأتيها إضاءة قليلة من كوة عالية مدوّرة. جلسا هناك أحدهما إلى جانب الآخر، وشرعا يتمتمان بمتوالية طويلة من فقرات لا يسمعها أي منهما، من كلمات غير مترابطة هي مع ذلك تصريحات غرامية. كان لقاؤهما اكتشاف أمل أرضي وقريب كان حاضراً، وإن بصورة مشوشة، ومترصداً داخل كل منهما. وكان لاتصالهما الأول عبر ذبذبات الأرغن طابع الخطوبة.

Twitter: @alqareah

عادت إلى بيتها. لكنهما بدأا منذ ذلك الحين مراسلة محمومة، ترسل هي رسائلها إلى بعض تلميذات الراهب الروحيات. استمر التواصل الجديد حتى أعياد الميلاد، حين عادت لزيارته. ومن جديد كانت منصة الكورال شاهداً على لقائهما، وحجرة الركن الصغيرة التي كان الراهب قد نقل إليها كومة أقمشة قديمة، ستائر وملابس خدمة القداس صارت فراش زوجية لهما، وهو المكان الذي تعارفا فيه بصورة أكثر حميمية. كان يدخل من الكوة المدورة ضياء الثلج الأبيض كأنه نور سماوي. وكانا يرتجفان كمريضين. أخرجهما، بفزع، من حلمهما قرع نواقيس بدأت تدوي فوقهما.

وفي الربيع هربا معاً. وظلا معاً عدة سنوات. كانت حياة بلا وجهة محدّدة، تضطرهما في الشتاء إلى البقاء في إحدى المدن ليقضيا الأيام في دروس موسيقى منهكة، تدفع بهما في أيام الدفء إلى الدروب الريفية. وتحولا بعد ذلك إلى حاجّين. وبدأت هي ترسم وتمارس أيضاً تجارة أثاث وقطع قديمة، فصار هذا العمل، على المدى الطويل، كافياً لنفقات معيشتها. وكان هو يصل إلى الكنائس الأخيرة في أقصى كل طريق بنوع من النشوة الدينية، كما لو أنه يستعيد إحدى تلك الأحاسيس التي كانت تحتجز روحه في حياته السابقة. فيطلب الإذن في العزف على الأرغن، وما إن يحصل عليه حتى يجلس أمام لوحة المفاتيح ويعزف لساعات طويلة متوالية.

ومع أنهما كانا لا يزالان سعيدين، إلا أن غمّاً قاتماً راح يسيطر على الرجل بصورة متعاظمة. ومنذ شتاء جافّ ودافئ على نحو استثنائي، ما عادا يستمتعان تقريباً بلحظات حميمة. وراح هو يدخل بعد ذلك في حالة متمادية من البكم. وكانا قد امتلكا في ذلك الحين العربة والبغلة.

وفي أحد الأيام، وكانا يجوبان أحد تفرعات طريق الحج في فرنسا، توقفا لقضاء الليل على مرتفع، عند أقدام رؤوس صخرية ضخمة. وكان يمتد تحتهما الوادي الفسيح، حيث تتناثر بيوت الفلاحين. وفي الصباح، بدأ يوقظها صياح الديكة ونباح الكلاب وأصوات الجلاجل، وكل الأصوات التي كانت تتردد أصداؤها الوديعة بين الحقول. استيقظت بصعوبة، وبتعب شديد، كأن النوم في تلك الليلة قد نزل بها إلى هوة لا قرار لها. وكان قلبها طافحاً بحزن مجهول، لا خلاص منه.

لم يكن هو إلى جانبها. لكن غيابه، كما في مرات أخرى سابقة، لم

Twitter: @alqareah

يُثر استغرابها، إذ كان ينهض في أصباح كثيرة مع الفجر ليتمشى في الغابات والجبال في لحظات النهار الأولى. لكنها أحست في ذلك الصباح بجزع غريب.. بهاجس شؤم.

خرجت من العربة. كانت الشمس الذهبية تبدأ صعودها على المرتفعات المقابلة. انقطعت الأصوات الريفية للحظات: لم تعد الديوك تصدح، ولم تعد الكلاب تنبح، وتوقف كذلك رنين الجلاجل، وحتى همهمة الأصوات البشرية وزقزقة العصافير توقفت. لا شك أن الأمر مجرد مصادفة، لكن ذلك الصمت أخافها. جابت المنطقة المحيطة بنظرتها.

على مرمى حجر منها، تبدأ بقعة أشجار تغطي السفح. كانت هناك شجرة كستناء ضخمة معزولة، كأنها تحدّد الحد بين تلك الغابة الصغيرة والصخور الجرداء التي تصعد حتى ذروة الهضبة. إلى أحد جانبي شجرة الكستناء، وكضد لخضرة أوراق الشجر، كان تتدلى حزمة كبيرة، قاتمة كأنها كيس. بدأت تلك الصورة الأولى تتحول فوراً إلى حدس فظيع: فالحزمة لها كذلك شكل جسد بشري غير واضح المعالم، واللون يوحي بلون ثياب مألوفة، الثياب التي يرتديها هو، والتي تُذكّر أكثر فأكثر بأثوابه أثناء حياته كراهب.

ـ لم أشأ الاقتراب ـ همست الآنسة سيسان ـ فضّلتُ التفكير في أنه كيس بالفعل. وظللت طيلة النهار أنتظر في العربة دون حراك. لكنه لم يعد. ومع بداية الغروب رحلت.

❖ ❖ ❖

ذُهلت نونيا ببوح الآنسة سيسان. وعندما ابتعدت بعد ذلك عنها مؤرقة، ساورها الشك في أن الرواية بحد ذاتها خطيئة مريعة، لأن القصة كلها تشعّ بفيض جلي من الضلال والعهر. والآن، تتوارد إلى عقلها بضراوة بعض التقولات التي كانت تصم الفرنسية بالخفة، وتشير إلى أنها تعيش، كما يبدو، حياة أخرى موازية، تسعى فيها إلى صحبة الذكور وإلى صداقة متمادية مع بعض الفتيان. ومع أن نونيا لم تكن قادرة على التحقق من ذلك كله، إلا أنه كان يعني في نظرها أنه يمكن للآنسة سيسان أن تكون سبب ذلك الجفاء الذي أحزنها كثيراً.

ومع ذلك، ظلت الغلبة، إلى جانب مخاوفها وشكوكها، لصورة تلك المرأة

Twitter: @alqareah

المألوفة، صورتها حين تلتقيان في سان إيسيدرو وتُظهر حماسة إيمانها عند تناول القربان، أو حين تُعطيها الدروس بدقة واهتمام، أو لحظات البوح تلك، في أماسيات أخرى، قبل أن تخبرها بقصتها الرهيبة. أضف إلى ذلك أنها أبدت أثناء رواية الأحداث حزناً واضحاً.

كان انعدام التوافق بين المظهرين يقلقها. وعلى الرغم من محاولتها إبعاد تلك القصة القاتمة عن مخيّلتها، فقد كانت ترى، في عتمة الحجرة، معروضة على سواد رموشها، كما على شاشة سينما، استعادة لمشاهد وحركات مخيفة متوالية.

كانت لا تزال حينئذ صبية فتية، وكانت تفكر بسذاجة في أنها قد تضطر هي نفسها ذات يوم، بعيداً عن مدينة مولدها، وحين يتحقق قدر النجاح والتألق الذي يحلم بهما أبواها، إلى مواجهة عالم ممتلئ بقصص خاطئة ورهيبة أيضاً. وقد حاولت تقبلها كمعطى آخر في تجربتها. لكنها منذ ذلك الحين، وعلى الرغم منها، صارت تتجنب لحظات البوح مع الآنسة سيسان. أما الآنسة، فظلت تتعامل معها بالطريقة نفسها التي كانت عليها في الأوقات الأخيرة، بإبداء اهتمام حنون وساهٍ بعض الشيء، دون أن يبدو عليها أنها تولي أهمية خاصة لاعترافها الطويل.

في مساء هادئ من شهر أيار، وجدت في الكاتدرائية لقية مفاجئة. كانت قد دخلت لتصلّي بضع دقائق، مثلما هي عادتها الدائمة كلما مرت قريباً من المعبد ولا تكون مستعجلة. فالكاتدرائية تفتنها وهي صامتة وخالية في هذه الساعات المسائية. جثت على أحد المراكع الأخيرة، قرب منصة كورال المرتلين، واستغرقت في صلاتها للحظات، بعينين مغمضتين. وبعد ذلك، جلست، وتكورت على المقعد وهي ترفع بصرها. راودها إحساس متنام بأنها في جو متحرك يتذبذب في ما حولها. هناك في الأعلى يشتعل زجاج النوافذ طاغياً على ظل ممرات الكنيسة الخفيف، بحيث يمكن الظن أنه بدل الزجاج هناك ضوء متعدد الألوان آت من السماء الحقيقية، سماء الملائكة والقديسين. الدعائم التي تصعد من الأعمدة حتى أقواس الممر، في أعلى السقف المقنطر الطويل، ترسم شكل أضلاع كبيرة، كأنها داخل هيكل عظمي لحيوان ضخم غامض. ربما كانت الكاتدرائية طائراً ضخماً يحلق في السماء الإلهية، وتلك الذبذبات ليست إلا حركة طيرانه. توصلت أحلام يقظتها

Twitter: @alqareah

إلى إبهارها إلى حدّ عبر معه في خيالها، حين نهضت واتجهت نحو المخرج، ظل فكرة مقلقة: التحليق حقيقي، وليس هناك في الخارج شارع ولا بيوت، وإنما فضاء غير متناه متعدد الألوان وحسب.

ومع ذلك، لم تكن الكاتدرائية الظليلة المقفرة صامتة في ذلك المساء. كان هناك من يعزف على الأرغن، والمصباح الذي يضيء عمله، وهو نقطة الضوء الوحيدة في منصة الكورال، يسمح برؤية ظهر يغطيه قماش مسوح بنيّ اللون. وأخيراً، رأت أيضاً، عند أسفل منصة الكورال، دون آغابيتو يصوب عينيه إلى عازف الأرغن. كانت شريطة ياقته البنفسجية تبرز بوضوح على خلفية العنق شديد البياض عند قاعدة الحنجرة الناتئة، كأنها علامة ذبح رقيق.

جلست هي وواصلت الاستماع إلى اللحن. كان الطائر الضخم يخفق بجناحيه في الفضاء العميق، وجلبة الأرغنّ بأصوات الأبواق والكلارينات، والفلاوتات، والنايات أشبه بنبضات قلب كبير مبتهج. أحست أنها ممتلئة بطمأنينة عذبة.

وبعد قليل، بعد إنهاء بعض الدوزنة، بدأ عازف الأرغن ضبط نغمات لحن، تميز بسلسلة نغمات مقتضبة تتكرر بتدرجات متتالية، وبإيقاع بطيء ووقع كئيب، و تعرّفت هي على تلك الموسيقى. فبأصداء أخرى، وتنغيم متعدد ووافر، كان اللحن هو نفسه الذي اعتادت أن تعزفه على البيانو أحياناً الآنسة سيسان بكثير من الأسى.

استمعت بجمود، وقد وقعت فجأة ضحية إحساس بارتباك وخوف. نهضت بعد ذلك، وفتحت الحاجز الصغير، واجتازت المسافة القصيرة التي تفصلها عن منصة كورال المرتلين، واقتربت من دون آغابيتو أدار رأسه وقطب عينيه كي يحدد هويتها.

ـ أهلاً، يا جميلة ـ تمتم هامساً ـ منذ وقت طويل لم أراكِ. هل جميعكم بخير؟

أكّدت له ذلك بهز رأسها. ثم رفعت يدها وأشارت إلى عازف الأرغن الذي كان شعره الطويل يظهر على كتفه.

ـ من هو؟

ـ إنه حاجّ ـ ردّ دون آغابيتو.

والتفت ليتأمل العازف لحظة، ثم نظر إليها من جديد.

Twitter: @alqareah

- إنه بارع في العزف على الأرغن. قضى المساء كله في العزف، ولا أدري كيف لا يتعب. لقد مرّ من هنا منذ سنوات أيضاً. وسيعزف في قداديس الأحد.

وبعد قليل، حين أنهى عازف الأرغن عزفه المندفع والكئيب، نهض واقفاً ونزل إليهما. كان رجلاً ناضجاً، له حاجبان كثيفان ولحية طويلة يتخللها الشيب، تمتد تحت الوجه كأنها استمرار لإكليل. وكان شعره الطويل ينسدل على الكتفين.

- إنني جائع - قال الحاج.

كان صوته خشناً لكنه واضح جداً. انطلق ماشياً أمامهما وكانت خطواته الواسعة المدوية تلغي بحسم أصداء النغمات الأخيرة التي يبدو أنها مازالت تتردد في أنحاء الكنيسة بعد ذلك العزف الطويل. تبعته هي ودون آغابيتو دون كلام وهما يغذان الخطى، حتى خرجوا إلى الشارع. اجتاز الحاج الطريق واتجه دون تردد نحو البار المقابل. ومع أن الظلام قد خيم، إلا أنه كانت هناك جماعة كبيرة من الزبائن عند منضدة الكونتوار. دخل الحاج إلى قاعة الطعام المقفرة وجلس إلى إحدى المناضد. كان دون آغابيتو يتلمس جيوبه بعصبية شديدة.

- يا للورطة يا بنتي - همس - هل لديك بعض النقود؟

وقالت هي لا.

- يا للورطة، رباه - أضاف الكاهن القانوني.

جلسا قبالته. ولم يتناول دون آغابيتو ولا هي أي شيء. طلب الحاج وجبته بدقة عارف قديم. تأملاه وهو يأكل صامتين. وأخيراً استدعى دون آغابيتو النادل جانباً وهمس شيئاً في أذنه، مشيراً إلى الحاج. مسح الفتى مرة أخرى سطح المنضدة بالخرقة، وقام بسلسلة حركات تأكيد توقيرية طمأنت الكاهن القانوني.

وبعد قليل، نظر إلى ساعته ونهض. ثمة واجب يستدعيه. ودّعهما بمودة، ولكن باقتضاب شديد.

- وأنتِ، انقلي تحيّاتي إلى أبويك - قال لها.

هكذا، بصورة غير متوقعة، وجدت نفسها تجلس قبالة ذلك الرجل. وفوق الغفارة التي مازالت تحتفظ بالكتفية التقليدية، كان يعلق أصدافاً وميداليات. وكان دبوس بكلة يثبت إلى صداره من الداخل جراباً صغيراً من قماش مشمع. مسح الطبق بقطعة خبز، وشرب كأس النبيذ دفعة واحدة، وظل ينظر إليها بإمعان.

Twitter: @alqareah

ـ فلنصلِّ ـ قال.

بقي مغمضاً عينيه لحظات، كأنه مستغرق في صلاته. ثم فتحهما أخيراً ونظر إليها مرة أخرى. كانت عيناه قاتمتين محاطتين بتجاعيد مثل عيني عجوز، لكنهما حيتان ولامعتان. اسند ظهره إلى الكرسي وقاطع يديه على بطنه.

ـ أنا خاطئ كبير ـ هتف ـ ارتكبت خطايا كثيرة، كثيرة جداً. كم عمرك؟

أخبرته بعمرها. ولم تشأ التحدث إليه عن اللحن، وإنما كانت راغبة في الانصراف. كانت تصل من البار أحاديث الزبائن، لكن عزلة قاعة الطعام التي تضاعفها الإضاءة الشحيحة من مصباح وحيد يعلو الجزء الذي يشغلانه، أحدث فيها إحساساً حاداً بالخذلان. ومع ذلك، لم تجرؤ على النهوض. احتفظت بالصمت كأنها تنتظر أن يحل هو الموقف بحركة وداع. لكن الحاج راح يتكلم ببطء، ناظراً إليها بثبات دون أن يرمش تقريباً، وبدا كمن يدعوها إلى إغفاءة ناعمة، مثل سحرة المهرجانات الشعبية.

لقد كان راهباً في دير بعيد مشيد بأحجار رمادية تغطيها طحالب زرقاء وأشنيات مذهبة. وذات مساء، بينما هو يعزف على منصة كورال المرتلين، جاءت إليه فتاة. لها عينان تشبهان، هكذا، لون العسل القاتم. جاءت من السواد، كأنها حضور مضيء، خفيف جداً في البدء، ما لبث أن تجسد أمامه. كان يعزف والفتاة تقترب. وأدركت نونيا أن هذه القصة هي الوجه الآخر لقصة الآنسة سيسان. كانت تستمع إليه بذهول، فاغرة فمها قليلاً، ويداها تستندان إلى المنضدة في حركة استعداد للنهوض، راغبة في أن تقوم دفعة واحدة بالجهد الذي يسمح لها البدء بالانصراف، بالمغادرة. لكنها ظلت هناك، غارقة في ارتباك يضغط على صدرها ووجهها.

كانت قصة الرجل تتحدث عن بدايات ذلك الافتتان، وذلك الهروب، وذلك الترحال الطويل المشترك. وعن التنافر، والغم القاتم الذي عزته الآنسة سيسان إلى رفيقها، بينما ينسبه الحاج إلى امرأة قصته. وأخيراً، وصلت روايته إلى ذلك المنظر المطل على الوادي الفسيح، أسفل القمم الصخرية. وأوضح الرجل أنه اعتاد، في أيام الطقس الجيد الاستيقاظ في بداية الفجر، والتمشي مستنشقاً الروائح الوليدة، وهو يصغي إلى أصوات الاستيقاظ ويرى اشتعال الأشجار والأشياء إلى أن تكتسب حجم الواقع والحياة الحقيقيين.

Twitter: @alqareah

كانت الآن على وشك أن تبكي. أحست بالخوف من ذلك الرجل، ومن القصة التي تنطبق تماماً على النصف الآخر الذي روته الآنسة سيسان لتزيد من قلقها.

انتهت نزهته قرب شجرة كستناء ضخمة. وكان الصباح يفتح أصابعه المترعة بالنور. وهناك في الأعلى، كانت العربة تبرز على خلفية المنظر بهيئتها الغائمة. وكانت البغلة، وهي تستيقظ مبكرة، تقضم بعض العشب. اقترب من العربة ولاحظ جمود رفيقته النائمة. لكنه أدرك أخيراً، بذعر، أن ذلك السكون يبدي بُعداً أكثر شؤماً وحسماً من سكون النوم. فدخل إلى العربة، وألقى بنفسه فوقها، احتضنها بذراعيه، هزّها بقوة يريد إيقاظها.

ـ كل ذلك كان بلا جدوى ـ همس الحاج ـ. كانت ميتة. استولى عليّ يأس رهيب، وابتعدت أنبح مثل كلب. مشيتُ أياماً عبر الغابات وأنا أقرب إلى البهيمة مني إلى الإنسان.

رفعت نونيا يديها. وكانت لا تزال غير قادرة على البكاء. وتشكلت كلماتها بدقة ووضوح.

ـ إنها هنا.

نظر إليها الحاج باستغراب، دون أن يفهم.

ـ هنا، في المدينة ـ كررت نونيا ـ تعلمني الفرنسية والعزف على البيانو.

شرعت تدندن اللحن، وتضبط الإيقاع بسبابة يدها اليمنى.

نظر إليها الحاج بتكشيرة مخيفة. وعلى بريق لحيته الضارب إلى البياض، كانت بقايا السجق المنزلقة تُبرز أخاديد تكشيرة مؤلمة. قفز واقفاً، وأزاح الكرسي بصخب، والتقط عن الأرض عصا الحاج الكبيرة التي تنتهي برأس حديدي.

ـ هنا؟ ـ صرخ.

انقطعت الأحاديث في البار وأطل رجلان من الباب. أكدت بهز رأسها عدة مرات. ودون أن يقول الحاج كلمة واحدة، انصرف راكضاً في هروب يائس.

عندئذ تحول ارتباك نونيا إلى رغبة متعجلة في معرفة تلك العلاقة بصورة كاملة. انتظرت بلهفة خلال الوقت المتبقي للدرس التالي، وعندما جاءت الآنسة سيسان أطلعتها على الخبر. كانت هي نفسها قد فتحت لها الباب، وكانتا تقفان معاً في الردهة القاتمة، تحت الضوء العمودي للمصباح الصغير.

Twitter: @alqareah

ـ وجدتُ صديقك ـ أوضحت نونيا ـ إنه حي. لا يزال حياً. مساء أمس كان يعزف على الأرغن في الكاتدرائية. إنه هو، لا شك في ذلك. وهو من قاله لي.

استمعت إليها الآنسة سيسان مذهولة، بشفتين منفرجتين في أول الأمر، ثم مزمومتين بقوة بعد ذلك. وأخيراً اتجهت دون أن تقول شيئاً إلى الرواق. تأخرت طويلاً قبل الإشارة إلى الحدث، لكن الدرس استُبدل أخيراً بأسئلتها حول الحاج وبفترات صمت طويلة لتستوعب المعلومات. وعندما انتهت ساعة الدرس، ظلت لبعض الوقت جالسة هناك، بذراعين متهدلين، وجبهة مقطبة بتجاعيد عميقة، بين الكتب المبعثرة على السرير، بينما كانت طيور السنونو، في ذلك المساء الصيفي، تطير في الجانب الآخر من النافذة فوق الثياب المنشورة.

لم يعرفوا ما الذي جرى، لكن الآنسة سيسان لم تعد إلى البيت، حتى إنها لم تودعهم، على الرغم من أنهم كانوا مدينين لها بأجر خمسة عشر يوماً. وقد قيل لهم إنها، كما يبدو، رحلت على عجل كأنها هاربة من شيء ما. لقد فوجئ أبواها كثيراً، لكن نونيا شعرت بسعادة لا تفسير لها حيال تلك الأحداث.

❖ ❖ ❖

بدء ذلك الحلم وتكراره التالي والدائم لم يكن فورياً. إذ كان عليها أن تلتقي كلاً من الحاجين مرة أخرى في واقع اليقظة، وإن صارت تشك مع مرور الوقت في أن ذلك اللقاء كان حلماً أيضاً، وبالتحديد الحلم الأول فيها جميعاً، حلم البدء في تلك السلسلة الطويلة.

حدث ذلك بعد سنوات من اختفاء الآنسة سيسان الغريب، في مساء يوم أحد بارد جداً. كانت نونيا ترغب في زيارة إحدى المدن القريبة. وكانوا قد اشتروا حديثاً سيارة صغيرة، ولم تكن الرغبة في السفر تحتاج إلى مسوغ أفضل من ذلك. كانت أمها لا تزال على قيد الحياة، وبعد تبادل الحديث على المائدة، توجهوا إلى المدينة القديمة. تركت نونيا السيارة قرب الكاتدرائية، وكان أبواها على وشك الدخول إلى المعبد، عندما اكتشفت، على بعد خطوات أمامها، هيئة أنثوية تلبس بطريقة غير مألوفة كثيراً. وعلى الفور تعرفت فيها على الآنسة سيسان، وكانت تقف ثابتة تتأمل الأبراج الوردية. اقتربت نونيا منها بعد تردد.

ـ آنسة سيسان ـ هتفت ـ إنني أنا.

Twitter: @alqareah

أدارت المرأة وجهها ونظرت إليها باسمة. لم يبد عليها أنها عرفتها.

ـ أنا نونيا. ألا تتذكرينني؟

قامت المرأة بحركة لطيفة، لكن إنكارها كان جازماً.

ـ لا، الحقيقة أنني لا أتذكرك. عليك أن تعذريني. ربما كنتِ مخطئة، فأنا لست من هنا.

اعتذرت نونيا بدورها وابتعدت عنها. لقد استيقظ فيها إحساس بالذعر، وظلت جامدة على بعد خطوات خلفها، أسيرة هاجس شرس لا تستطيع تحديده. وأخيراً، دفعها حدس مجهول بالطريقة نفسها إلى الابتعاد صعوداً في الشارع، تاركة أبويها وحيدين وحائرين عند عتبة المعبد.

وفي نهاية الشارع، عند حافة حديقة صغيرة مهجورة وقذرة، التقت بالحاج. كان يغطي رأسه في هذه المرة بقبعة جلد بني كبيرة. ولم يفاجئها ذلك الظهور، فدون أن تدرك مغزاه، كان يتوافق على نحو دقيق بصورة خاصة مع هواجسها. أوقفته بإشارة منها، فحدق فيها بعينيه البراقتين القاتمتين.

ـ ألا تتذكرني؟ ـ سألته نونيا.

نفى الحاج ببطء.

ـ في أحد الأيام رويتَ لي قصة حزينة جداً: حين وجدتَ رفيقتك شبه نائمة. وبعد ذلك هربتَ عبر الجبال.

واصل هو النفي، مع أن توتراً واضحاً راح يهزه. كان أنفه محروقاً بالشمس.

ـ إنها هنا ـ أضافت نونيا مشيرة دون تحديد إلى عمق الشارع وراء ظهرها ـ قرب الكاتدرائية.

ـ هنا؟ ـ سأل الحاج.

وبدا عليه أنه فهم. ثم أدار ظهره، وبالتصميم نفسه الذي أبداه في ذلك المساء البعيد، ابتعد صعوداً في الشارع، إلى أن اختفى.

ذلك اللقاء كان حقيقياً، وإن كانت تظن أحياناً أنها رأته في حلم أيضاً. ومع ذلك، مازال التذكر يحتفظ بمظاهر محددة من اليقظة واضحة جداً؛ ففترة المساء كانت قد انقضت بانتظام تواليها الزمني المعهود، والأمكنة تمتد بأبعاد ثلاثة، ونظرتها تلتقط الإسقاط الوحيد الذي يتلقاه وجهها بالذات. كان شتاء، وقد بدأ الغسق يلون الأبراج بلون الذهب، وكانت الحمائم تخفق بأجنحتها، وكان للأصوات والأعمال معناها الدقيق المحدد. وقد ملؤوا خزان

Twitter: @alqareah

السيارة بالبنزين، وتناولوا قهوة بالحليب مع خبز ممسوح بالزبدة. وكانت أمها تدشن قفازين أسودين، ولم يكن أبوها قد أقلع عن التدخين بعد، فكان يستنشق دخان سيجارته بتلذذ.

أما الحلم الأول فحدث في وقت لاحق، وإن كانت لا تتذكر متى على وجه التحديد، مثلما لا تتذكر مواصفاته بالضبط. قد يكون ذلك أثناء وجودها في الخارج، في رحلة مرتجلة مع أساتذة آخرين من المعهد الموسيقي. وقد التقت بالحاج على قرميد سطح واحدة من تلك الكاتدرائيات الضخمة. كان الرجل يشد إلى جسمه العكاز الطويل، وكان منبطحاً على السطح، بعينين مغمضتين وقدمين متلاصقتين. وكان ظل رمادي يوحد ألوان وحجم جسده، بحيث يمكن الظن، بالرغم من معرفة أنه لحم وعظم، أن ذلك الجسد هو تمثال راقد، أو منحوتة من واجهة المعبد نفسه، انتُزعت من مكانها لأسباب مجهولة كي توضع هناك فوق.

اقتربت قدر الإمكان من تلك الهيئة وتعرفت فيها على الحاج. «اسمع، إيه» همست عدة مرات محاولة لفت انتباهه. «أنت، سمع» وأخيراً حرك رأسه قليلاً، أداره، وصوب إليها عينيه، ولكن بسلبية تمثال حجري. لم تقل هي شيئاً. كانت تشعر بهزة خاصة في صدرها. ابتعدت عن ذلك الجسد الضارب إلى البياض ذي الرأس الأشعث والغفارة الطويلة، وبحثت عن السلالم لتنزل بسرعة، بعكس اتجاه الزائرين، وهم جماعة كبيرة من نساء نحيفات وشقراوات ورجال شاحبين يعتمرون قبعات صغيرة واقية من المطر. صار السلم في النهاية مظلماً جداً، ومنحتها الأرضية والجدران إحساساً منفراً بالليونة، كما لو أنها تهبط عبر أنبوب عضوي لزج. وبعد زمن طويل، وصلت إلى مستوى الشارع. واصطدمت بالآنسة سيسان عند الباب الصغير نفسه المؤدي إلى السلالم الضيقة. التصقت إحداهما بالأخرى، مثل قطعتين من لعبة تركيبية وجدتا وضعهما الصحيح. توقفت صفوف السياح بقرع نعال وتصادم آلات تصوير.

«سيسان»، صاحت هي. كان كالهيئة التي رأتها عليها في الواقع منذ سنوات، لم يتغير شيء في الشعر الأشقر الذي يتخلله بعض الشيب، ولا في تجاعيد الوجه الخفيفة، ولا في العينين اللتين يلمع فيهما الأسى القديم نفسه. «إنه فوقُ»، قالت نونيا، ولم تدر إذا ما كانت هذه الكلمات نفسها قد خرجت منها أم كانت جملة أخرى تعجز عن فهم معناها. «إنه فوق»، كررت، «إنه

Twitter: @alqareah

منبطح على قرميد السقف، مثل تمثال راقد. والحمائم تمشي بين نعليه.» عندئذ انفصلت الآنسة سيسان عنها دون جهد، بالسهولة الدقيقة للعبة التركيبية نفسها، وابتعدت. ظلت هي تراها تبتعد، وقد انحنت فجأة كتلة ذلك الجسد، مستغربة التزامن الذي تتأمل فيه صورتها من نقاط متعددة في الشارع، ومن فوق كذلك، وفي الوقت نفسه من مستوى سطح البلاط الذي تدوسه الأقدام الهاربة.

ربما كان هذا هو الحلم الأول، أو ربما يكون قد جرى في أجواء مساء كثيف الضباب، إلى جانب الأحجار الكبيرة التي ترى فيها المخيلة الشعبية القارب المبارك وشراعه، في مصلى للعذراء قبالة الأطلسي القاتم، المزبد. ومن أعماق الضباب كان يصل صوت صافرة عميق، في تحذير دائم لمن يمخرون الماء قريباً من الصخور الخطيرة، ومن أماكن المياه الضحلة القاتلة. كان المنظر استنساخاً، ببريق أشد جلاء، لمكان من شاطئ ذهبت إليه فعلاً لقضاء أيام صيف إحدى السنوات، يدفعها فضول قديم، عاد يستحثها فجأة.

راح الضباب يتحلل إلى خيوط طويلة، كما لو أن إصبعاً غير مرئي يفككه. واكتشفت نونيا، وهي مستقرة بثبات على أحد الأحجار المقدسة، هيئة يمكن أن تتطابق مع كتلة صورة ما، ولكنها كانت هي دون ريب. كانت ترتدي معطفاً أحمر بقلنسوة، والقلنسوة تغطي رأسها، ولكنها حين التفتت، بدت ملامح وجهها التي لا لبس فيها. اقتربت نونيا منا لتكلمها، لكنها لم تستطع: فكلما فتحت فمها، كان جؤار الصافرة العظيم يطغى عليها ويجعلها تجأر أيضاً بصوت يتبدد فوق الأمواج الرمادية في البحر الهائج. وعندئذ أدارت نونيا رأسها وبدأت تمشي بسرعة عبر الدرب، واثقة من أنها سترى الحاج قريباً. وبعد قليل، سمعت وقع خطوات، لا تبدو أنها ترن في الدرب وإنما في صالة كبيرة خاوية.

رأته مقبلاً، كانت تراه مقبلاً، مثل رؤيا متزامنة ومتعددة أيضاً، تراه من السماء ومن الآجام، من جهة البحر ومن جهة البر. كان يقترب بخطى واسعة واثقة، يبرز جسده فجأة على خلفية تدفق التيار الأبيض الكثيف. وقفت نونيا أمامه، وحذرته من الحضور الآخر بالكلمات المقتضبة المعهودة، وقد قالتها الآن بمهابة إنذار طقس ديني، رافعة ذراعيها فوق رأسها. توقف هو، ونظر إليها بصمت. وكانت عصابة من ضباب تلف رأسه مثل لفاع كبير، متيحة الظهور لعينيه فقط. عندئذ أبدت العينان تكشيرة، شرارة تفاجئ مذعور، ورأته يتراجع،

Twitter: @alqareah

رأت كيف دار على عقبيه وضاع من جديد وسط الضباب، بينما كانت ضربات كعب عكازه السريعة ترن على الصخور، شاهدة على جريه السريع.

مرات كثيرة أخرى تكرر حدوث الحلم. وكانت نونيا تحدس أنه حلم متواصل، وضمنه يتكرر بدوره التخيل بأنها حلمت بصورة غير متناهية الحلم نفسه، وأنها عادت تحاول ذلك التحذير الذي لم يكن سوى التعبير المصاغ من إشارة مجهولة. وكانت أماكن ذلك اللقاء الحلمي أيضاً تكرر عادة مناظر معروفة. تكون أحياناً المناظر نفسها التي تشعر أنها مضطرة إلى معرفتها في الواقع، وكأنها تفعل ذلك لتحضير مشهد الحلم التالي، وكانت بدورها مناظر متخيلة في نزوة وهم: ربما وهي تفكر في الصيف الدافئ، بينما هي آخذة في النوم وسط مشاريع غامضة عن كيف ستقضي إجازتها، متخيلة أحد الشواطئ البعيدة الدافئة، في الشرق أو في الجنوب، تتداخل في مخيلتها صورة أبراج عالية ومدببة، كأنها شبح صورة توضيحية مفقودة؛ وهكذا كانت تبدل مشاريعها أخيراً، وتختار التعرف على مدينة قديمة في بلد أجنبي، أو معبد ضخم أبيض محاط بشوارع متعرجة، في إطار من حقول برسيم وكرمة، وأشجار جوز هرمة على ضفة نهر عريض وواهن.

ظلت واقفة هناك، متحققة من أن البرجين العاليين أقل تلوناً مما هما عليه في صور النشرات السياحية، لكنهما أشد كثافة وأضخم من تصورها المسبق الذي يتنبأ بصورة صائبة مع ذلك بالأصداء الناعمة لتلك الساحة النظيفة المقفرة التي يجتازها بعض المارة الصامتين. وتشعر عندئذ بقلق، بجزع مفاجئ، ينذر بالحلم الذي ستجد نفسها فيه يوماً في المكان نفسه، قبل اكتشاف كتلة، تبدو مألوفة فجأة، هي أحد الحاجين، والبحث فوراً عن المكان المحتمل الذي يوشك أن يظهر منه الآخر، لتقترب بتصميم وتخبره بكلمات مقتضبة بوجود الآخر، مستردة بذلك خيط تلك المقابلات الضئيلة التي طالما حلمت بها.

❖ ❖ ❖

ـ قبل ثلاثة أيام من لقائنا ذاك ـ واصل الربان ـ استطاعت نونيا أخيراً معرفة معجزات الكتاب. ففي مساء أحد الأيام، جاءت مدبرة بيت دون آغابيتو العجوز إلى بيتها حاملة لفافة تضم كتيباً صغيراً، هو استنساخ فوتوغرافي للكتاب المشهور، يبدو أنه دعاية لشركة نقل بري عبر الطرق العامة ـ فانظر

Twitter: @alqareah

كيف هي أمور الحياة ـ وتتضمن الطبعة نقلاً للنصوص الأصلية. تبحث نونيا بحماسة عن الأسطورة، لكنها لا تستطيع العثور عليها. هناك في بعض الصفحات إشارات مستترة، ولكنها لا تروي بأي حال قصة محددة، دور البطولة فيها لحاجّين، بين قصص أخرى عن بهلوانات وخياطين وراهبات وفرسان. تقوم مجدداً بزيارة دون آغابيتو، لكن الكاهن القانوني لا يستطيع أن يوضح لها شيئاً: ربما كانت المعجزة التي تبحث عنها موجودة في نسخة أخرى من المخطوطة. ولم تكن إمكانية مثل تلك الازدواجية قليلة. فقد كان النساخ يضيفون في بعض الأحيان نصوصاً من إنتاجهم. ولم تعد ذاكرته، على أي حال، قادرة على مساعدتها.

لقد صار كل شيء الآن سواداً حول المركب. وكان ضوء المصباح المتواضع يضيء أحياناً طرف عصا بارزاً فوق سطح الماء، فيدير الربان الدفة قليلاً ليستعيد اتجاهاً لا يمكن إلا لعينيه تحديده.

ـ في ما مضى كنتُ قادراً على الإبحار هنا بعينين مغمضتين تقريباً ـ قال ـ لكنني فقدت منذ زمن طويل عادة الإبحار في هذا الطريق، وصرت أكاد لا أتذكر العلامات.

وقد كانت تلك العلامات، كما يبدو، بعض عيدان القصب المسودة المغروسة في وحول الضفة، أو جذوعاً متآكلة تشبه، عند انعكاس ضوء المصباح عليها، ظهر حيوان ما، أو انقطاعات صغيرة في الرتابة النباتية على الضفة. تنهد الربان وتابع الكلام.

ـ لقد كانت نونيا، حسب اعترافها، قلقة جداً. حاولت العثور على الكتاب في مختلف المكتبات العامة، وفي أفضل المكتبات الخاصة في المدينة، كررت البحث الذي كانت قد قامت به في لحظات فضولها الأولى، إلا أنها لم تلق نجاحاً. ولكن ذلك الاهتمام الذي أيقظته قصة سمعتها غير مكتملة، لم يذُب في عطالة الروتين اليومي. كانت تفكر في الأمر كما تفكر في مفتاح حل لغز غامض ينتمي إليها بما يتجاوز نطاق وعيها. وكانت تعرف في الوقت نفسه أن ذينك الحاجين كانا، لسوء الحظ، كائنين حيين بقدر ما هي نفسها حية، وليسا شخصين خرافيين، وأن عاطفة خاطئة جمعت بينهما، وأن عُقَدَ قلق من عذاب ضمير قديم هي وحدها التي تدفع كلاً منهما إلى الهرب من الآخر بذلك الهياج. كانت تشعر بالشفقة عليهما: فالزمن قادهما

Twitter: @alqareah

من الحب إلى الخطيئة والهزيمة. وكانت هي، بطريقة ما، قد ذرعت طريقاً غامضة، بعد فقدان الآمال البعيدة في مستقبل مبهم حيث سيتيح لها إتقان اللغة الفرنسية ومهارتها الموسيقية الخروج من محيطها الريفي الضيق، والتألق على قمة لا أرق فيها. وصارت تفضل عدم مواجهة الفتاة التي كانتها قبل سنوات، وألا تتذكر في أبيها العجوز ذلك الرجل البعيد الواثق من أن مصيرها يمضي في طريقه المضمون، وإن يكن غير مرئي، وإن ذلك سيفيد أيضاً في التخفيف من كآبته. إنها تقية، لكنها ما عادت قادرة على أداء صلاة شفاعة بصدق. فحتى ذلك الإيمان الصادق في مطلع شبابها قد ذاب، برأيها، في تقلبات العادة. ويبدو أن اختلاط المشاعر والشكوك وأحلام يقظتها كان يقلقها جداً.

لابد أن الساعة كانت الثامنة. قطع الربان حديثه قليلاً، ورفع أحد ذراعيه وأشار إلى البعيد، قبالة مقدمة المركب. كان هناك ضوء خافت يلمع في الظلام.

ـ عندئذ كانت هي، بعد أن أنهت سيجارة أخرى، من وضعت يدها على يدي. وقالت لي إنه في ذلك اليوم بالذات، في ذلك المساء، بدا لها أنها رأتهما بين الجموع. وأنها لم تستطع الاقتراب منهما، وأحست فجأة بأنها مغمومة بصورة رهيبة. وانتابتها قشعريرة انفجرت بين يدينا.

عدل الربان من سرعة المركب قليلاً، وكان يثبت مقود الدفة بقوة.

ـ كانت قد سافرت إلى مدريد لتبحث عن ذلك الكتاب السعيد في المكتبة الوطنية، لكنها لم تحصل عليه أيضاً. وفي مساء ذلك اليوم، تسكعت في الشوارع. وفي إحدى اللحظات، بدا لها أنها ترى الحاج بين جماعة من الناس يدخلون مبنى ضخماً. كان هناك شرطة، وشرائط زينة، إنه جو احتفال رسمي. دخلت قاعة كبيرة، واستطاعت أن تتحقق، بالفعل، من أن الحاج موجودة هناك، بين الشخصيات التي تترأس الاحتفال. كان مرتباً، بشعر مقصوص وربطة عنق، وبمظهر بعيد كل البعد عن غفارته ومظهره، لكنه هو نفسه دون شك. عندئذ أحست أنها تعيش الحدث الحقيقي الذي يمكن لحلمها المتكرر مراراً أن يكون مجرد إعلان أو إنذار به.

وفجأة، دوت فوقهم فرقعة حادة تكررت عدة مرات قبل أن تخمد، لتولد في النهاية بصوت وتوالٍ مماثلين، مؤكدة نقراً ليس له إيقاع دقيق، لكنه

Twitter: @alqareah

يتوافق مع ذلك اللحن، مصدراً الصوت نفسه دائماً. كان قرع صنج رنان، كأنه طقطقة مضخمة لنقر حروف آلة كاتبة على الورق الذي يغطي الأسطوانة المطاطية. أدار «هو» بصره بمفاجأة من سواد الظلمة الخارجية إلى وجه الربان. ولم يبدُ على هذا الأخير انه لمح شيئاً، وكذلك زوجته، والركاب الآخرون لم يطرأ على موقفهم أي تبدل. كان صوت المحرك الآن، وذلك القرع يعلوان في الليل بلحن قاس.

ـ كانت مغمومة كما لو أنها ستموت. هذا ما قالته لي بالضبط. وضعت يدها على يدي، وأبقتها مستريحة فوقها، وقالت إنها تحس بأنها مغمومة كما لو أنها ستموت. وكنت أنظرُ إليها بارتباك دون أن أقول شيئاً. كانت الأسماك تذرع عالمها الصغير، وكان تفكيري قد صار مثل تفكير تلك الأسماك. فقد نفذ إلى الحوض، وصار مكوناً أيضاً من حشد جسيمات صغيرة تائهة، قوس قزحية وحمراء. نهضت هي عندئذ، واقتربت من النافذة وظلت هناك طويلاً، ساكنة. لم أكن أدري ما الذي يمكنني أن أقوله لها. وهي أيضاً لم تتكلم أكثر، وغادرت بعد قليل.

بدا أن الربان قد أنهى حديثه الطويل، لكنه ما لبث أن تابع على الفور، بالصوت الخامد والمتقطع نفسه.

ـ تركتها تذهب. اقتربتُ من النافذة أيضاً، ورأيتها تخرج من البوابة الخارجية وتجتاز الساحة الصغيرة. فوجئتُ بإقفار الشارع وعزلته. كانت تمشي مسرعة، ورأسها منحن إلى الأمام، وبهيئة تصميم ظاهري يكذّبه وضع ذراعيها المشيتين بينما يداها مبسوطتان أفقياً، كأنها في حالة استسلام خائف. وفجأة، تلاشت: كان هناك في الجانب الآخر من الساحة شيء يشبه كومة صفراء هائلة، وقد تغلغلت نونيا فيه. عندئذ انتبهت إلى أن للساحة مظهراً غير مألوف، وأن النوافذ كلها قاتمة والمصابيح تُخمد توهجها ببطء، متحولة من ضوء أبيض متلألئ إلى ضوء آخر يخفت أكثر فأكثر محتضراً.

كان المركب قد خرج من الظلام المتصل وبدأ يدخل في ظلمة تقطعها خصل صغيرة بيضاء يضيئها المصباح للحظات قصيرة، تلمع كأنها بروق. وكان صوت النقر الحاد قد توقف، كما لو أنه ينتمي إلى أصوات الغابة غير المرئية التي خلّفوها وراءهم.

ـ إننا الآن في النهر ـ قال الربان ـ لقد صرنا قريبين جداً.

Twitter: @alqareah

والإبحار الذي كان هادئاً حتى ذلك الحين، صار أكثر اضطراباً. وخلال الاهتزاز، كانت بعض رشقات الماء تقطر على زجاج المقصورة الأمامي.

ـ لقد اختفت نونيا، وكانت واجهات آخر البيوت تختفي أيضاً وسط الضباب نفسه. ساورني الشك حينئذ في أن يكون ضباباً ذلك البريق الأصفر الغامض الموشى بنتوءات ناعمة، والذي يلتهم ببطء الأبنية والشوارع. وجعلتني قشعريرة ذعر أرتعش: بدا لي أنني أكتشف أن ذلك النهار يغلق المرحلة التي بدأت ذات غروب قبالة الرفوف المثقلة بالزجاجات في بار كاستريّو، في خضوع لمسببات وارتباطات لن أستطيع بلوغها أبداً. لكنني لم أفقد عزيمتي: جمعتُ بسرعة أشيائي، أوراقي، آلة الحلاقة، ورحت أركض أيضاً هابطاً الدرج، بحثاً عن السيارة. كان ذلك الغياب، ذلك الخواء الكثيف كالضباب آخذاً بالانتشار كرايات أفقية طويلة تمحو مداخل الأبنية والشرفات. أدرتُ محرك السيارة وهربت بأقصى سرعة في الشوارع المقفرة، حيث لا مارّة ولا سيارات. كانت البقعة الكبيرة الصفراء تهيمن بصورة خاصة على بعض المناطق. ولا يُلمح في مناطق أخرى سوى اللون اللبني الملتبس. كنتُ أبحث عن الشوارع التي مازالت تحتفظ بمنظورها وحجمها، بالضوء والظل، حتى وصلت إلى النهر، في ما وراء الجسر الكبير. أوقفت السيارة ونظرت إلى الوراء: كانت المدينة كلها آخذة بالذوبان، وتشابه الضباب الناعم والغيم الكثيف، وأخيراً اختفت مدريد. وفي ما حولي، راحت حدود الجسر تتداخل أيضاً مع محيطها، فصعدت مرة أخرى إلى السيارة وهربت يائساً.

كان الربان يتكلم بهدوء كبير، كأنه يروي حدثاً ليس له أية أهمية.

ـ قدت السيارة دون توقف حتى الحدود. نمت في نُزل هناك. وقد نمت لوقت طويل متواصل، لأن صاحب النزل أيقظني، بعد صباحين، وقد أخافه سكوني الطويل. رحلتُ بعد ذلك إلى لشبونة، تسكعت في الشوارع، وأخيراً بعت السيارة وأبحرت. كنت أعرف أن أخاً آخر لأبي، هاجر وهو فتى، يعيش هنا. استقبلني بسعادة. كان ابناه قد كبرا ورحلا، أحدهما إلى الولايات المتحدة والآخر إلى باناما. ساعدته في تجارة المشروبات. ثم بنينا هذا المركب. مات عمي في العام الماضي بنوبة قلبية. وأنا مازلت هنا، لا أحن إلا إلى تلك الفصول المتبدلة، والثلج. وما عدا ذلك، لي خطيبة سمراء جميلة، ولدي سيارة جيدة، وأستطيع الغطس كلما رغبت. ألا تحبان الغطس؟

Twitter: @alqareah

كان الضوء الخفيف آخذاً بالتعاظم فوق الماء. وأخيراً راح القارب يقترب من الضفة إلى أن توقف في مخاضة موحلة لا تربطها بالياسة إلا ألواح خشب متعفنة. وكان مصباح مرتفع جداً يضيء ذلك المكان، ويحوم الفراش حوله. كان الربان ينظر إليهما بالتناوب. أطفأ محرك المركب ونهض واقفاً.

ـ أنا أعرف أنها مازالت تظهر في الصحف. ولكنها يجب أن تكون مدينةً أخرى. لقد اختفت تلك. أنا رأيت شيئاً يلتهمها. شيء مخاطي، دخان. خواء أصفر.

وأخيراً، توقف عن الابتسام، تنهد وانحنى خارج المقصورة ليلتقط عصا دفع المركب. ووصلت كلماته الأخيرة إليهما ملتبسة جداً:

ـ هربتُ. انتقلت من جانب إلى آخر. حتى انتهيتُ هنا. لا أريد أن أعرف منذ كم من السنوات.

بعد ذلك، بدا كما لو أنه نسيهما تماماً بينما هو يوجه التعليمات إلى صبي ملون في المرسى من أجل ربط المركب.

جمع الصيادون أدواتهم وهم يضحكون ويتبادلون التعليقات حول مصادفات اللعب. وساعد «هو» زوجه على القفز من المركب، لكنه كان يتجنب النظر إلى وجهها: فخلال قصة اللقاءات والفراقات الطويلة التي رواها الربان، بدا له أنه تعرف بصورة مخيفة على إشارات أسرية فيها. حمل الحقائب الصغيرة واتبع طريق الفندق الذي يتعرج في ظل الحديقة الليلي.

كانت غرف النوم موزعة في حجرات صغيرة منفصلة، سقوفها من التوتياء، وتحيط بممر مركزي واسع. نظفوا أنفسهم بسرعة قبل التوجه إلى الكوخ الكبير المسقوف بسعف النخيل، ذي الأرضية المغطاة بألواح خشبية عريضة نعمتها ولمعتها ليالي رقص متتالية لا حصر لها، وكان يستخدم أيضاً كبار وقاعة طعام. كان الضوء شحيحاً، وكانوا الوحيدين في تلك الحجرة الكبيرة، وقد جلسوا جميعهم معاً إلى المنضدة نفسها، لكنهم حافظوا على الوضع الذي كانوا عليه خلال الرحلة: الصيادون الأمريكيون في أحد طرفي المائدة، كل اثنين منهم متقابلان؛ والزوجان معاً في الجانب الآخر، وقبالتهما جلس الربان الذي التزم الصمت، ساهماً، بينما هو يتناول العشاء.

كان عشاء وافراً، غنياً بالخضار والصلصات. وبالرغم من شدة الحر، كان الجميع يأكلون بشهية، تقوم على خدمتهم فتاتان زنجيتان ممتلئتان.

Twitter: @alqareah

ويبدو أن عزلة القاعة المباشرة، والظلمة المنتشرة في ما وراء أعمدة الخشب الكبيرة، والإضاءة الشحيحة التي تضفي بريقاً غريباً على الأشياء التذكارية والأجهزة المتدلية من دعائم السقف، تدفع كلها إلى الصمت. وهكذا كان للمحادثات التي تبدأ بين الآكلين نبرة مكبوحة وهامسة وقصيرة.

بعد العشاء، نبههم مدير الفندق، وهو زنجي طويل القامة له شارب يخالطه الشيب، إلى أن إنتاج الضوء الكهربائي قارب على الانتهاء، فتوزعت الجماعة على حجرات النوم. واستقرا هما في كوخ صغير فيه دوش بدائي ومرحاض ضيق ورفوف طويلة تستند إلى الجدران حيث تتراكم فرش مغبرة. كان هناك سريران ضيقان ومجعدان جداً، وكانت النوافذ مغطاة بشباك معدنية ناعمة. وتفوح في المكان رائحة دهان حديث.

ـ أنا تعبة حقاً الآن ـ قالت باسمة.

كانت تفرك جسمها بعناية بمرهم لإبعاد الحشرات. وارتدت بعد ذلك قميص نوم رقيقاً.

ـ تصبح على خير ـ قالت وهي تداعب بيدها رأسه بخفة.

كانت تنظر إليه باسمة، وهي لا تزال منتصبة قليلاً في سريرها، كأنها تنتظر إشارة منه. لكنه أطفأ النور وبقي في فراشه. كان يسمع ضوضاء الليل. وبعد قليل، بدأت المرأة في السرير الآخر التنفس بإيقاع نوم بطئ وعميق. ظل هو مستيقظاً لبعض الوقت، بنظرة ساهية إلى البريق الخفيف الذي يتسلل من النوافذ المضادة للبعوض. وفجأة خيم ظلام مطبق، وخمد شخير المولد الكهربائي القريب، وهيمنت وشوشات البحر والنهر الناعمة.

Twitter: @alqareah

VIII. الإله الضب

في توالي الحلم الضبابي نفسه، كان مرة أخرى المكتشف الضائع والمنهوك في قصة الخالة مارثيلنا القديمة، وكان في الوقت نفسه الطفل الرشيق والخفيف الذي خرج من البيت ذات مساء. كان المكتشف قد جاب فراسخ طويلة من الصحارى والمستنقعات والغابات. كان متعبا جداً، يمشي ذاهلاً على ضفة نهر مياهه بطيئة وضاربة إلى الخضرة. وكان الطفل ينزل عبر الدرب راكضاً، مقترباً من ضفة أخرى مظلمة.

كان كلاهما معاً، وكان يميز بوضوح أحاسيس جسديه المختلفين، في سياق أعمال كل منهما، لكنه بعد ثوان قليلة فقط سيتحول إلى كائن وحيد. ففكرة الركض، وجهده لكبح السرعة التي يضطره إليها انحدار السفح، كأنه يطير تقريباً فوق خطوات الجسد الطفولي الواسعة العاصفة، ليتبدد أخيراً في جوهر الجسد الآخر الثقيل والبطيء.

كان قد توغل مرة أخرى في أراضي الحلم. وجد نفسه تحت الشمس الساطعة، وفي الوقت نفسه في عتمة قبو. أمامه ينزلق درب طويل يتلاشى بريقه أخيرا بين ظلال ضفة، وكان في الوقت نفسه في مكان مظلم، رطب، على مقربة من كتلة مطموسة الملامح. لكن الصورة الثانية كانت طاغية، وعندما اقترب أكثر، بدا كما لو أن الاقتراب قد أذاب النور المشع والظلمة الكثيفة على السواء، ورأى أن تلك الكتلة هي منحوتة ضخمة من حجر رمادي.

ظن في البدء أنه استنساخ لهيئة بشرية، حتته وبترت أطرافه صروف الزمان غير المحددة. ربما كان طوله عشرة أشبار. ولم يكن كاملاً، إذ كان ينقصه نصف ساقيه، بدءاً من نقطة تعلو قليلاً المكان الذي يجب أن تكون فيه الركبتان. ومع ذلك، كان وضعه عمودياً بصرامة، يُذكر بوضع طقوسي. إحدى الذراعين تمتد على طول الجانب الأيمن، ملتصقة بالجسد. والذراع الأخرى مطوية على الصدر، واليد فوق الجانب الأيمن من الجذع. وكان الذراعان نحتاً غائراً تقريباً، وكتلة اليدين تذوب في سطح المنحوتة، كما لو أن النحات، باكتفائه بتحديدها فقط، أراد إعطاء انطباع بجسمانية مبهمة.

Twitter: @alqareah

ذلك الغياب للتحديد، للتضاد، يظهر أيضاً في ملامح الوجه، حيث تكاد لا تبرز الأقواس السطحية، وفتحة الفم، وتحدب الأذنين والوجنتين، والأثر الوحيدة الظاهر هو البروز الحاد للأنف الطويل والضيق. كان الرأس يستدق وينمو في جزئه العلوي. وبين الفخذين، بدلاً من العضو الجنسي، يبرز نتوء آخر مدبب، أشد قتامة من بقية الحجر، يُذَكِّر بالشكل الحاد لشفرة بلطة.

ركز انتباهه، كمن يتابع بنود تعليمات محددة، حتى أدرك أن المظهر البشري قد شُوِّه في عدة تفاصيل مهمة: فتلك الاستطالة العليا في الرأس لها شكل قرن، وتظهر وراءها عدة نتوءات أخرى، يأخذ حجمها بالتضاؤل حتى تختفي تماماً في موقع القذال، وعلى جانبي ذلك الشكل الشبيه بالزعنفة، وفي اتجاه متعامد معها، تقدم الجمجمة مجموعة شقوق طويلة تتكرر، وإن يكن في اتجاه معاكس، عند مستوى القذال. ويبدو النحت بلا عنق تقريباً. وهناك فرضات ناعمة على الظهر والردفين توحي بشرط خاص بطبيعة النموذج المنحوت نفسه، وليس زينة أو وشم. وعلى الخد الأيمن، قرب الأنف، وفي الجهة نفسها من الجذع، يوجد شقان عريضان، دائريان تماماً، بعمق سنتيمتر واحد تقريباً.

من تلك الهيئة العمياء، مطموسة الملامح، ينبعث إحساس قوي ومألوف، يلتقي فيه الإنساني والحيواني دون انسجام، ولكن بمعقولية خفية، ليكونا شيئاً يتضمن النوعين كليهما ويتجاوزهما. فالذراعان كانا في الوقت نفسه قائمتي حيوان زاحف نحيلتين. أما الصدر فكان بشرياً مع ذلك. وفي الوجه تتداخل ملامح النوعين كليهما. وبينما هو مستغرق في التفسير المتناقض لتلك الهيئة، ظل هو نفسه جامداً بلا حراك أيضاً، يتأمل مرة بعد أخرى سمات شكل المنحوتة وخدوشها وشقوقها، واجداً في ذلك الشيء جاذبية خفية، وتوافقاً مبهماً مع حميمية نائية جداً.

لم يشعر بالمفاجأة. كان مستغرقاً في الحلم بوعي كامل له وبإحساس ممتع بالراحة. وكما لو أن تلك الراحة قادرة بدورها على استثارة حلم آخر، كانت تشتعل في ذهنه الصورة الأخرى على نحو متزامن: لقد كان طفلاً ينزل راكضاً. هناك فوق، كان البيت، والنهر تحت. كان قد نزل كثيراً عندما لفت انتباهه بريق. أوقف اندفاع ركضه فوراً. هناك شيء عند قدميه، إلى جانب أجمة، يتلألأ تحت شمس الصباح.

كان يعلم ـ ليس لأنه حلم بذلك من قبل، بل عن معرفة سابقة مؤكدة ـ

Twitter: @alqareah

أن تلك هي اللقية التي بحث عنها طوال حياته. كان يعلم أن الرحلات انتهت نهايات سعيدة. لقد صعد خلال النهار الدرب الضيق الذي يساير نهراً ذا مياه بطيئة وضاربة إلى الخضرة. وكانت القردة تصرخ في أعلى الأشجار، وسط لغط الطيور غير المرئية المتواصل. وعند بدء الغروب، تحت شجرة هائلة الجذع، في مكان لا يُلمح فيه أي أثر بشري، وجد أول كرة حجرية مدركاً أن ذلك الشيء ينتمي إلى عالم بحثه، وهو عالم غير محدد ومؤكد في الوقت نفسه.

انحرف عن مسار تيار النهر واتبع درباً جانبياً، بينما راحت تظهر تباعاً كرات مختلفة الحجوم. كان الوادي يضيق وسط مجموعة تلال صغيرة تغطيها أشجار يتلوى الدرب بينها. وعلى سفح التل الأخير، الخالي من التراب والأشجار، تظهر مجموعة معمارية. إنه المعبد. كان هناك إفريز طويل ينهي الجزء البارز من سقف صغير فوق فتحة مدخل مستطيل مظلم. وتؤدي الفتحة إلى الداخل الظليل. دخل منها، ووجد الهيئة مطموسة الملامح، اقترب أكثر، هناك حيث تهيمن الظلال على المكان إلى حدّ الإظلام، وفجأة رأى التمثال تماماً، رأى الزعنفة ذات القرون المتتالية التي تصغر تدريجياً إلى أن تختفي في عقدة صغيرة عند القذال، وملامح الوجه المطموسة التي تبرز بحدة في نمنمة الأنف الهندسية مستقيمة الخطوط، ورأى الشكل الممحو للشفتين اللتين تبرزان كأنهما تغطيان بداية فكين حادّين، ورأى الذراع الملتصقة بجانب الجسد، والدقيقة في أجزائها كأنها قائمة حيوان زاحف، والعضو الجنسي الشبيه بنتوء مثلث ومدبّب.

ظل دون حراك، يتأمل التمثال. كانت تحيط به رائحة قوية، خليط من رائحة طين وعشب رطب وطحالب مختفية، أصابته بإعياء شديد. وشيئاً فشيئاً راح ينسى المكان والساعة إلى أن لم يعد يعي جسده نفسه، وظل ساكناً هناك قبالة الهيئة الحجرية.

كان إعياؤه خاتمة توتر طويل يضيع في أول ذكرياته وفي استعادة هذا السلام الذي استشعره في بعض المرات، وصار ماثلاً هنا بصورة مؤكدة وفسيحة. ظل قبالة هدف بحثه، بعد نجاته في رحلات لا حصر لها، واقفاً في ذلك المكان المظلم الذي ينبض، كما لو أن الجدران تنقل خفقات قلب كائن حي ضخم، إلى أن أدرك من جديد أنها نبضات قلبه بالذات، وأنه هو ذلك الكائن الحي الضخم الذي يجعل أحشاء المعبد والجدران المدفونة والسقوف غير المرئية تخفق مع صدى نبضه. توقف أخيراً عن إدراك الأحاسيس الطبيعية

Twitter: @alqareah

التي تنقلها إليه عيناه وأنفه وسمعه. أحس أنه على وشك أن يصاب بتضاؤل وتضخم في الوقت نفسه. وأدرك أن مجرد إشارة من إرادته ستكفي لإدخاله إلى الأبد في عالم لا ذاكرة له. أسلم نفسه لذلك الدوار. وتشبع متلذذاً بكل ذلك الملجأ. وتغلبت رائحة التراب أخيراً على انبعاث الروائح الأخرى، فكان يستنشقها كما لو أنها غذاء.

وبالطريقة نفسها، بلغ ركضه القصير وهو طفل نهايته: كان قد خرج من البيت وراح يركض كأنه سيتأخر في الوصول إلى مكان ما. كان المنحدر وعراً جداً، وكانت خطواته الواسعة تكتسب، بحكم قانون العطالة، سرعة كبيرة. وفجأة رأى شيئاً لامعاً تحت شجيرة، فجمع قواه كلها ليكبح ساقيه ويوقف جريه.

كان ما رآه عظاءة إيغوانا بديعة جداً. كانت ساكنة، تنظر بثبات إلى شيء فوقها، في أطراف أغصان الأجمة القطنية. وكانت تظهر بدقة تامة فتحتا تجويفها الأنفي، وصفائح رأسها، والحافتان الطويلتان لشق فمها الناعم، وبقع ظهرها، وأشواك زعنفتها المائلة، والعينان اللامعتان الثابتتان. كانت شمس الصباح تحيط بهما من كل الجهات ببريق دون ظلال، بريق يتغلغل في كل الأركان. انحنى على الإيغوانا مادا يده. لا شك في أن موسيقى ما قد توقفت قبل ثوان وما زالت تتردد آخر أصدائها. وستأخذ الأصداء بالاختلاط في همس الريف، وطقطقة النباتات الصغيرة، وطنين الحشرات، وخفق الأجنحة، وأصداء أصوات البهائم والبشر البعيدة، وسينهض هو أخيراً من انحنائه، وسيبتعد عن الإيغوانا ويواصل ركضه نزولاً، حتى يصل الضفة ويسلك الدرب الظليل.

ومع ذلك، ساوره الشك مرة أخرى، بسعادة لا يخالطها خوف، في أنه لن يحدث شيء من ذلك، وأنه لن ينهض، ولن يواصل ركضه. شكٌ تحول إلى يقين: لن يواصل ركضه لأنه ليس ذاهباً إلى أي مكان، ولأنه ليس آتياً من أي مكان. فهو لم يخرج من البيت قط، ولم يبدأ الركض نزولاً على المنحدر. عرف ذلك، وعرف في الوقت نفسه أشياء أخرى كثيرة. عرف أنه لن يصير رجلاً أبداً، وأنه لم يكن طفلاً قطّ. وأنه لم يعش قط في تلك القرية، ولم يجتز الصحارى والغابات بحثاً عن الذهب والمجد في ترحال طويل ومرهق. والشيء المؤكد الوحيد هو الإيغوانا الثابتة، وهو ثابت أيضاً، يتأملها تحت

Twitter: @alqareah

ضوء الصباح المبهر. التمثال الحجري الكبير داخل المعبد، و«هو» يتأمله مذهولاً. تلك هي الحقيقة الوحيدة في العالم. وبالفعل، لم يكن ثمة وجود لشيء سواه وسوى الهيئات التي يتأملها. ولم يكن هو طفلاً ولا رجلاً، مثلما لم تكن الإيغوانا حيواناً ولا نحتاً. ولم يكن المكان المحيط فضاء الصباح المضيء، أو أحضان بناء معتم.

توالي تلك الرؤى والتحقق منها مرة أخرى، أبقته في ترقب بهيج. فهو يعلم الآن أنه يشارك أيضاً في مادة الحيوان الحي والحيوان الحجري. وشيئاً فشيئاً راح يمتلك فهماً أشد دقة: لقد كان في أول الأمر طفلاً يراقب إيغوانا، ورجلاً يتأمل تمثالاً مطموس الملامح، تمثال حيوان زاحف وإنسان. وبعد ذلك كان إيغوانا حية، ساكنة تحت شجيرة، تراقب فوقها طفلاً ينظر إليها، صورة حجرية لإله قديم يشعر أمامها بحضور رجل مندهش.

وأخيراً، صار يشعر أن أعضاء جديدة تندفع من داخله إلى الخارج، تريد النمو، وإلى الداخل بنهم جذور. وتبرز من رأسه، مسببة ألماً خفيفاً، زوائدَ عريضة ومدببة النهايات. وتحول جلده فجأة إلى متوالية من الحراشف الباردة الملونة، كان يشعر بقساوته كأنها حماية. تولدت غشاوة في عينيه جعلت رؤيته، فجأة، ضعيفة وغائمة. لكنّ أي حركة صارت مستحيلة عليه أيضاً: كانت مفاصله تثبته بسلسلة معدنية الصلابة. ولم يكن هناك أي نَفَس يملأ صدره المتين. ولم يكن الدم، وإنما ذبذبات الكوكب منقولة من البراكين عبر سلاسل الجبال، هي ما يصل إلى أعضاء ذلك الجسد.

كان لبعض الوقت الطفل والرجل في وقت واحد، وبعد هنيهة كان الحيوان الحي والحيوان الحجري؛ ولكنه سرعان ما صار يشكل واقعاً وحيداً، دقيقاً، ينخرط فيه الحيوانان الزاحفان والشخصان. وكان المحيط المكشوف والمشمس، هو بالطريقة نفسها المحيط المغلق والمظلم، يلتحم بمتانة مع جوهره. صارت المعرفة مطلقة: وراءه لم تكن ثمة سابقة، وليس أمامه ثمة مستقبل. إنه الموجود الوحيد في الواقع وسيبقى هكذا، أبدياً، بلا بداية ولا نهاية. أدرك ذلك مرة أخرى، وتنهد. سيظل عالِماً، مطلقاً، جامداً إلى أبد الآبدين.

❖ ❖ ❖

فجأة، وعلى الرغم من ذلك الإحساس باللانهائية، أيقن أنه قد استيقظ.

Twitter: @alqareah

كان قد تعشى لحماً نحيلاً، كثير الألياف، له مذاق أرنب بري. لكنه لم يكن أرنباً: فشريحة اللحم الكبيرة تحتفظ بجلد سميك ملتصق بطبقة الدهن. لا شك أن هضم ذلك الطعام الصلب هو سبب هذا الكابوس. عندئذ تذكر بكل دقة مقطعاً دونه إخباري من مكتشفي بلاد الهند، عن حيوان مختلف جداً في الشكل والعادات عن أرنب إسبانيا، وله مع ذلك المذاق نفسه. خمن مفاجأة الرجال الذين كانوا يصطادون، في غابات لم يتخيلوا وجودها من قبل، حيواناً لم يروه من قبل قط، وعندما التهموه، واجههم المذاق المألوف، مع استحضار فوري للزعتر في الجبال الضاربة إلى الحمرة، وربما رنين أجراس عذب. بعد ذلك، أحاله تذكر مدون الأخبار إلى كتب أخرى وإلى ملاحظات يحتفظ بها بين بطاقات وملاحظات عن التقليد الأدبي الواقعي، تقبع في تلك اللحظات بالذات داخل المحفظة السوداء، فوق سطح الخزانة ذات الأدراج.

صعوبة هضم ذلك اللحم وصلصته الكثيفة القاتمة، حمل خياله إلى دروب وعرة وغريبة، وكانت أساساً للقدرة على التعقيد التي تتعاظم في الأحلام متجاوزة قدرات الحالم نفسه. هذه الأفكار التي تفكر من تلقاء ذاتها، تعود عند حد الفجر. ومع ذلك، بين كل تلك التقلبات والوجوه، يمكن العثور على بعض الإشارات المحددة: فللفرنسية ابتسامة سوس الغامضة، مثلما يظهر دون أغابيتو فجأة بمظهر خادم فيلياس فوغ كما تمثله رسوم في الكتاب الذي ناله جائزة في فوز مدرسي ذات يوم، ويمكن للربان أن يكون أحد بستانيي حرم جامعته الأمريكية. كانت الوجوه تلمع لحظة وتتطفئ، كشرر نار اصطناعية. ونونيا تلك، ألا تختصر في ملامح وجهها الشاحب وجوه فتيات أزمنة صباه جميعهن وهن يتمشين من جانب إلى آخر في شارع أوردونيو سيفوندو؟

ما عاد قادراً على تذكر ملامح سوس. حاول تخيلها مرة أخرى مثلما كانت حين عرفها، عندما بدا له أن الغراميات أيضاً ما هي إلا وهم شبابي، مثل غيرها من حماسات الشباب، وأن الكتب وحدها تظل العالم الوحيد الذي يمكن لكل العواطف والثورات واليوتوبيات أن تكون ممكنة فيه. ومع ذلك، كان قد نشأ بين سوس وبينه انجذاب آني يُذكّر بغراميات المراهقة. لم تكن لديها آنذاك التزامات أو قيود، وقد رافقها عند عودته من إجازته القصيرة في إسبانية. عثر بسهولة على عمل في الجامعة وتشاطرا الحياة عدة سنوات، لكن العذوبة الأولى راحت تحضن منافسة متبادلة مذ حاول كل منهما التفوق على

Twitter: @alqareah

الآخر في الصلابة والنضج، كما لو أن الآخر قاصر يحتاج إلى وصاية ورعاية مستمرتين.

الأزمة الأخيرة بينهما كان سببها مضحكاً. فقد أُهدي إليها هرّ بورمي، له عينان كبيرتان ضاربتان إلى البرتقالي. وبدا له أن تعلقها بالحيوان يصبح مَرَضيّاً أكثر فأكثر، ولا يتفق مع العقل الراشد. وفي أثناء غيابها ذات يوم، وضع الهرّ في كيس، وجاب المدينة حتى أبعد نقطة عن مسكنها، وتركه هناك. لم يعترف بأنه المتسبب في اختفاء القط إلا بعد أسبوع من ذلك، عندما أوصله استمرارها بالأسى على افتقاد الهر إلى ذروة الغضب. أجبرته عندئذ على العودة إلى المكان الذي ترك فيه القط. وقد تمكن من الوصول إليه بصعوبة، أما القط فلم يكن موجوداً. في الجانب الآخر من البحيرة، كان الضوء المعدني يزيد في حمرة الغروب. لم تغفر له ما فعله. وفي أحد الأيام، أقفلت باب البيت في وجهه. وفي يوم آخر بدأت استجواباً له بصفعة. وتحولا من العذوبة الأولية إلى شراسة متوترة وثابتة مثل عاطفة الحب نفسها. المشادة الأخيرة بينهما جرت في مساء يوم ماطر. عندئذ جهز حقيبته، ووضع كتبه في عدة علب كرتونية وهجر صحبتها إلى الأبد. وفي النهاية، عاد إلى حياته الناضجة، بعد أن تبين له أن الانسجام مستحيل، وأن دوامة تيارات المصادفة وحدها هي التي تحدد وجهة الأفراد وتاريخ الجميع.

كان وجه سوس الغامض: تكشيرة ميديوزا أخرى. ومع ذلك، لم يكن يعاني حموضة، ولا أي إزعاج آخر سوى جفاف الفم. فقرر النهوض ليشرب ماء. فكر أيضاً في أن الوقت لا بد أن يكون غير متأخر جداً، وأنه مازال هناك نصف الليلة حتى الصباح. وتذكر باستمتاع أن تلك هي الأيام الأخيرة في مهمته، وأنه على أبواب الإجازة المشتهاة.

كان قد صار متعقلاً بما يكفي لأن يكون عصياً على التأثر بكل أشكال القلق. فقد فكر في أحد الأوقات في أن العالم قابل للقولبة، وكانت كل جراحه تأتي من ممارسته ذلك التفكير. أما الآن فيفكر في أن الأمر هو العكس تماماً، وأن الضغوط المتتالية، بعد أن تسحق أدق مفاصل الإرادة وأصغر غضاريفها، تنتهي بأولئك الذين لا يأملون شيئاً سوى القراءة والحلم إلى فقدان الإرادة الميمون والبهيج.

وهل كانت قصة الحاجين سوى نقل خالص لواحدة من هذه القراءات

Twitter: @alqareah

الهادئة؟ لكنه عجز فجأة عن تذكرها، أو تذكّر أن الأمر غير مرتبط بمعجزة، وإنما هو تلخيص خرافة قديمة لا وجود فيها للعذراء، وإنما لأم كبيرة، وليس فيها حاجّان كذلك، وإنما النهار والليل، أو الشمس والقمر اللذان يضمن تعاقبُهما المستقبلَ واستمراره، وسيكون اختلاطهما علامة الكارثة النهائية العظمى. ومع ذلك، كانت ترد إلى ذهنه، بالدقة نفسها التي تُروى بها الخرافة، أسطورة من العصور الوسطى. ربما هي مدونة في ملاحظاته. فتلك المعجزات لا تغادر حدود العرف الواقعي: فيها تشكل الآخرة والقوى السماوية جزءاً من الواقع بصورة عضوية، وينطلق أداؤها حتى مجال أسمى، عجيب لكنه من طبيعة الواقع نفسه.

لكنه تخيل بطاقات ودفاتر ملاحظاته صفحة صفحة، وعرف أن القصة غير موجودة فيها، لأنها ليست قصة واقعية، وإنما هي قصة لا ينحصر الزمن فيها بالتقاويم والساعات. لأن استخدام الزمن، بالرغم من كل التحولات، هو الذي يفصل حقاً بين الطرحين. وبالدقة نفسها التي تذكر بها فقرة الكتاب الإخباري حول الأرنب الغريب، وردت إلى ذهنه المعجزة القديمة كما لو أنه يقرأ الإعلانات في واحدة من الرسوم الزخرفية الساذجة: كيف عاش في الخطيئة حاجان ورعان يوقران سيدتنا العذراء، وكيف عرفت هي أنهما سيموتان ذات ليلة محكومين باللعنة الأبدية، وكيف توسلت إلى ابنها ألا يُنزل بهما ذلك العقاب، وكيف عاقبهما هو عندئذ بالتشرد منفصلين، وبأن يهيما على وجهيهما عبر العالم إلى الأبد، وحكم بأن أي لقاء جديد بينهما سيؤدي إلى نهاية الأزمنة والبشرية الخاطئة. كيف طلبت هي من الحواري سنتياغو، من أجل تجنب الكارثة، أن يخصص ملاكاً يسهر لقرون القرون كيلا يحدث ذلك اللقاء المشؤوم.

وفكر بعد ذلك في أن هناك روايات أخرى عن أنه في كل لقاء جديد، حين لا يكون تدخّل الملاك فعالاً، يُحكم على الملاك نفسه بالعقاب ثم يُصفح عنه أخيراً، في تكرار لا حصر له من العقاب والغفران. ولكن كل محاولاته لتحديد المصدر لم تكن مجدية، وبالطريقة نفسها كانت معالم الحلم تأخذ بالتلاشي. بدءاً من ذلك البيت الذي فيه خادمة زنجية، ومن مزرعة البنّ حيث يوجد خادم عجوز وكلب ضامر (ألم تكن للخادم عينا هرّ سوس؟)، وبدءاً من تلك الرحلة عبر غابة نحو أحشاء معبد، ربما كانت أيضاً رحلة عبر قناة مع

Twitter: @alqareah

امرأة تختلط ملامحها الآن تماماً بملامح موظفة الاستقبال اللطيفة في الفندق التي تأخذ كل صباح مفتاحه بتحية باسمة، حتى قصص الربان المشوشة. وكل ذلك يتلاشى بسرعة عند الاستيقاظ.

أسماء، وجوه، أحداث، تتبعثر كلها فجأة كما لو أن قوة انفجار ترمي بها. وتحطم المنطق الذي كان يبقيها متحدة في ديكور الأحلام الرملي والعابر، ويعود ذلك كله إلى سكينة كثيب بالغ الطول دون شكل. وفكر: هكذا هي الأحلام. وفي موضوع النائم اليقظان القديم، فإن الظن بحد ذاته بأن المعيش هو ما حُلم به، يخلّف ذاك دون أي ضرر ودون قوام. وهذا موضوع واقعي مع ذلك، استُخدم بكثرة لأهداف أخلاقية وللدفاع عن العقيدة المسيحية. ألم يكن هو نفسه نائماً يقظان على امتداد حلمه؟ إذ يمكن لكثرة الأدب أن تُحدث آثاراً مشابهة جداً لآثار هضم ثقيل لصيد مداري. وحيث أن الأدب هو تدوين آخر للأخبار، أخبار الرغبة، والضفاف المظلمة، فليس بالإمكان الاستغراب من أن كابوسه كان قد نُسج من أمور كثيرة غير معقولة، وأن قصصاً منسية في أبعد رفوف ذاكرته قد وجدت مكانها هناك أيضاً.

نائم مستيقظ. تلك الفنتازيا الغائمة عن مؤلف مختَلَق لها صلة ببعض ملاحظاته الموجزة ـ فالاختلاق هو، بطريقة ما، تمرد فنتازي غامض ومقتضب في مواجهة الإرادة الواقعية ـ ولها كذلك علاقة ملتبسة بهذا الطبع، أو ربما بموضوع الحالم الحلم. ومرت سريعاً في سراديب ذاكرته مجموعة من الإحالات المتوالية: تخيل أبا الحسن وهو يفتح عينيه في ذلك الفراش الفاخر، بغطائه الذي من الذهب، ويتأمل زينات الحجرة الغنية، وذلك الحشد من الجاريات باهرات الجمال والعبيد الوسيمين المحيطين به، وخلفهم الوزراء والأمراء، الحجّاب والموسيقيون المتأهبون للبدء بمداعبة الأوتار بانسجام. تخيله يتأمل الثياب التي سيرتديها: عباءة وعمامة أمير المؤمنين. تخيله مثلما وصفه الراوي: يغمض عينيه ليعود إلى النوم، مقتنعاً أنه تحت تأثير حلم، بينما الوزير الأكبر يحييه على أنه الخليفة، بثلاث انحناءات احترام، ويُخبره بأعظم تبجيل أن موعد صلاة الفجر قد أزف.

انتظمت ذكرى ذلك النص بتلك المقدمة التي يستيقظ فيها صانع مراجل، بعد أن سَكِر من شرب البيرة، ليجد نفسه في فراش لورد، مرتدياً ثوب نومه

Twitter: @alqareah

الفاخر، وتتملقه جوقة خدومة ومتوددة مثلما يُعامل به لورد. وانتظمت كذلك مع ذكرى تلك الحكاية المقتضبة ـ السابقة مباشرة على دراما سيخيسموندو ـ حيث سكّير آخر، يعمل حداداً، يُنقل وهو غائب عن الوعي، بإيعاز من الدوق فيليبو، إلى قصر هذا الأخير، ويُعامل حين يستيقظ كدوق، يرى من بعض النوافذ بيته البائس، ودون أن يدري ما الذي حدث، يتساءل كيف أمكن له الوصول إلى تلك العظمة، وأليس ذلك الصبي الذي يلعب بالخدروف هو ابنه بارتولييّو، وتلك المرأة التي تغزل عند الباب أليست زوجته توريبيا.

التذكّر الدقيق لتلك القراءات، بعد تعظيم شأن واقع مكتبته الحميمة، يثبت التأكيد أن آخر ملامح حلمه الأخيرة قد تبددت. وفكر أخيراً في أن المتحف السعيد نفسه ربما لم يكن سوى إحالة أخرى من الحلم، توصل ـ بقدرته على تمويه متعددة الأشكال ـ أن يموه تحت أشكال أخرى حدود البيت الأبوي، حتى الصور التي تكاد لا تُلمح في الواقع وتبدو أقرب إلى إيقونات متعددة الألوان، أو غابة مترعة بكل أنواع النباتات.

ولكنه حين مد يده ليشعل النور، تبين له أن ذلك الليل لم يكن ليل الفندق الذي تكاد لا تعكر هدوءه سوى أصوات ميكانيكية أو حركة السيارات في الشارع. إنه ليل يعج بطقطقة سرية، وخفق أجنحة، وركض سريع بين الأعشاب، وأزيز طويل وناعم. وإلى جانبه كان سواد العتمة يهتز أيضاً برفيف أجنحة صغيرة، وأدرك بحزن أنه في وسط الغابة، تائه في رحلة بلا نهاية. وفكر أيضاً أنه في حلم، حلم متاهة المرايا الضبابية، لكنه يتدثر بالملاءة بقوة، كما لو أن القماش والعرق درع مضاد للسواد الحالك الذي تذرعه الصراصير الكبيرة المرقطة، والعناكب ذات الجذوع المتطاولة وقمل النبات البطيء.

كان يسمع ذلك التنفس المنتظم، وكان يخرج في الوقت نفسه من ذهوله. والآن، على الرغم من المكان الذي يبدو أنه فيه، وبعد أن انتُزعت ذاكرته من الشراك التي تثبتها، صار يعرف أن المرأة والرحلة والقصص التي رواها الربان لم تكن إلا تهيؤات غامضة تسبب بها هضمُ حيوانٍ وبري، سُرّته في منتصف عموده الفقري، وفي قائمتيه الخلفيتين لا يوجد ظلفان، وإنما ظلف واحد في كل قائمة. لأن هويته ليست هوية ذلك الرجل الذي في إجازة، يجوب مع امرأته القنوات في مركب يدفعه ببطء محركُ ديزل قديم، ويقوده ربان مخمور. وعلى

Twitter: @alqareah

الرغم من وعيه الليل، وعلى الرغم من صخب البحر الذي يضطرب بعيداً بوضوح ما هو حقيقي، ووضوح هسيس أصوات الاحتكاك الخفيفة الدقيقة حول سريره، وعلى الرغم من التنفس الآخر، فقد اعتقد اعتقاداً راسخاً أنه سيستيقظ أخيراً في سرير آخر، مستعداً للإسراع إلى عمله في قاعات الدروس، إلى أن تنتهي مدة عقده ويعود إلى بلد مولده أول مرة بعد شهور طويلة.

❖ ❖ ❖

لكنه لم يستيقظ. كانت المرأة قد بدأت تتنفس باضطراب، وكانت تهتز في فراشها كما لو أن توعكاً قاهراً يهزها. وأخيراً أطلقت زفرة كبيرة وكلمته.

ـ هل أنت مستيقظ؟

لم يجبها. كانت هي تتكلم بصوت منخفض، لكنه جزع.

ـ ألست مستيقظاً؟

ـ بلى ـ قال.

ـ أشعل النور.

ـ لا يوجد نور ـ قال ـ ماذا أصابك.

ـ رأيتُ كابوساً. حلم البارحة نفسه.

بريق خفيف جداً راح يتخثر في شبك النوافذ. وبدا أن نسيماً خفيفاً جداً، وساخناً، ينبئ بحلول الفجر. وفي البعيد سُمع زعيق القردة المدوي.

ـ كنا في البيت نائمين. واستيقظتُ لأنه بدا لي أني أسمع بكاء طفل ـ قالت ـ لكنه كان هرّاً في الشارع. كنتَ تنام إلى جانبي. وكنتُ أرى كتلة جسدك فقط، لكنك لم تكن تتحرك. حاولت سماعك تتنفس، ولم أسمع ذلك إلا بعد هنيهة، لكن ليس بالطريقة المألوفة: كانت تتوالى في تنفسك، بتسارع، أصوات صفير غريب. وعندئذ انتبهت إلى أن في جسمي إحساساً يختلف عن إحساسي في الليالي كلها. وتبين لي أنه لم تكن تصلني أية حرارة من الجانب الذي فيه جسدك على السرير. كانت كتلة جسدك هناك، راقدة، وكنتَ تتنفس، وإن يكن بطريقة غريبة جداً. ومع ذلك، بدا كما لو كان ذلك الجانب من السرير فارغاً. عندئذ بدأت أفكر أنكَ لست أنت، وأن أحداً أو شيئاً قد حل محلك. وداهمني خوف رهيب. كان قلبي يخفق بقوة. وقد

Twitter: @alqareah

منعني الخوف من الحركة: لم أستطع النهوض، ولا إشعال الضوء. وأخيراً، مددت ذراعي بحذر لأتلمسك. لمست قماشاً وشيئاً بارداً تحته. أبعدت يدي بذعر. ظننت أن هناك شيئاً غريباً يقبع بيننا. مددت يدي أكثر حتى لمست أزرار بيجامتك. وتحتها كان جسمك بارداً أيضاً وخشناً، كأنه مكسو بحراشف. كان هناك تحت البيجامة جسم لا حرارة فيه، وله حراشف كحراشف ضب.

نهض بحذر، وجمع عن المنضدة ساعته ومنديله ومحفظته، متلمساً بقرف أجساماً صغيرة متهربة. وبحث بالتلمس عن الثياب والحذاء. لبسها وخرج بتكتم بينما هي تواصل رواية حلمها. وفي الخارج، كانت رطوبة حارة تضمخ كل شيء. وكان الضوء الخفيف يسمح بلمح جذوع أشجار جوز هند ممشوقة على بعد خطوات إلى الأمام، ومنضدة خشبية ومقعدين على مسطح عشب كثيف ومبلل.

وقبالة المنضدة كانت تقبع هيئة بشرية. كتلة جالسة على أحد المقعدين، والرأس يستند إلى الذراعين المعقودتين، وكان يتنفس بشخير خفيف. جلس هو قبالته. وأخيراً أضاء النور المتزايد زجاجةً فارغة، وبقايا أعقاب سجائر كثيرة مبعثرة على ألواح المنضدة، ورأس الربان المشعث.

إنه يعرف الآن بوضوح من يكون ذلك الشخص، واستغرق في مراقبة ما يحيط به بذهول. كانت دهشته هي دهشة الشخصيات الذين تتقلهم، في الحكايات الشرقية، قوى الجنّ في أحلامهم من مكان إلى آخر. لكن الموقف بدا غير معقول إلى حدّ أنه، بعد تجاوز حدود أي خوف، وجد نفسه مطمئناً، كما لو أنه بالفعل السائح الذي يخرج باكراً، على امتداد رحلة ترفيه، ليكتشف استيقاظ الغابة.

دوى صياح القرود قريباً جداً، كأنه صدر من ذرى الأشجار القريبة. وبينما صدى تلك الصرخة الحادة يتلاشى بين النباتات الكثيفة، استيقظ الربان وهو يهز رأسه. كان الضوء قد صار كافياً لتمييز ملامح الوجه، وشعر اللحية النامي، والعينين اللتين تبدوان داميتين وزائغتين. صوبت العينان نظرهما إليه، وبعد تردد قصير، انفتحتا بحركة مفاجأة هائلة. كان الرجل قد رفع جذعه، وانزلقت ذراعاه على سطح المنضدة فسحبتا معهما أعقاب السجائر ودفعتا الزجاجة التي تدحرجت على المنضدة حتى سقطت دون ضجة.

ـ أنت ـ صاح.

Twitter: @alqareah

نهض ببطء، كما لو أنه يحترس من مكيدة. وكان في نظرته تعرّف مشؤوم.

- غير ممكن - قال.

انحنى، ومال برأسه على المنضدة وغطاه بيديه المتشنجتين في حركة تمنعه من الرؤية والسمع، هي في الوقت نفسه إشارة إلى صمم وعمى رمزيّين، كأنها حركة يتطلبها طقس ما.

نهض «هو» وبدأ المشي. خلّف وراءه حجرات الفندق واجتاز البلدة الهاجعة، إلى جانب الأكواخ الخشبية المرفوعة على أعمدة، وهي تشبه بعضها بعضاً في كل شيء، ولها رواق طويل أمام المدخل تغطيه ألواح توتياء مسودّة تشكل السقف. وفي الجانب الآخر من النهر، حيث تنتهي القناة المقابلة، لتصب بصورة عمودية كذلك في تيار النهر العظيم، يظل الذراع الأخير من الماء مفصولاً عن البحر بحاجز ضيق تشمخ فيه أشجار جوز الهند. وفي الجهة المعاكسة للبحر، ينتصب جدار كبير من الخضرة المتشابكة، يغلق مسطحات المياه العذبة الطويلة.

واصل المشي على ضفة النهر، متوجهاً نحو البحر. كانت كرة الشمس الضاربة إلى الحمرة تطل من الأفق الأملس البعيد. وصل أخيراً إلى الشاطئ، وتأمل تلك الأمواج العنيفة المتسخة التي تتحطم بقوة على الرمال السوداء. كانت هناك أشجار جوز هند كثيرة مقطوعة الرؤوس، وتتبعثر على الأرض بعض الجذوع النخرة، وأكوام من ثمار جوز الهند اليابسة، تقبع شاحبة كأنها جماجم. وكانت جذور أقرب الأشجار من البحر مكشوفة بفعل حتّ الموج، وتبدو أشبه بأحشاء متلوية. ومن جهة القناة، كان الرمل ضارباً إلى السواد، طينياً ومغطى بأوراق يابسة ومجعدة كأيدي المومياءات. وفي الداخل، قريباً من المياه العذبة، كان هناك هيكل عظمي لتمساح مازالت مخالبه الحمراء المكسوة ببقية من جلد، تحتفظ بمظهر حي فريد.

ذلك المنظر يشكل ديكوراً دقيقاً لحلم. وفكر في المناظر المتتالية، بدءاً من بيت الأعمدة البيضاء الصغيرة حتى قنوات المياه الموحلة الطويلة والمحاطة بكثافة نباتية، وقدّر أن لها خاصية أشياء الأحلام تحديداً، وأنها واضحة بقدر ما هي غائمة. أغمض عينيه في مواجهة الشمس: قريباً جداً سيتحول هذا النور القوي المباشر إلى نور غير مباشر وضعيف. وسيفتح عينيه ويراه مستقراً بعذوبة

Twitter: @alqareah

في الفجوات وفي الأركان. وفي الجانب الآخر من النافذة، كانت أشجار الفلامبويان القاتمة تبرز على خلفية سماء رمادية كشراع سفينة ضخمة تطفو هناك في الأعالي، فوق العالم. وسيرتاب للحظة في أنه كان رجلاً صغيراً جداً، كواحد من دمى الجنود المصنوعة من رصاص، والمحفوظة في خزانة طفولته بين أشكال هندسية وألبومات صور قديمة، وأنه قد تورط في مصادفات مغامرة كبيرة مثل أحد جنود غزو أميركا في القرن السادس عشر. ولكنه سيتمكن في النهاية من الاستيقاظ.

مع ذلك، بعينين مغمضتين حيال وهج الشمس الأبيض الحي الذي يتحول إلى أحمر وراء جفونه، وهو عالق في ذلك الحلم الذي طال كثيراً، وسط هذه المظاهر الحارة والرطبة، العابقة برائحة طين ونباتات كثيفة، وردت إلى ذاكرته لحظات أخرى لم يعرف إذا ما كانت حقيقية أم حلم بها، أم أن حلمه يختلقها في تلك اللحظة بالذات كما لو أنها ماضٍ حقيقي. وكتدفق مفاجئ في عمق إحساسه، كزوابع غير متوقعة تلوى فيها الوعي وتبعثر، حضرت صور بعض لحظات الماضي: وهكذا استعاد مواقف كانت قصيرة جداً حين عاشها، وصارت الآن طويلة، هائلة، ساكنة. كانت انعكاسات على ماء راكد، وكان هو منحنياً بين القصب يراقب طيران يعسوب أخرق، بينما الظهيرة تُبقي أشجار الحور دون حراك، وتجعل صوت الماء أكثر خفوتاً. كان «هو» يستلقي إلى جانب حظيرة، على العشب البارد في مرج، ينظر إلى السماء الزرقاء تمتلئ شيئاً فشيئاً بالنجوم، فوق أوراق الشجر. وكان يقف بين الصخور الضخمة متأملاً الوادي الصامت إلى أن فقدت الأبعاد والمسافات نسبها المألوفة واتخذت أبعاداً ضئيلة جداً جعلته يتعلق كما لو أنه هو نفسه في مركز السماء، يغطي التخوم كلها. وكانت ذكرى هذه اللحظات تتقلب واحدة فواحدة، سريعة مثل زمرة جراء.

حدثت المفارقة من أنه، من بين شِباك ذلك الحلم المتاهيّ وغير النهائي بالضبط، انبثق إدراك شديد الوضوح باليقظة. فتلك اللحظات المقتضبة، تلك المجردات الخفيفة، وهذا الدوار العارض في تفكيره، تعني كلها جوهر الإحساس المتيقظ، وجوهر المعرفة المتنبهة، رافعة يقينه فوق السراب. كان ذلك، في لحظات الذهول والإنهاك تلك، كما لو أن حدود الوعي الفسيحة الممتدة والبعيدة، قد تركّزت. وأنه يدرك أن علاقة الذهول تلك بمياه النهر،

Twitter: @alqareah

بالعشب، بالأغصان، بالتجاعيد، وبالصخور البارزة المبعثرة حتى الوادي، لم تكن علاقة حبل سريّ مشوشة، وإنما هي دليل على أن تفكيره والعالم المعدني والنباتي يشكل هوية واحدة؛ وأن إدراك تلك العلاقة كان محجوباً، متوارياً، بعبوديات مظهره البشري، لكنه متأجج فيه دوماً؛ وتوصل في النهاية إلى لحظة إشراق تدله أن ماء النهر، في نهاية المطاف، هو ما يفكر في داخله، مثلما هي كذلك النباتات والحشرات والطيور، وحتى الجبال الجامدة نفسها.

لهذا بدا من المستحيل أن يكون في حلم.. فذكرى حالات الوعي المؤقتة تلك تلفه بزخم ما هو حقيقي. وتلك الغابة وذلك المحيط لم يكونا سوى انبعاث باهت لسبات بعيد.

فتح عندئذ عينيه، لكنه لم يستيقظ: وكانت فراشات كبيرة تحوم عند حدود الظل، وكان هو ضائعاً أمام انعكاس كابوس مداري، شاعراً في داخله بتزامن تلك الذكريات الحقيقية.

لم يستيقظ: فتح عينيه وظل البحر أمامه يصفع بقوة وسط زبد ضارب إلى السواد.

عاد إلى القرية، لكنه لم يسلك طريق الفندق. كان الدخان والروائح يشيران إلى هيجان الحياة اليومية. أطل أول الأطفال. بدأت الكلاب تتشمّم. وكان الدجاج ينقر قرب أعمدة الأبنية الخشبية. وعلى تفرعات الأشجار القريبة، نسجت العناكب شِباكاً لا نهائية تخفي بصورة غائمة جدران الأكواخ.

وفي أثناء مروره، كانت تظهر للحظات بعض النساء الفضوليات من فوق السطوح، وينظرن إليه بينما هو يذرع الشارع الطيني الطويل المرصوف في بعض النقاط بجزر اسمنتيه في أشد المستويات انحداراً. وفي نهاية الشارع، في ما وراء آخر الأبنية، كان هناك مطار ترابي صغير.. فسحة كبيرة شبه مغطاة بنباتات يابسة ومتفرقة.

توقف بهدوء. على أحد جوانب تلك الفسحة، رأى كُمَّاً قماشياً أحمر يتدلى من أعلى سارية طويلة زال لونها. وكما لو أن اهتمامه قد أثار في ذلك

Twitter: @alqareah

الكُمّ جهداً احتضارياً ليقدم دليلاً على طبيعة وظيفته، فانتفخ قليلاً قبل أن يتدلى مسترخياً من جديد. كان لذلك المشهد مظهر سكون لا يمكن سبر غوره، حالم كالنشوة. وكان هناك في الجانب المقابل للكُمّ عنبر من قش، فتوجه نحو الباب.

كان العنبر الصغير يؤدي مهام بار، ومكتب قطع تذاكر، ومخزن بضائع، ومستودع وقود، وقاعة انتظار. ووراء منضدة كونتوار مؤلفة من لوح خشبي كبير، كان هناك فتى يملأ باجتهاد استمارة ما. دخوله لم يصرف انتباه الفتى عن عمله. وبعد هنيهة، ضرب براحته منضدة الكونتوار برفق.

ـ تحت أمرك ـ قال الفتى في الحال، ودون أن يرفع بصره تقريباً.

ـ أتوجد رحلة إلى العاصمة هذا الصباح؟

فتح الفتى فمه بتكشيرة كبيرة كأنها ابتسامة. كانت أسنانه صغيرة ومنخورة.

ـ بعد نصف ساعة ستصل الطائرة الشراعية. تُفرغ وتُحمل بالبضائع وتعود. أتريد تذكرة؟

ـ ألن تتأخر؟

ـ لا تقلق. لقد تأخرت ساعتين. ولا يمكنها أن تتأخر أكثر من ذلك. ستصل بعد حوالي نصف ساعة.

ـ حسن ـ قال ـ أعطني تذكرة.

بحث الفتى عن دفتر تذاكر ألوانه باهتة، ربما بسبب الشمس، وبدأ يملؤه.

ـ ستتوقف الطائرة اليوم في سانتا مرغريتا.

ـ في سانتا مرغريتا؟

ـ لدينا راكب آخر. إنها سيدة ستنزل هناك.

أشار الفتى بخفة إلى الباب الكبير الذي يطل على حقل الهبوط، حيث يرتفع مستوى الأرض في شرفة طويلة مظللة. وكان بالإمكان رؤية جسد بشري على أحد جانبي الباب، يستند دون شك إلى الدرابزين. وعند قدميه تلمع حقيبة ظهر بألوانها الزاهية.

وبينما الفتى يواصل بجد تسجيل ملاحظات على استمارة جدول، نظر هو إلى الحمولة المعدّة للشحن. كان بينها سمكتا روبالو ضخمتان. إحداهما

Twitter: @alqareah

مازالت تزفر، وفي عينيها تعبير احتضار جلي ويائس. وقد بدت تلك الزفرات الأخيرة أقرب إلى حشرجات كائن بشري. أكمل كل إجراءات السفر وخرج خارجاً. لم تلتفت المسافرة، غير أن هيئتها فاجأته. وبالفعل، كانت تقاطع ذراعيها فوق الجذع المستخدم كحاجز للشرفة وتُحني جسدها إلى الأمام. وكانت ترتدي بلوزة فاتحة اللون، قصيرة الكمين، وبنطالاً ضارباً إلى الخضرة له مظهر عسكري، وتنتعل جزمة من جلد أصفر.

كانت امرأة ذات شعر أشقر ومشعث. ومع أنه لا يستطيع رؤية وجهها، ظن أنه عرف على الفور من هي. وكان على وشك أن ينطق باسمها عندما أدارت هي وجهها، وبعد لحظة تردد، فتحت شفتيها أيضاً، وحرّكت جسدها في اندفاعة قصيرة كبحتها في الحال.

ـ سوس ـ هتف هو.

أحس بخوف كبير. ليس لأنه عاد لرؤيتها بعد زمن طويل، وهو ما يمكن أن يكون، مبدئياً، خديعة أخرى من كابوسه، وإنما لأن لها حضوراً حقيقياً مؤكداً، مثل فسحة الهبوط المغمورة بالشمس، والعنبر المزعزع العابق برائحة فواكه متخمرة، بينما هو يعلم أنه أسير الجانب الآخر من عتبة لا يستطيع اجتيازها.

ـ لكن، ما الذي تفعله أنتَ هنا؟

ـ إنني أُشرف على حلقة دراسية في الجامعة ـ أجاب بعد بذل جهدٍ ليبدو هادئاً ـ وأنا هنا الآن، في القنوات، لكني عائد.

تمكن من إنهاء كلامه. كانت لا تزال تحتفظ بالمظهر الشبابي، وبعينين تشعان حيوية. قبلته على خديه بعاطفة صداقة.

ـ أرى وجهك شاحباً ـ قالت ـ وكثيراً من الازرقاق حول عينيك.

ـ لم أنم جيداً في الآونة الأخيرة.

أحس بقدر أكبر من الاسترخاء حيال طمأنينتها. كان يدرك أن تلك المكالمات الهاتفية التي استثارت غضب الأرجنتيني كانت موجهة إلى شبح اختفى إلى الأبد. كانت سوس تقف أمامه وقد حمصّت الشمس وجنتيها، وبدا شعرها مهملاً جداً كالعادة، وأدرك أن أي عاطفة بينهما قد ماتت بالفعل منذ سنوات، وإن كانت لا تزال قائمة هذه المودّة التي تربط بين الرفاق القدامى الذين ينتهي بهم الأمر إلى تحميل الظروف أسباب التعاسة التي تسببوا بها هم أنفسهم، وعانوها معاً.

Twitter: @alqareah

ـ أتعلمين؟ لقد اتصلت بك هذه الأيام.

ـ اتصلت بي؟

ـ كنتُ عصبياً بعض الشيء، وظهر ذلك الرقم الهاتفي السعيد في ذاكرتي بدقّة وإلحاح لا يُطاقان حقاً. اتصلت عدة مرات، لكنك لم تكوني موجودة.

كانت تتأمله بهدوء.

ـ أمازلتِ متزوجة من الأرجنتيني؟

ـ أجل ـ قالت.

ودعمت تأكيدها بحركة قوية من رأسها.

ـ آخر مرة اتصلت بك فيها بدا غاضباً.

ضحكت سوس.

ـ وماذا كنت تريد؟

ـ لا شيء ـ أجاب ـ أظن أنني كنت أشعر ببعض التوعك. شيء من الهلوسة. وقد اتصلت بك للارتباط بالواقع.

ـ وهل أنا الواقع؟ ـ سألت.

ـ حين اتصلتُ أول مرة، ذكّرني بأن علاقتنا انتهت من ثلاث سنوات. وقال إنك على أحسن حال.

لم تجبه بشيء.

ـ والحقيقة أني أجدك على أحسن حال ـ قال مؤكداً.

فتنهدت.

ـ أجل، إنني على أحسن حال. هو يظن أنكَ كنت سيئاً معي. لذلك غضب.

هزّت هبة نسيم خفيفة وساخنة ذلك الكُمّ المعلق الذي تحرك بخراقة دون أن يتمكن من الارتفاع. وصار يجد صعوبة في صياغة الكلام مثل صعوبة ارتقاء تلك الأداة باهتة اللون. ومع ذلك، بدا له أن الحوار هو الشيء الوحيد القادر على ربطه بما هو خارج الكابوس.

ـ هل أسأتُ معاملتك حقاً؟

هزت سوس كتفيها.

ـ لقد مضى كل شيء. أنا لم أعد أتذكّر. الحقيقة أننا جعلنا حياتنا صعبة، أنا وأنت.

Twitter: @alqareah

كان قد اسند مرفقيه إلى الدرابزين، بوضع يشبه وضعها، وظل يصوب عينيه، دون أن يرمش تقريباً، إلى الأشجار المثقلة تحت الشمس الساطعة. كانت جماعة من نسور الرخمة تحلق فوق الأشجار التي عند حدّ فسحة المطار من جهة القرية. وكانت تلي خط الأشجار كتل خضراء أقل ارتفاعاً، ومجموعات قصب فسيحة تواصل تحديد ميدان الهبوط، ويظهر أخيراً سطح النهر الضارب إلى الخضرة وبقعة الجرف الرمادي.

ـ وماذا لديك في سانتا مرغريتا؟ ـ سألها.

ـ إنني على أحسن حال ـ كررت، كأنها لم تسمعه ـ جئت وحدي لأن لدي إجازة لبضعة أيام، وكنت راغبة في هذه الرحلة. ولكن ليس لدينا أية مشكلة.

كانت سوس تتكلم ببطء، كما لو أنها تبحث في ذاكرتها مسبقاً عن كل كلمة تستعملها. وعندما انتهت، بدا أنها أدركت عدم سماعها سؤاله.

ـ المعذرة ـ قال بتعجل ـ ما الذي قلته؟

ـ سألتك عن سانتا مرغريتا.

ـ سيُحتفل بذكرى تأسيس الإرسالية ـ أجابت ـ إنها إرسالية مهمة جداً. أول إرسالية مسيحية إلى منطقة تمارس فيها عبادة الزواحف.

أطلقت ضحكة قصيرة.

ـ وأقوم ببعض السياحة الرخيصة.

صار النسيم الآن مثل سائل يلفحهما بموجات دهنية بطيئة. وكان هو يمسح العرق عن جبينه وعنقه.

ـ ممارسة السياحة هنا مهمة شاقة ـ أجاب.

عندئذ سُمع دوي الطائرة الصغيرة. وبعد لحظات قليلة ظهرت محلقة في الفضاء القريب، وراحت تقترب إلى أن حطت على الأرض. وسرعان مازال القناع عن مظهرها الذي بدا لامعاً في السماء؛ لكن الحواف الناعمة الصدئة التي ذهبت ببريقها، ساوت مظهرها بمظهر كل الأشياء الأخرى، معيدة إياه إلى تماسك الواقع اليومي. بدأ قائد الطائرة وفتى المكتب بإفراغ البضاعة، ثم حملا السمكتين، وبعض الحزم والرزم. وأخيراً، استقر هو نفسه وسوس في مقصورة الطيّار الضيقة، على مقعدين قاسيين ومهترئين جداً. كانت السمكة المحتضرة تواصل احتضارها، وفكر هو أن ذلك أمر غير عادي آخر لا يمكن

Twitter: @alqareah

استمراره إلا بتأثير الحلم. حمل عن الأرض ورقة جريدة وغطى بها رأس السمكة.

لم يتبادلا أي كلام آخر. ولما حطت الطائرة الصغيرة في سانتا مرغريتا ـ فسحة وسط الغابة على شكل دائرتين متجاورتين ـ جمعت هي أمتعتها بسرعة وقبلته من خديه مرة أخرى. كانت الجريدة قد انزلقت وظهر رأس السمكة. وكانت قد ماتت: فقدت عيناها بريقهما، وظل فمها مفتوحاً في آخر زفرة، ربما كرمز لصرخة غامضة. نزلت سوس دون أن تتكلم، رآها تبتعد وأحس بالقلق، لأن ذلك الغياب أعاده إلى كابوسه بالكامل، دون أي حماية ممكنة.

حلقت الطائرة من جديد. كان يشعر بالنعاس، لكنه لم يشأ النوم، وحاول التحدث إلى الطيار، وهو رجل نحيل في عينه اليمنى سحابة قرنية لحمية تغطي ربع القزحية. غير أن صخب المحرك جعل الحوار صعباً، يكاد لا يتعدى مقاطع صوتية متقطعة تختتم جملاً لا تُسمع جيداً ولا تُفهم تقريباً. لكنهم كانوا يحلقون على ارتفاع منخفض، وكانت رؤية مجاري الماء، والبيوت الصغيرة المتناثرة، والوهاد الآخذة بالتصاعد حتى الوادي المركزي، وبدا المشهد المصغّر الذي ينزلق تحت الطائرة في النهاية أشبه بمحاكاة تعويضية عن حلم بالطيران يأتي لتهدئة قلقه.

Twitter: @alqareah

IX. العودة

عندما وصلوا، كان قد وعى هويته تماماً. ولكن كانت لا تزال مترسخة فيه، بثبات حُرقُ، ذكرياتُ الشخصية التي حلم أنه يكونها: ذكرى البيت الأبيض ذي الرواق الطويل عند المدخل، ونسيج شعر المرأة ورائحة جسدها، والعزف على الجيتار، وجلبة الحيّ عند الغسق. صعد بطريقة آلية إلى سيارة أجرة وأشار إلى العنوان. وحين تركته السيارة أمام البيت، أعادت إليه تلك الصورة المريحة لرواق المدخل ذي الأعمدة الرفيعة، الشعور المسبق الراسخ بعادة مألوفة، وأعادت إليه كذلك القناعة المخيفة، والثقة شبه اليائسة بأن عليه، وقد استغرق في الحلم إلى الأبد، أن يتقبل بصورة نهائية ذلك المكان وتلك الأسرة، دون أي احتمال لمناظر أخرى أو روابط أخرى.

ارتقى الدرجات المؤدية إلى رواق المدخل، واجتاز الممر وتوقف أمام الباب. ولكنه انتبه على الفور إلى تغيّرات طفيفة: اتساخ النوافذ، ومظهر إهمال غير معهود على البلاط، وتقشر وتلف لم يكن موجوداً في الجدران، وصدأ المسامير الكبيرة التي تُعلّق بها عادة أراجيح النوم. وبعصبية، طرق خشب الباب بقوة، لكن طرقاته دوت بأصداء رنانة في عمق البيت دون أن يستجيب لها أحد.

عندئذ أدرك أنه ليس البيت المقصود. لا شك في أن سائق سيارة الأجرة أخطأ الشارع، والتبس عليه هو نفسه أيضاً مظهر البناء العام لشبهه الشديد. خرج إلى الشارع لتصويب اتجاهه، فمشى حتى التقاطع القريب، مقتنعاً بأنه وجد الطريق. ولكنه حين بلغ الشارع التالي، لم يكن أي من البيوت الصغيرة فيه يتطابق مع البيت الذي يحاول العثور عليه. واصل المسير واكتشف أن ذلك المظهر الذي بدا له معروفاً تماماً عندما اجتاز المدينة في سيارة الأجرة، هو الآن مظهر غامضٌ جداً، بل غريب في بعض النقاط، حين تواجهه أزقة غير متوقعة وساحات صغيرة لم يرها قطّ من قبل.

جاب الشوارع طوال ساعات عديدة، لكنه لم يجد البيت. أحسّ بالضياع،

Twitter: @alqareah

وبأنه يزداد جهلاً بالمكان الذي هو فيه. وإلى جانب ذلك الإحساس بالغرق، اعتراه كذلك خوف جديد: أن يجد البيت حقاً، وبعد أن يفتح الباب، ربما يتبين أيضاً أن المكان الأول لكابوسه لم يعد له وجود أيضاً، لأنه ربما كان رجلاً مختلفاً، بذكريات مختلفة، ومن يدري أية أخطار جديدة تنتظره.

وأخيراً غادر الحيّ، واجتاز السوق وتوغل في المدينة القديمة. صار الآن في ما وراء الارتباك والخوف. راح يُخضع نفسه لكل شيء، فقد أدرك أن الأمر هو أحد تلك الأحلام التي يعجز النائم، بعد كفاح لإبعادها، عن الهرب منها أو طردها، ويتوجب عليه تقبلها في نهاية الأمر بافتتان مؤلم: ليست هذه المدينة، دون شك، سوى حلم لجوج، وفي الحلم فقط أمكن لما لم يكن له وجود قط، أن يظهر كما لو أنه موجود وحقيقي. وذكريات الطفولة والشباب لم تكن سوى خدعة أخرى من حواسه. وكذلك الاعتقاد المستند إلى أحلام يقظة محضة، وكوابيس سرّية، بأنه كان ذات مرة أستاذاً كوسموبوليتيّاً، وتاجر بنّ متواضع، متحدر من سلالة مهاجر إسباني قديم. تمعنَّ للحظات في تلك الومضات اللامعة، واستعرض بتدقيق وجوهاً، وحركات، وظلالاً وأضواء، وروائح وطعوماً. ابتسم مجدداً. لقد كان أولئك الرجال وأشياء كثيرة أخرى: كان إلهاً حجرياً، جامداً في اللانهاية، يرى في بعض الأحيان اهتزاز ذهوله بأحلام غامضة مميتة، وكان طفلاً يتأمل حيواناً زاحفاً صغيراً تحت شمس الظهيرة.

تحت الظهيرة، كانت ساقاه تتحركان آلياً، في جولة ذكرته بواحدة أخرى بعيدة، قام بها ذات غروب، عندما سلك دون وعي، أول مرة، الطريق إلى بيت الأعمدة الصغيرة.

قادته خطاه أخيراً حتى القلعة القديمة. لم يكن هناك أحد تحت قنطرة البوابة، لكن الكرسي الخشبي الذي يجلس عليه الحارس مازال هناك، كدليل على أن الغياب مؤقت. دخل إلى الفناء المغمور بالشمس. توقف لحظة، لكنه اجتازه بعد ذلك دون تردد، متوجهاً إلى القاعة التي فيها الصورة. وفي وسط الفناء، كانت الكرة الحجرية الكبيرة، بحجمها الضخم، وزنجارها القديم الأسود والأصفر، تحت الضوء العمودي، تبدو كأنها تطفو فوق كتلة العشب الكبيرة المحدبة، مثل كوكب يسلك مداره، مثل صورة للكوكب نفسه، يحمله هو وأحلامه، مواصلاً طريقه المجهول عبر الفضاء.

استطاع تأمل تلك الصورة من جديد في القاعة، وأحس مرة أخرى بأن

Twitter: @alqareah

رجلاً يقف ثابتاً دون حراك، يراقبه من وسط ظل خفيف يتناقض وحدّة نور الخارج القوي. دخل القاعة وتعرّف على الصورة: الملامح العائلية المؤكدة في الصمت الكثيف، الإسفنجي وسط الأثاث القديم، والحزم المعفرة، والأدوات حائلة الألوان.

اقترب أكثر. كانت ذكرياته كلها هائجة في وقت واحد، الذكريات الحقيقية والمعيشة على السواء. وكان يعلم مع ذلك أن كثيراً منها كان أحلاماً وحسب، وأنه يمكن لمجرد الاستيقاظ أن يشكل على الفور الحد الفاصل فوراً الذي يبدد، دون مقاومة، الأوهام المحتدمة الآن كلها. كان يقف قبالة اللوحة بالضبط. وأدرك عندئذ أن الشخص المرسوم، ذلك الاستنساخ القديم المستحيل للوجه الأبوي، ينظر إلى ما وراءه، إلى نقطة خارج القاعة. استدار بدوره ونظر. كان البريق البنفسجي يشكل في وسط الحجرة جسماً مضيئاً مكوراً. وأبعد منه، كان مستطيل فراغ الباب يفضي إلى ضياء آخر، إلى ظل الرواق الضارب إلى الزرقة، حيث الأعمدة المزدانة بمتوالية نباتات متسلقة، مفعمة بالأزهار، كأنها إطار لوحة أخرى لمنظر مقسم إلى موتيفات مختلفة: إلى أسفل، الفناء. كتلة نور هائلة يسندها دون عناء النصف العلوي من الكرة الكبيرة ومسطح العشب المحدب. وأعلى قليلاً، في المنتصف، الزخرفة الخفيفة البيضاء على المدخل المسقوف، وبعد ذلك السطح القرميدي حيث ينزلق الضوء دون بريق. وإلى اليمين، عند مستوى المدخل المسقوف بالذات، وفي ما وراء شرفات الأبراج، تظهر قمم جبلية ضاربة إلى زرقة وخضرة تتبعثر فوقها السحب.

كان هدوءاً. وسُمع عندئذ رنين جرس بعيد وبطيء يتكرر عدة مرات، كأنه يشير إلى ساعة محددة، وعاد الصمتُ الصافي بعد ذلك ليملأ كل شيء. فكر في أن الرنين هو إشارة إلى الساعة الآخرة، وإلى أن الوقت نفسه قد انتهى. وساوره الشك في أنه في بناء خاوٍ، في مدينة قديمة ميتة، دمرتها الزلازل منذ قرون طويلة؛ مدينة مهجورة إلى الأبد، في عالمٍ مقفر كذلك من أي حضور حي. وتلاشت ذكريات زمني الحقيقية والحلم إلى أن استُبدلت الأفكار أخيراً بمجرد رؤية المنظر. وبعد ذلك اختفت صور الفناء، والكرة الحجرية، والرواق المعمّد، والرواق المسقوف، والسطح، وقمم الجبال، اختفت كلها أيضاً، ولم يبق سوى الإحساس المجرد بالضوء الذي تعكسه. كتلة متفاوتة الكثافة، راحت تذوب أخيراً بسرعة في سحابة ضباب غبشة. بدا

Twitter: @alqareah

كما لو أن طبائع أخرى قد انضمت إلى الطباع المتعددة التي تختلط فيه، وأنه يرى نفسه متطابقاً مع ذلك الشيء الجامد المعلق على الجدار. أو ربما كأنه جذع قديم متآكل اتخذت منه، مثل يرقات لا حصر لها، مأوى لها هويّاتٌ كثيرة أخرى: وربما سيبدأ الكابوس بعد ذلك تحويله بطرق مختلفة، فبدل أن يكون شخصية تجول حائرة، سيتحول إلى المدينة نفسها، إلى المتحف وحارسه، إلى خلطة أخيرة دون تميز ودون استيقاظ ممكن.

جلس على المقعد الصغير الذي يحتل وسط القاعة وأغمض عينيه. انطفأ تفكيره ورؤيته بينما بدأ يدرك أن زمن ذلك الإدراك قد امحى في لحظة انبعاثه بالذات. ولم يعد يشعر بأي شيء. بالفعل، لقد صار مجرد شيء آخر من أشياء القاعة المقفرة، ربما هو صورة ذلك الرجل الفظة، بملامحه الأسريّة، المحاطة بإطار أسود عريض، والمعلقة على جدار الصدارة، بين خزانة قاتمة من خشب متين، ومنضدة مكتب ضخمة.

لكن صوتاً مقتضباً قريباً انتشله من ذهوله. فتح عينيه وأدار وجهه. كان يجلس إلى جانبه قريبه البعيد المقيم في ما وراء البحار، ينظر إليه نظرة مفاجأة، لا شك أنها استنساخ دقيق لمفاجأته هو. تبادلا نظرات تأمل وهما جامدان، دون أن يرمشا، متنفسين بلطف، إلى أن تأكدت نظرة كل منهما من أن الوجه الآخر ليس نتاج هلوسة جديدة. وأخيراً، نهضا في اللحظة نفسها، دون أن يتكلما، بحركة خرقاء تحاول أن تبدو طبيعية، وكأنهما ينهيان موعداً لم يُطرح خلاله أي شيء غريب، وكما لو أن لقاء هذا اليوم يشكل جزءاً من المشهد العادي واليومي الذي يمكن أن يُدرج فيه اللقاء في مقهى الساحة، تحت الرواق المسقوف الذي شكل بداية علاقتهما.

وأحسّ بحماسته تتمطى بلهفة لتحتل من جديد الفراغ الذي فتحته كآبته الطويلة. فزيارتهما تلك، معاً، الصورة التي تجمع بينهما هي علامة تآلف أيضاً مطابقة لقواعد واقع مألوف، دون مفاجآت أو أحداث فريدة.

لم يكن الوقت ظهراً، وإنما هي ساعة الغروب، ساعة الإغلاق، وكان آخر زوّار المتحف يغادرون القاعات ببطء أيضاً. خرجا من البوابة الكبيرة ونزلا حتى الجادة المركزية. ولا شك في أن كليهما، بأيديهما في جيوبهما ورأسيهما المطأطئين قليلاً، كانا يجترّان التفكير نفسه. إحساس كل منهما بأن الآخر منفصل عنه ومختلف كان باعثاً على الأمل لكليهما.

Twitter: @alqareah

حين وصلا إلى الجادة المركزية، تبادلا الوداع بمعانقات كبيرة. كان في عيون كليهما خوف، ولكنهما وعدا بالحفاظ على روابط علاقتهما. وظل هو بعد ذلك ينظر إلى الآخر وهو يبتعد. رآه يجتاز الشارع، وفجأة تحول أمله إلى سعادة: لقد أوقف أحد المارّة قريبه البعيد، وحيّاه بمودة، وراح يتحدث إليه بثقة العادة. وحين رآهما يفترقان وواصل قريبه طريقه، أدرك أنه لا يمكن لشيء أن يحول دون لقاء كل منهما بحقيقته الخاصة.

طغت أضواء الشارع على إضاءة الغسق، وتوجه هو إلى الفندق. وعند منضدة الاستقبال قدمت له تلك المرأة ذات الشعر الأسود مفتاح غرفته بالروتين الثلاثي المطمئن: الإيماءة، والابتسامة، والتحية. أخبرها بأن إقامته قد انتهت، لأن الحلقة الدراسية قد أُنهيت، وتلقى حساب الأيام الأخيرة. ظل يتبادل الحديث، مسهباً في التعليمات من أجل مغادرته في اليوم التالي. جرى كل شيء بعادية دقيقة ونام تلك الليلة دون أحلام، في تلاش قاتم وكامل.

❖ ❖ ❖

كانت لا تزال أمامه اثنتان وسبعون ساعة تقريباً لموعد رحلته، لكنه توجه إلى المطار مصمماً على عدم الخروج من هناك إلا راكباً الطائرة. كان يجلس في قاعة الانتظار بتصميم على البقاء: كان ينام متكئاً على المقاعد، وتوصل أخيراً إلى تحمّل كل مضايقات الوضع كشرط مقبول في ذلك السرير الصعب. وكان يتغذى على مأكولات الكافتيريا الصغيرة، متحولاً من المرطبات إلى القهوة والحلويات وبعض اللقيمات التافهة. ويغتسل في ساعات النهار الأولى، حين تملأ رائحة المعقمات المغاسل السوداء. كانت تحيط به مجلات وكتب منتقاة مما يتيحه مجال الاختيار المحدود في المكتبة الصغيرة، وكانت هناك لحظات يصل فيها إلى الاستغراق حقاً في القراءة، حتى إنه كان يفقد خيط مضمون القصة نفسه، وتكتسب الكلمات، وقد نسي معانيها، واقعاً مادياً خالصاً، كما لو أنها أشياء مادية، ورسوم صغيرة لا يفرق بينها إلا طولها وشكل حروفها. وإذا كان يأخذ في الاعتبار طريقة لفظها، فإنما يفعل ذلك دون تعدي اللفظ المستوى الصوتي الخالص، كما لو أنها علامات موسيقية. كان ذلك التمرين يهدئ ذهنه.

وفي أثناء ذلك، كان مسافرون كثيرون يتوالون على بقية المقاعد.

Twitter: @alqareah

وكانت حركاتهم، وتبدل الوجوه المستمر، وتعاقب المظاهر الجسدية المختلفة، وتنوع أمتعتهم، تستثير فيه، وهو يتأملها من جمود انتظاره، فكرة خاصة عن الزمن: كما لو أن الزمن عدّل مقاييسه، وجعلها أكثر امتداداً بكثير. إذ كانت تلك الساعات تكتسب، مع التبدل المتواصل لكل ما يحيط به، قوام فترات طويلة جداً، ودورات بالغة البطء وهو مشدود فيها إلى محور العجلة الكبير الثابت، يتأمل المرور العارض للحقائب والناس.

كان بعض المسافرين قادمين من بلدان أخرى في المنطقة، فكان يحاول تمييزهم من خلال التبدلات الطفيفة في لهجتهم، ويبحث في وجوههم وملابسهم عن علامات تشير إلى موطنهم الأصلي. وكان آخرون ممن اجتازوا المحيط الأطلسي، أو يتأهبون لاجتيازه. مسافرون متعبون وناعسون ينتظرون تبديل الطائرات التي ستقلّهم إلى نقطة جديدة. وكان يمر كذلك يابانيون وهنود، بينما الساعة الكبيرة التي تتصدر القاعة تواصل تسجيل مرور الساعات، وضوء النوافذ العالية يشير له إلى اقتراب الليل، ووجوب أن يأكل شيئاً قبل أن يأخذ إغفاءة قصيرة، شاعراً أن لذلك الصخب، مع ذلك، صدى احتفالياً خفياً.

في اليوم الثاني، سألته مسافرة وصلت للتو من رحلة عبر الأطلسي عن كيفية مواصلة رحلتها إلى سانتا مرغريتا. كانت امرأة شابة، نحيلة، لها شعر قصير وأسود يمنحها هيئة شرقية. ربطها على الفور بعصبة أحلامه، لكنه لم يفقد الطمأنينة. وكان كفاحه من أجل اليقظة يائساً، كأي فعل بقاء محض. كان يعرف أنه عليه ألا يفقد أعصابه، حتى إنه ابتسم. كانت هي قد جلست قريباً منه وبدأت تتصفّح بعض الأوراق.

ـ وهل اجتزتِ المحيط من أجل الذهاب إلى هناك فقط؟

نظرت بحذر واضح إلى لحيته النامية، وشعره المنفوش، والمظهر المجعد المتسخ لثيابه.

ـ لا ـ قالت كمن تعتذر ـ. هذا مجرد فضول مني. الجولة أوسع من ذلك بكثير. وهذه رحلة خاصة ضمن الجولة.

ـ طبعاً ـ قال ـ إنه حفل إحياء الذكرى.

ـ أجل ـ أجابت.

وكان على وشك أن يضحك مقهقهاً، وأن يدعوها باسمها، وأن يقول:

Twitter: @alqareah

«أنتِ هنا لأني حلمت بك. أنتِ أحد العناصر في تعقيدات الكابوس». لكنه لم يفعل. بل فعل عكس ذلك، متخذاً مظهر جديّة كبير.

ـ توخي الحذر ـ قال ـ الحر هناك شديد جداً. وتوجد حشرات رهيبة. وأفاعٍ سامّة. وفي الليل يُسمع عواء باعث على القشعريرة.

نهضت الفتاة بمزاج قلق.

ـ إنه مكان مناسب للكوابيس فقط. من أجل الحلم بلقاءات مشؤومة.

انفجر في الضحك، بينما كانت الفتاة تبتعد حاملة محفظتها الكبيرة.

وأخيراً ركب الطائرة. وبينما هو مسترخٍ في مقعده، واصل ـ بصورة أكثر فأكثر كمالاً وشفافية ـ استعادة الوعي المفصول عنه. عندما ارتفعت الطائرة، وبينما هي تميل في انعطافها بحثاً عن مسارها، استطاع أن يتأمل رقعة شطرنج كتل الأبنية تلك المحجوبة قليلاً ببساط بطيء من سحب خفيفة. لكن السحب كانت مجرد سحب، وليس ضباباً غريباً، ولا عصائر لزجة في معدة بغيضة. وراحت المدينة تختفي بفعل المسافة وابتعادها نفسه.

كان يشعر أنه استيقظ تماماً. وكانت الطائرة، باعتبارها ديكوراً حيادياً لا يحكم مسبقاً على تفسير دوره داخلها، تسمح له بأن يكون مسافراً آخر، دون أية تعقيدات أخرى، وتسهّل عليه استرداد وعيه وهو متكئ داخل الحضن الدائري الكبير، بينما كان يُعرض فيلم في العتمة الخفيفة. ظلّ بمنأى عن صور الفيلم، وفكر في أن الفضاء الأسود الذي تخترقه تلك الطائرة الكبيرة التي تحمله في أحشائها، مكوّن من مادة أشد كثافة وصخباً بكثير من السماء اللانهائية فوق المياه المالحة، كما لو أن الأمر يتعلق بجانب سريّ منه بالذات وأنه لا بد من اجتيازه استكمالاً لأنظمة بروتوكول سرّي. لكن، فوق العتبة الغامضة لحميميته الخاصة، كان يحس أيضاً بأن تلك الرحلة هي رحلة حقيقية بالكامل، وأنه يحلق فوق المحيط الحقيقي، مغادراً على نحو عاصف نهاراً مؤكداً ليجتاز ليلاً هو الجانب المظلم من الكوكب، على ارتفاع عشرة آلاف متر، بسرعة ألف كيلومتر في الساعة، فوق هوّة ليست مشيّدة من الأحلام والأحاسيس.

بحث عن الورقة والقلم في محفظته. كان ذهنه واضحاً ومتجدداً. إنه في طريقه إلى الإجازة، لكنه ذاهب أيضاً لقضاء وقت يكرسه بزخم للتفكير في كتابه الجديد. عثر بين بطاقات الملاحظات على رخصة قيادة سيارة،

Twitter: @alqareah

وشيكات سفر، وبطاقاته الائتمانية. ولم يعد يخيفه الآن قراءة اسم صاحب كل هذه الوثائق: كان يعلم أن هويته قد صارت واضحة إلى الأبد، أيّاً كان الشخص الذي تشير إليه الوثائق.

كان متيقظاً إلى حدّ أن أحلامه السابقة صارت تسبب له الآن بهجة، كما لو أنها أحداث غير مؤذية تخلو من أي معنى آخر سوى كونها مجرد لعبة من ألعاب روحٍ مختلف الأجساد التي يسكنها الإنسان الأرضي: روح التراب، وروح الكون، وروحه الخاصة. ويتذكر فجأة الأحلام الكثيرة التي رآها في حياته، منذ الطفولة، بالزخم نفسه، وبكل مصداقيتها الخارقة والمعقّدة. كانت اليقظة وحدها تعيد تلك الأحلام مرة أخرى إلى ميدانها العصي على الفهم، إلى وكرها غير المرئي الذي تقبع فيه خلال اليقظة، ويكون بإمكانه أن يشعر عندئذ بأنه حي وحرّ حقاً. وبالطريقة نفسها، كان يشعر الآن أن الحلم قد ظل وراءه بصورة نهائية، ساكناً، ثابتاً مثل شيء من مقتنيات متحف، ببريقه ومخاوفه، بعد أن بدا له بلا نهاية. ومع ذلك، ربما يكون قد انبعث خلال إغفاءة قصيرة وآنية في الطائرة نفسها: لأنه يتذكر الآن فترة وجوده في تلك الجامعة ذات الفناء الباروكي البديع، وروتين عمله الأكاديمي، والعودة إلى البيت، وكل ما عدا ذلك يرتسم في التلاشي المتدرج للأحلام، دون أن يكون ممكناً التحديد الدقيق للحظة حدوث ذلك التلاشي. تذكر بوضوح أيام إقامته، وأيام العمل مع فترات البطالة القصيرة التي قضاها في رحلات سياحية هادئة وتقليدية. لم يعكرها أي حادث غريب. تلك الأحلام لم يكن لها متسع هناك.

كان الفيلم قد انتهى، وأسند المسافرون رؤوسهم إلى الوسائد الصغيرة، وتكوروا تحت البطانيات. وكانت الشاشة تلمع قليلاً، كما لو أنها تسهر على ذلك السكون العام. وهكذا، بينما هو مستيقظ ولكنه ساهم، راح يغفو. كان يفكر في دروب الأحلام واستغرق في النوم متذكراً بعض الانتشاءات البعيدة التي حلم بها قبل سنوات طويلة، حين كان لا يزال مراهقاً. «ولكنك صرت الآن في الخامسة والأربعين»، فكر بغموض.

وعندما استيقظ، كانت مكبرات الصوت تعلن عن تقديم وجبة الفطور، وكانت العربتان المعدنيتان تتقدّمان من الجهة الأمامية مع رنين ارتطام الكؤوس الزجاجية، تحت بياض الضوء المفاجئ. وانضمت إلى الضوء موسيقى

Twitter: @alqareah

عذبة معلنة أن الزمن الليلي قد انقضى. وكانت المعلومات الدقيقة التي يقدمها الصوت الآتي من السقف تشير إلى الوقت ودرجة الحرارة والسرعة. استوى ببطء مستغرباً من أنه نام كل ذلك الوقت: لا شك أن عدم وجود مسافرين في المقاعد المجاورة أتاح له التمدد، ووفر له تلك الراحة الطويلة والهادئة.

قدموا له الفطور وأكل بشهية. ومن خلال النافذة الصغيرة كان يرقب قبة السماء: قبالة بُركة الفجر الخفيفة، كان سواد الفضاء الضارب إلى الزرقة يشتعل ببريق أحمر يميل متدرجاً بخفة إلى البرتقالي والأصفر. وكان للفجر، والسماء اللانهائية التي تجلو ظلمتها الكثيفة، معنى الهواجس السعيدة، الإشعار باستيقاظ نحو زمن مضيء من الراحة والتكاسل في أرض مولده، وقد تقبل ذلك بتأثر مشابه لتأثر ناجٍ وجد، بعد معركة مع الظلمات القاتلة، الطبيعة الدافئة للأيام الحيّة.

وأخيراً خلّفوا المحيط وراءهم. والسماء التي صارت زرقاء بنعومة، بدت خالية من الغيوم. حاول أن يكتشف في سطح الأرض المجعد علامات تشير إلى القرى، لكن الارتفاع الكبير جعله يتصور كل شيء كصحراء رتيبة، ترابية، مقفرة، لا تقطع رتابة التراب الأمغر سوى ظلال الجبال المتطاولة ومجاري الأنهار، بين مزق ضباب لبنية البياض وسحبٍ تغطي مجاري الماء في الوادي مثل أصابع بيضاء طويلة.

لم يعد ثمة متسع للشك. وعندما حطت الطائرة أخيراً في نقطة النهاية، كان لتعبه حدود دقيقة. لكن التعب لم يتغلب على تلهفه، والجهد الذي تجاوز به التعب، بعد القرار بالتوجه دون تأخير إلى البيت الأبوي، كان جهد إنسان يقظ، شخصية من الواقع حيث للإزعاجات والانكسارات ملمس لا لبس فيه ولا يمكن له أن يتشابه وعالم الأحلام. ودون طويل انتظار، توجه مباشرة إلى المحطة واستقل أول قطار ينقله إلى بيته. استُبدل اهتزاز الطائرة الخفيف بالطقطقة الإيقاعية على السكة الحديد، مما جعله يغفو من جديد.

❖ ❖ ❖

وهكذا استقل القطار واجتاز صباح الهضبة الهادئ، الهضبة المعفرة ذات التراب الأمغر التي تحوم فوقها الحِداء، تحت سماء ملتهبة وشديدة البعد.

فتح عينيه قليلاً وفوجئ بأنه يعرف تلك المناظر بوضوح. لقد مضت سنون

Twitter: @alqareah

طويلة مذ كان هذا الخط نفسه يوصله إلى البيت في الإجازات، للمشاركة في الطقوس الاحتفالية، لقد تغيرت أشياء كثيرة: القطار نفسه، والطرقات المكتظة الآن بالسيارات، وهيئة القرى والمساكن. ومع ذلك، كانت عيناه، في زياراته المتفرقة، تعودان إلى اكتشاف رابية ما، وجدار منهار، وانعطاف جدول عند أجمة أسفل سفح، وصورة مستنسخة بالضبط من ذكريات شبابه: شكل الرابية الضاربة إلى البياض اللطيف، والجدار الضارب إلى الحمرة، والجدول الذي يجتاز جسراً صغيراً من الخشب والحجارة مازالت جميعها هي نفسها، بل إن بهجته بالتعرّف عليها كانت تحتفظ أيضاً، في الرجل الذي صار إليه، بجمرات نيران أحاسيسه حين كان فتياً وكانت الإجازات تتفتح أمامه كزمن لا ينضب.

كان يتوغل في الأصيل عندما بدأت صفوف الحور الطويلة تعلن عن الضفاف الفسيحة. وكان الضوء يتلألأ فوق ذراها المدببة.

وصل أخيراً إلى المدينة، بينما كان الغروب ينسكب في الساحة مثل ليكور أصفر، مغرقاً الشوارع في بريق تتوالى فيه الومضات الذهبية والظلال الزرقاء. كان النهار حاراً، ومن الجبال، متبعاً مجرى الأنهار، كانت تنزل نسمات صيفية محملة بروائح البراري.

في مثل هذه الأوقات من الصيف، يكون أبواه في القرية عادة. أعرب عن شكه هذا بصوتٍ عالٍ لسائق سيارة الأجرة، وهو رجل له رقبة ثخينة مثل الرأس الكبير الذي يستند إليها.

ـ إلى السدّ؟ ـ سأله الرجل ـ أتذهب إلى السد؟

ارتبك. وعاد إلى ترديد اسم القرية، وأوضح أنه لا يعلم إذا ما كانت أسرته هناك. وأشار له حينئذ باتجاه المدينة.

ـ لقد أخطأتُ في فهم ما قلته ـ قال سائق سيارة الأجرة.

ومع ذلك، جعله الارتباك الذي أحدثه سؤال السائق يتشكك في أن كارثة قد وقعت. فهتف:

ـ لكن، لا وجود هناك لأي سدّ.

ـ لقد قلت لك إنني أخطأت في الفهم ـ ألحّ الرجل.

سؤال السائق جعله يتصور فوراً مسقط رأسه وقد غمره أحد تلك السدود الهيدروكهربائية التي راحت تغمر مناطق جبلية أخرى. وكانت رؤيةً آنية طغت

Twitter: @alqareah

فيها كتلة ماء هائلة على فضاء الوديان كله، وبحرٌ لا يظهر فيه سوى رأس صخرة كبيرة ـ قمة الجبل الذي كانت تنتصب فوقه صومعة سان بيلايو ـ يحل محل مشهد الطفولة دون لبس. الطمي القاتم يغمر كل شيء. وستكون قذارة كثيفة قد أغرقت أماكن ذكرياته الأولى، وغرف النوم التي كان يتردد فيها صوت البندولات، والممرات الموسومة برايات طويلة من الشمس، والقاعة التي تلتقي فيها انعكاسات بريق مرايا وآنية على منسوجات مطرزة وصوانٍ حتى تشكل صورة كاملة لحجرة، لمسكن. المغسل الرطب، حيث يتوصل تدفق النافورة المتواصل إلى الجمع في إطار واحد ما هو منزلي وما هو بريّ. وحجرة المؤونة المظلمة وذلك النسق الطويل من الحزم والعلب والقدور وأنواع السجق. وبين تلك الظلال والأنوار، هناك الحيز المحصور بين الجدران والسقوف، والمحاط بالأثاث، يدل على التوازن الصلب للحدود التي إن أُفترض ذات مرة أنها كبيرة بصورة غير متناهية، ولا بد أن تكون قد أُلغيت الآن مثلها مثل الدروب والطرقات والأشجار والحظائر والأبواب الحديدية والبساتين وكل النقاط المحتملة من حيث تُرى.

ـ لم يجر الحديث قطّ عن إقامة سدّ هناك.

ـ قلت لك إني أخطأت يا رجل ـ صاح الآخر وهو ينظر إليه في المرآة العاكسة.

أما هو، وبعد أن بدأ يطمئن خلال ذرع الشوارع تحت الضوء الذهبي، راح يداهمه خوف من وجود تحول جديد وغير متوقع.

ـ هل صار الحر شديداً؟

ـ إنه شديد في الحقيقة ـ قال الرجل ـ يكاد لا يخف حتى في الليل.

كانت هواجسه قد تلاشت عندما وصلا إلى الشارع، وأحس أنه غارق في ثقة سعيدة حين تعرّف على الكشك، وعلى لوحتي إعلان الصيدلية ومدرسة التعليم الذاتي المتقابلتين كرايتين طويلتين، وعلى منحدر سان ايسيدور الذي يطل في العمق. كان قد انتصب في أحد طرفي الشارع بناء جديد، وما سوى ذلك لم يطرأ أي تغيير لا في شكل الرصيف ولا في وضع أعمدة مصابيح الإنارة.

ـ انتظر لحظة.

ـ ألن تبقى هنا؟

Twitter: @alqareah

ـ لا أدري. سأرى.

اجتاز الباب الزجاجي الذي يفصل المدخل عن بسطة السلم الأخيرة واستدعى المصعد. كانت حجرة البواب الصغيرة فارغة، ويسود المبنى سكون صيفي هادئ. وعلى جدار الحجرة تتدلى لوحة عن أسبوع آلام، وتحتها تقويم عليه صورة فتاة شبه عارية. دوى صوت وراءه.

ـ أتريد شيئاً؟

ومن درج القبو الذي تلفه عتمة خفيفة، برزت هيئة هيلاريو التي لا يمكن الخطأ فيها، بيديه وراء ظهره، وقبعة البيريه مشدودة إلى جبهته.

ـ ألم تعد تعرفني؟

أبدى الرجل ملامح مفاجأة خرقاء وحياه بسعادة مبالغ فيها، كما لو أن وصوله حدث مهم في عادية المدخل. وقال له بعد ذلك إن أبويه غير موجودين.

ـ هذا ما تصورته ـ قال.

أظهر هيلاريو يديه. وتذكر هو حينئذ أن يده اليمنى تفتقد السُّلامية الأولى من خنصرها. إنه يحرك الآن كلتا يديه مفسراً ذلك الغياب.

ـ لقد رحلا فوراً. الحرّ شديد هنا هذه السنة. جاءت دونيا كارلوتا في طلبهما وذهبوا جميعهم معاً. وذهب أبناء الأخوة أيضاً مع درّاجاتهم والكلبة الصغيرة. ذهبوا في ثلاث سيارات. إنها قافلة.

أجل، لقد استعاد حالته الطبيعية تماماً. وقد عززت هذه الكلماتُ الوضع.

ـ لا تقلق ـ أضاف البواب ـ لدي مفتاح.

سائق التاكسي الذي كان ينظر إليه من أسفل درج البوابة، أشعل سيجارة.

ـ سأصعد لحظة ـ قال «هو».

وردَّ السائق بإيماءة ثقة. أدار وجهه نحو الشارع واستند إلى البروز الملحق بدرجات البوابة.

ـ سأعطيك المفتاح وأنت تتصرف. غداً تصعد زوجتي لترتب لك البيت.

لم يجبه بشيء. كان يقدر مدى ملاءمة أن يتوجه الآن بالذات إلى القرية، ليضع دفعة واحدة حداً للجهد الطويل، وهو على ثقة بأن وصوله إلى غايته الحقيقية بعد رحلة طويلة ومتعبة سيكون تحرراً ممتعاً.

ـ ألم يتركا معك رسالة لي؟

Twitter: @alqareah

ـ أعتقد أنهما كانا يظنان أنك ستتأخر. كانت رسائلك قليلة هذا العام.

بدا قوله لوماً. وأحس بالذنب مثلما كان يحدث حين يعاب أحد تصرفاته وهو طفل. ربت على جسد البواب النحيل من فوق السترة الخفيفة. دخل هيلاريو إلى حجرته وبحث بين أوراق متنوعة مبعثرة في درج المنضدة الصغيرة. وكانت فراشة بيضاء تحوم حول المصباح.

ـ لم يتركا كلاماً يقال. ولكن توجد رسالة لك. وصلت بعد ذهابهما.

دس الرسالة في جيبه. أخذ المفتاح واستدعى المصعد. كان صندوق المصعد القديم يحتفظ بمظهره القاتم، وأخشاب الهيكل تصرّ بطقطقة مألوفة. عندما وصل، كانت بسطة السلم تحتفظ بعتمة ذكرياته المميزة، اليومية. والمصباح المعفر نفسه يضيء الدرج من أعلى. وعلى العارضة الخشبية التي تفصل الجانب السفلي المظلم عن المنطقة البيضاء من الجدار، لم يتمكن الطلاء الحديث من إخفاء خربشة قديمة تذكارية. إنها مصطبة طفولته ومراهقته. ردهة أحلام شبابه.

تذكر عندئذ أحلامه في الفندق، عندما خيل إليه أنه قد اختُزل إلى رجل صغير جداً، إلى دمية تجارة غامضة، محفوظة في مخازن عملاقة: ذلك الوهم الذي كان، دون ريب، ثمرة ذكرى دمى الجنود المصنوعة من الرصاص والتي مازالت تقبع حتى الآن على الرفوف العليا في خزانة حجرته؛ دمى حملة بنادق وفرسان وجنود مشاة. دمية جندي صغير في علبته، مثبت إلى قطعة كرتون، هي بالضبط صورة ما حلم بها وهو بين النوم واليقظة؛ وهي هنا، في هذا البيت، وراء هذا الباب. دمية جندي صغير يرتدي الزيّ نفسه الذي كان يرتديه رجال كورتِس. وبالطريقة نفسها استعاد صورة الكرة الأرضية التي لا بد أنها لا تزال في الخزانة، أو فوق المنضدة القديمة، في حجرة الدرس، والتي كانت خطوط الطول والعرض فيها تفيده في تحديد أماكن المغامرات التي يقرؤها في الكتب. واتفاقاً مع تلك الأحلام أيضاً، كان يقف أمام الباب مثلما كان يقف في صباه، كما لو أنه الصبي نفسه الذي خرج في ذلك الصباح ليذهب إلى المعهد ويعود في النهاية إلى البيت.

فتح الباب، في أحد جانبي المصطبة، وانقضت عليه الظلمة الصامتة والفاترة مثل حيوان صغير أليف. وبصورة غريزية، بحث عن مفتاح الكهرباء فأضيء النور: على بعد خطوات أمامه أُشعلَ المصباح الصغير مضيئاً نقشاً دينياً

Twitter: @alqareah

غائراً ومفضضاً، محدداً على نحو مباغت منظور الممر المقطوع، والمعروف جيداً. وفي العمق، كان الضياء الخفيف يطل من وراء باب الرواق الموارب. أغلق الباب وراءه وتقدم خطوتين ببطء. وفي تلك اللحظة، أوقفته رؤيا متعددة: فحين أغلق الباب، اجتاز كما يبدو الحد غير المرئي لفسحة في غابة، وصارت الغابة مجدداً كثيفة ومظلمة. كانت خزانة الدروج هي جذع ضخم رمادي لشجرة هائلة. وفي ما وراء الخزانة، يمتد الممر تحت لوحتين قاتمتين، ويتداخل مع درب تحف به آجام متشابكة. كان وقع قطرة ماء يرن في مغسلة (أم إنها تكتكة ساعة؟) ويتضاءل بفعل صدى إيقاعها الرنان والمنتظم، ويتحول إلى خفق أجنحة، وإلى تردد نعيق غامض. ولكن الممر كان قاعة متحف كبيرة أيضاً. وعلى الخزانة ذات الأدراج كانت تُعرض صور قوارب شراعية، وأوان، وأزهار. وكان المصباح يضيء لوحة تذكارية لتدشين أو لحدث ما. وكانت هناك لقى أثرية مدنية من أزمنة غابرة، وكانت الأدوات المنزلية أشياء تاريخية، وسط فرقعات الغابة الكثيفة وفيض المياه البكر.

تقدم قليلاً حتى صار عند المصباح، وكانت بؤرة الضوء الكبيرة زهرة ورديّة ضخمة. وفي العمق، كان لبريق الرواق لون فوسفوري، مثل طحالب وفطور مغارة. وكان البريق ينسكب بين تجاعيد ستارة رمادية، بين حيز خالٍ من النبات، حيث يحتفظ تشابك أوراق الشجر مع ذلك بقوة ظله. وعرف عندئذ أن ذلك هو مدخل المعبد، وعرف أن الإله الضب ينتظره. وأنه كان ينتظره منذ بداية الزمان، منذ نهاية الحياة. في النوم وفي اليقظة، رابضاً هناك في الرواق، في تلك القاعة، ما بين منضدة مشوهة وعدة مقاعد متقشفة.

أدرك أنه لن يستطيع الخروج من هناك أبداً، وأن تحوّله وحلمه سيكونان نهائيين هذه المرة. تقدم خطوتين أخريين متقبلاً مصيره بإذعان.

❖ ❖ ❖

لكنك لن تدخل هذا الرواق. وستنسى فجأة الإله الضب، وصورة السلف الشبيه بالأب الذي يبدو أنه النموذج النمطي لكل الأسلاف. ستنسى الإيغوانا التي ربما هي في الواقع باسيليسكو ـ فبهذا الاسم يُعرف في بعض المناطق هذا الحيوان الزاحف الذي له زعنفة منتصبة على ظهره ـ وإن تكن أقل غرابة، وقد تكون مجرد سحلية، تقبع ساكنة لسبب ما في أحد دروب طفولتك،

Twitter: @alqareah

ظلت راسخة في ذاكرتك إلى الأبد، محافظة على فضاءات نظرتك الطفلية العريضة نقية ومضيئة. ستنسى المتحف الذي تتضخم فيه أشباح البيت بصورة بالغة الغرابة.

لن تدخل الرواق، لن تمسك بك هذه الظلمات المتربصة، لن يجعل أي تحوّل عظامك تصر، ولن يجفف أحشاءك. لا يمكن لشيء من هذا أن يحدث، لأن حدثاً ضئيلاً سيشتت انتباهك: فعند مستوى المصباح بالذات، قبالة رسم العذراء المحاط بإطار عريض أسود، سيدفعك شعور مبهم بحركة وراءك إلى الالتفات. ستتوقف. قفْ. تتوقف. تستدير بجسدك إلى اليسار. وهناك حجرة الحمّام. وراء الباب المفتوح مازالت توجد ظلال مختلطة من البلاط الخزفي، الورق الملون، أدوات الخزف الصحية. وفي العمق، المرآة التي انعكس فيها مرورك ومازالت هيئتك منعكسة فيها الآن. ويدخل من زجاج النافذة الشفاف بريق المساء المشتت، والشحيح جداً في فناء الأضواء.

ستشعل الضوء. ومن هنا ينطلق الصوت المتتالي. ليس هناك أي همس بين أوراق الشجر، ولا أي زقزقة. لا وجود لتكتكة ساعة ولا خفق أجنحة بعد الصدى اللجوج. لا وجود لأي نقر على آلة كاتبة. إنه مجرد توالي قطرات ماء تسقط من الصنبور، بعد أن تتسرب عبر «الجوانات» القديمة، وقد لوّنت بالصدأ حوض المغسلة، ببقعة تبدو علامة دم قديم.

تشعل الضوء، وترى بوضوح البقعة في المغسلة، وفوقها، في المرآة، رأسك، والشعر المشعث، والشارب الذي يكاد يغطي الشفة، واللحية التي لم تُحلق منذ أيام، منتصبة كزرع بعد الحصاد. ستتردّد، لأنك تعي الآن الصمت الذي يغمر الشقة، والبناء، والمساء. والبيت المغمور بالصمت، كما لو أنه مغمور بتراب كثيف غير مرئي، ليس شيئاً آخر سوى ما هو ظاهر عليه. ومن المكان الذي أنتَ فيه، تبدو رؤية الممر مقتضبة، لكنها تقدم وداعة بريئة، ضوءاً صدفياً وبسيطاً. هيئة الأمكنة التي تخلو أبعادها من الأسرار، تحتفظ ـ وأنت تحدق فيها ـ بالمظهر المنهوك للخدم الأوفياء القدماء.

فلتطمئن إذاً. ستفتح سبيل الماء، وستتركه يتدفق بلون الشوكولاتة، وعندما يصفو تبلل وجهك. تغسل وجهك متلقياً لمسة الماء الباردة كرسالة هدوء. إنه طقس اغتسال بطيء، مُلحّ، إلى أن تشعر بدقة أن شعر لحيتك يحك راحتيك. إنك مطمئن والآن. تفتح الخزانة الصغيرة البيضاء وتتأمل جوفها

Twitter: @alqareah

بفضول، وأنت واثق في الوقت نفسه من أنك لن تجد مفاجآت: وبالفعل، مازالت هناك قوارير صغيرة فيها يود ودواء قديم لتصلب جلد القدمين، ومقص صدئ، وعلب أدوية، وملاقط شعر، وأمشاط. وفيها كذلك معجون حلاقة وآلة حلاقة صغيرة.

ستخلع القميص، وبعد أن تضعه على المقعد الصغير، ستدعك خديك وذقنك وعنقك جيداً بالصابون لتحلق بعد ذلك بتمهل. وفي هذه الحركات التي تزيل، بألم خفيف، الشعر النامي والرغوة البيضاء، ستجد علامات سلام يلفّه بعد ذلك عطر الأب الذي تفرك نفسك به برائحة زمن بعيد، تتعرف عليه تماماً.

وبعد ذلك، وقد أعدت آلة الحلاقة الصغيرة إلى مكانها في الخزانة البيضاء، ستكون أنت بالفعل من يتأمّل نفسه في المرآة. ستُسرّح شعرك، وتلبس القميص، وتشدّ الصنبور بقوة لتوقف ذلك التنقيط، وتكون متأهباً لإطفاء النور والدخول إلى ممر هذا البيت الذي هو ممر وحسب، المجاز المؤدي إلى مختلف الحجرات، وليس غابة ولا مجموعة قاعات تاريخية كبيرة؛ لأنها تحرس أشياء العادة القديمة بصورة مؤكدة وغير قابلة للتحويل.

لن تدخل الرواق. ومن ثيابك يسقط شيء ما على الأرض، وتكشف وميض الرسالة الأبيض. وتحت مصباح الممر ستقرأ اسم المرسل الذي سيبدو لك مجهولاً تماماً. لا تعرف من هو. ومع ذلك، يدفعك نفاد صبر مفاجئ إلى فتح مغلف الرسالة بسبابة يدك اليمنى، دون أن تبحث عن أداة مناسبة لفتحه، فتحدث فيه تمزقاً غير منتظم، تمزقاً منشارياً ذا شقوق كبيرة متتالية.

المغلف يحتوي ورقة مطوية مرتين، ومكتوبة بخطٍ جيد. المعلم المحترم. مطلع توقيري، تحت التاريخ المكتوب بأرقام رومانية. يبدو أن قارئاً شاباً هو من يعبر عن إعجابه الحار. لديك هنا مادح مجهول لعملك. إنه يعرب بإيجاز عن رغبته في التعرف عليك، وتقديم تحيته إليك شخصياً. ويودّع بخشوع مقتضب. يذكر كنيتيه ولكن دون إمضاء. وقد تحولت إفرازات قلم الحبر الناشف الصغيرة إلى نقاط باهتة.

لن تدخل هذا الرواق. فليس ثمة غابة، ولا متحف. لا وجود لمعبد يقبع فيه إله قديم، ولا صالة تُحفظ فيها صورةٌ أحجية. لفضاء هذا البيت الملامح المنيعة لواقع وحيد، حيث لا يقبع أي شيء مختلف وراء المظهر. ستعيد جمع مزق

Twitter: @alqareah

المغلف إلى بعضها ثانية كي تتوصل إلى معرفة كاملة لهوية المرسل. لكنك ستكتشف أنه شخص مجهول. ولا تعرف، فعلاً، من هو.

والآن، ستنبعث فيك أحاسيس متنوعة. سينبعث فيك تعاطف أولي نحو هذا الشاب المختلف الذي يعبر لك ـ وسط الصمت المعهود لبلد مولدك ومدينتك الأصلية تجاه شخصك ـ عن محبته لعملك. ويتحد التعاطف مع البهجة الغامضة التي لابد أن يكون قد أيقظها التكريمُ فيك، وبعد ذلك سيدفعك أيضاً دافع ذو سمة شبابية مغامرة إلى البحث عن مرسل الرسالة، وهو من سكان المدينة كما يبدو، كي تعبر له عن امتنانك الودي. وفي الوقت نفسه، سيستيقظ فيك الوعي بأن ذلك قد ينطوي على اتصال يمكن له أن يوسع ميدان محاضراتك الإسبانية القليلة، وبالتالي زيادة مواردك التعليمية الضئيلة.

لن تدخل هذا الرواق. فعند مستوى منتصف الممر، عند الثريا البرونزية الصغيرة التي يتدلى منها مصباح متطاول وضعيف، قبالة صورة العذراء التي على صفيح مفضض والمحاطة بإطار كبير أسود ذي زخارف ناتئة، ستتوجه مباشرة إلى باب الخروج.

ستطفئ النور، وستدير المفتاح مرتين، وستستدعي المصعد. لا أحد عند مدخل البناء. لابد أن هيلاريو قد رجع إلى مشاغلة في القبو حيث تتردد أصداء نشر خشب. تغادر البوابة وتخرج إلى الشارع. السائق في سيارة الأجرة، ينظر إليك بمزيج من الاستغراب والارتياح.

«المعذرة»، تقول، «انتهزتُ الفرصة لأغتسل قليلاً. إنني على سفر منذ يومين». لا يقول هو شيئاً، في موقف حذر. «اسمع» يهتف أخيراً وهو يرفع يديه عن المقود ويلتفت بجسمه، «أتريد الذهاب إلى القرية الآن؟». تقاطيع وجهه أيضاً كبيرة وقاسية، وله نابٌ مذهب يلمع حين يتكلم. «لماذا؟» ستسأل أنت. ويهز هو يديه الكبيرتين في حركة اعتذار. «أنظر، لقد تأخر الوقت بالنسبة لي. أنا أنتهي من العمل في هذا الوقت. إلا إذا أُخبرت مسبقاً بالطبع».

لن تجيب بشيء. ستُخرج مغلف الرسالة من جيبك. «لا، لقد تأخر الوقت للذهاب إلى القرية اليوم». وستقرأ العنوان بصوت عالٍ. «أتستطيع إيصالي إلى هناك؟». «فلنر إن كنت تفهمني. أنا أوصلك إلى حيث تريد. على ألا تتجاوز الرحلة عشرين كيلو متراً». « هذا العنوان في تروباخو». «هيا بنا إذاً».

البيت على مسافة بعيدة بعد الكروثيرو. تأخذ أمتعتك، وتدفع للسائق،

Twitter: @alqareah

وترى السيارة تبتعد. إنه بناء من طابق واحد، قديم، جدرانه منتفخة وسقفه عريض يثقل على الإفريز البارز مجبراً إياه على الانحناء. كانت عصافير لخٍطف تقطع الشارع مزقزقة، وآخر بريق النهار يكاد لا يضيء ظل واجهات المباني.

باب البيت من ألواح خشبية سميكة، أعيد طلاؤها حديثاً بلون بنّي. في أسفله كوة مدورة للقطط. ستقرع بالمقرعة الحديدية عدة مرات. وأخيراً سيُفتح الباب وسيظهر في فراغه فتى مشعث الشعر.

ستظلان كلاكما صامتين، تتبادلان النظرات بفضول مكبوح. لن تكون لحظة واحدة، بل وقتاً طويلاً. ستبدو لحظة، لكنك ستعرف أنه زمن فسيح على هامش الساعات والنبضات. الزمن الذي يتطلبه اجتياز حدود الأحلام واليقظة. سيقول الفتى شيئاً. وعندما تجيب، ستعرف أنك على وشك الاستيقاظ. فهكذا ينتهي، هكذا يبدأ كل شيء حقاً.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

ولد خوسيه ماريا ميرينو في مدينة لاكورنيا الإسبانية عام 1941. ودرس الحقوق في جامعة مدريد. وعمل لسنوات عديدة بالتعاون مع منظمة اليونسكو في تطوير مشاريع ثقافية في أميركا اللاتينية.

بدأ نشاطه الأدبي بكتابة الشعر، لكنه مالبث أن تحول إلى الكتابة القصصية بإصدار رواية أندريس تشوث عام 1976. وتميز بصورة خاصة بمساهمته البارزة في تطوير فن القصة القصيرة الإسبانية خلال العقود الماضية. وقد امتد نشاطه الثقافي إلى مجالات متعددة، كالنقد الأدبي والدراسات والمقالات الصحفية.

@ketab_n

نال جائزة النقد الوطنية (1985) عن روايته التي نقدمها هنا، كما حصل على الجائزة الوطنية للآداب، ومُنح جائزة ميغيل ديلبس عن روايته رؤى لوكريثيا التي صدرت سابقاً عن دار المدى.

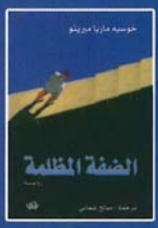

تشكل مقولة أن الأحلام هي قوام الإنسان وجوهره، عماد أعمال خوسيه ماريا ميرينو القصصية والروائية التي تطغى عليها موضوعات الأسطورة والحلم والذاكرة. وفي الضفة المظلمة، يتوغل ميرينو من خلال شخصية البطل في موضوع الآخر أو القرين بالسير على الحد الفاصل بين الحلم واليقظة، والتشبث بالذاكرة التي هي الهوية في نهاية المطاف.

هذه رواية حول الذاكرة والحلم، حول تذكر ماضٍ واستحضاره من خلال قصص حاضر يختلط فيه الواقعي بالمتخيل وبالذاكرة الطفولية في عتمة الأدغال وضيائها، حيث تشكل الأحلام رحلة نحو الأصول. بطل الضفة المظلمة يستغرق في التقاء كل هذه القصص في أعماقه، وتنتهي فترة أقامته في بلد أمريكي إلى اللقاء، في مكان من الذاكرة، بحكايات الطفولة القديمة، ويحمله المتخيل خلال رحلة نهرية عبر الأدغال إلى الضفة الأخرى حيث ينتهي وعي الحلم في التحول إلى رحلة نحو أصوله.

ISBN:2-84305-961-X
9 782843 059612

COVER DESIGN BY RIYADH NEAMA